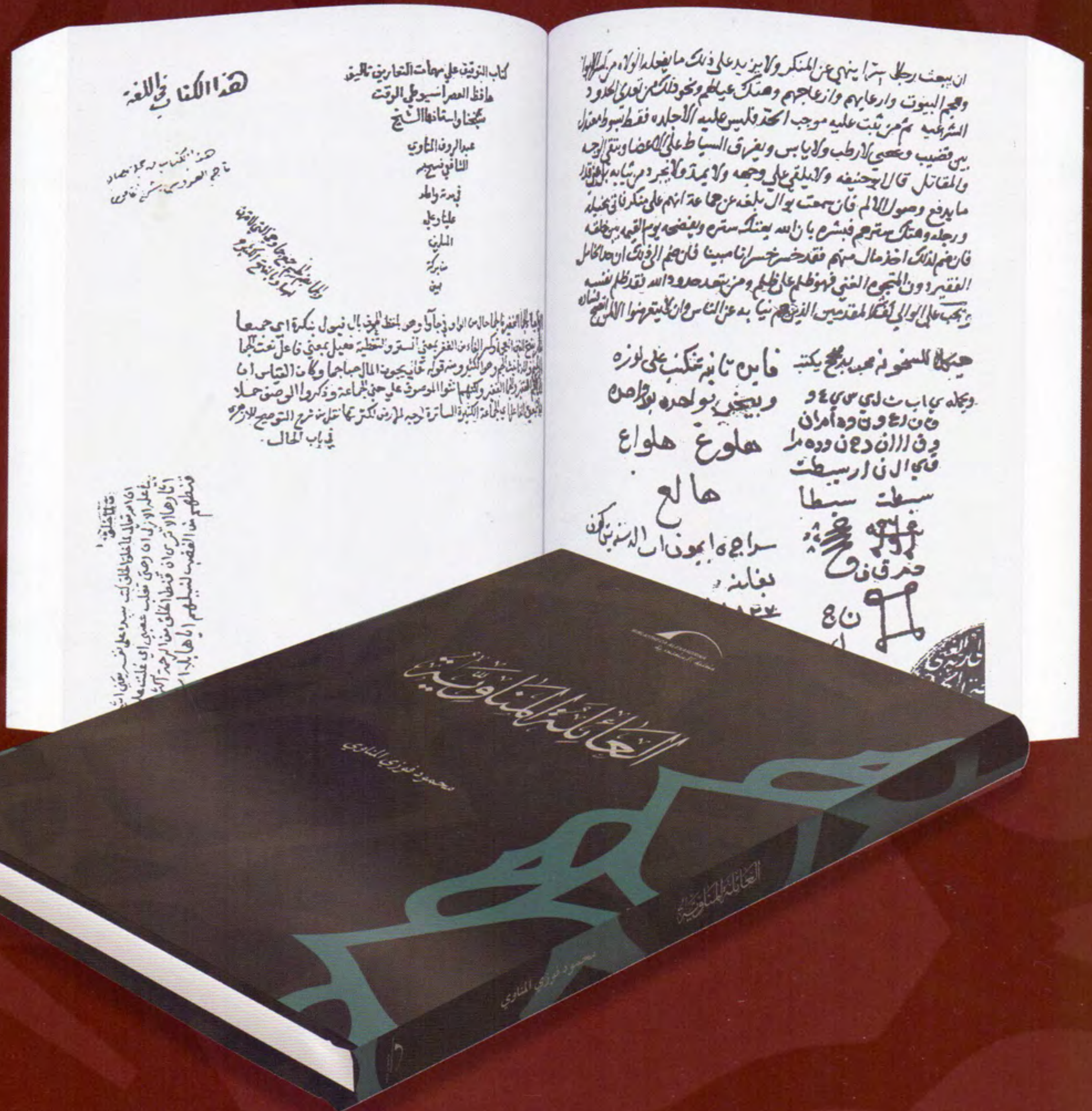


مجلة ربع سنوية - العدد الثاني والعشرون - يوليو ٢٠١٥

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

عدد خاص
محمد علي باشا

من إصدارات مكتبة الإسكندرية




ALI RÉGÉNÉRATEUR
DE L'ÉGYPTE.


IL SAIT
DÉFENDRE
AVEC
NOBLESSE
L'HONNEUR
DE
SON PAYS.
NESIB 1839





نمرو ١

في ٢٥ جمادى الاول سنة ١٢٤٤

١٨٢٨

يوم الثلاث

وقايع مصريه

جواهر تحميد خدا نثار وزواهر تصلية سلطان انبيا ايثار قلندقدنصكره
معلوم اوله كه نسخهٔ مطبوعهٔ عالمده منتشرده صنوف سطورا اولان نوع بنى
آدمك بالطبع تمدن واجتماع وائتلاف واختلاطلرندن نشئت ايدن حركات
وسكنات وكديكره احتياج اقتضاسيله واقع اولان معاشرات
ومعاملاتلرنك معانى وقايع وسائر مواقعنى متضمن خبرنامه لر مباينه لرنده
نشر اوله رق مزاج وقته واقف وكيفيت حاله عارف اولدقلرى ازهر
جهت به دعبرته بادى وبر صورت ايقان وتبصره مؤدى برحالت ايدوكى
نور اور بصيرت قلوب اولى الالبابده سيما خطهٔ مصر فريدة العصرك مصالح
زراعت وحراثت وانواع صنايع وحرفت موادندن سوزده ظهور اولان
فتق ورتق امورى بالمعاينه موجب رفاه ورخا اوله جق اسباب تمكينه نك
استحصالنه سعى وكوشش وموجب ضرر وكزند اولان كيفياتدن اجتناب
واحتراز جهد وورزش سرمايهٔ انتظام وانتظام عمارت قرا وبلاد ومدار مايهٔ
آسايش وراحت اهالى وعبادالله بعدن فكر وتدبيرى انتظام عمارت
قرا وبلاده صرف ووراى ورويتى رفاهيت وراحت فقراى عباده وقف اوله
كلان آصف مرحمت معتاد افندم مزك جرنال ديوانك وضع وتاسيسندن
مراد معدلت اعتياد داورانه لرى اقاليم مصريه مأمورلرى بر فقرلريله سبب
المصلحه منافع ومضاره دائر قلمه آلنان خصوصات واقعه جرنال ديوانه
كلك واول ديوانده تنقيح وتشخيص قلنوب واندن حاصل اوله جق صورته
فوقلق واقتضا ايدنلره نشرى ايجاب هر مصلحتده كوريلن منفعت ومضرت
مأمورلرك معلوملرى اوله رق موجب نفع اولانى انتخاب ومستلزم ضرر
اولاندن اجتناب اولنمق صورتلرى اولوب بو ارادهٔ خيريهٔ خديويه بو آنه
قدر جرنال ديوانده اولدقجه اجرا اولنمقده ايسه ده لايقيله نشر واعلان
اولنمامسى ومجلس داورديده مذاكره اولنان وديوان خديويده رؤيت قلنان
خصوصات وحجاز وسودان ولايتلرندن وسائر اطراف واكنافدن كلان
اخبار روايات دخى قلمه آلنوب ذكر اولنان وقايع مطبوعه يه علاوه قلنمسى
خصوص اولاده فوائد حسنه نك حسن حصولنه بادى ومأمورين عظام
وسائر حكام ذوى الاحترامك موافق مصلحت اولان صنوف اموره
اشتغاله مؤدى اوله جغى واضح اولديغى ضمير الهام مسير حضرت داورى يه
لايح اولوب طبع وتمثيل ايله تكثيرنه امر واراده لرى سانح اولديغندن
مستعينا بالله المعين طبع وتمثيله مباشرت اولنمش ووقايع مصريه ناميله اسم
وشهرت ويرلمشدر وبالله التوفيق

الحمد لله بارئ الامم والصلوة والسلام على سيد العرب والعجم اما بعد
فان تحرير الامور الواقعة من اجتماع جنس بنى ادم المندرجين فى صحيفة
هذا العالم ومن اختلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم
التى حصلت من احتياج بعضهم بعضا هى نتيجة الانتباه والتبصر والتدبير
والايقان واظهار الغيرة العمومية وسبب نعال منه يطلعون على كيفية
الحال والزمان وهذا واضح لدى اولى الالباب ومن حيث ان الامور
النفعية الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى انواع الصنايع التى
باستعمالها تاتى الرفاهية ويتيسر اسباب الحصول على الرفاهية ومن
الاجتناب والاحتراز عما ينتج منه الضرر والاذا خصوصا فى مصر
بل هى اساس نظام البلدان وتدبير راحة اهلها تفكر حضرت افندينا
ولى النعم فى ترتيب احوال البلاد وتمهيدها واعتدال امور اهلها وتوسيعها
وفى نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجرنال
كان امر وضعه ان ترد الامور الحادثة الناتج منها النفع والضرر الى
الديوان المذكور وان ينتخب ويتضح فيه منها ما منه ينتج النفع والافادة حتى
اذا ظهر عند المامورين نوعا النفع والضرر ينتخب ما منه تصدر المنفعة
ويجتنب عنه ما منه يحصل الضرر وهذه الارادة الصالحة الصادرة من حضرة
سعادة ولى النعم وان كانت قد جرت فى ديوان الجرنال الى الان الا انها لم تكن
عمومية انما الان فاراد ولى النعم ان الاخبار التى ترد الى الديوان المذكور
تتضح وينتخب منها ما هو مفيد وتنتشر عموما مع بعض الامور التى ترفع من
مجلس المذاكرة السامى والامور المنظور بها فى ديوان الخديوى والاخبار
التى تاتى من اقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات اخرى وذلك ليكون
كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التى هى مقصود ولى النعم وتقوية
لممارسة المامورين الفخام وباقى الحكام الكرام المقلدين تدبير الامور
والمصالح ومن كون هذا الشئ قد لاح فى ضمير الذات السنية ولى النعم صدر
امره الشريف بطبع الامور المذكورة وانتشارها عموما مستعينا بالله وقد سميت
واشتهرت بالوقايع المصريه وبالله حسن التيسير

العدد الأول من الوقائع المصرية - نسخة مكتبة الإسكندرية



الفهرس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

المشرف العام
إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس التحرير
خالد عزب

سكرتير التحرير
سوزان عابد

المراجعة والتصحيح اللغوي
أحمد شعبان
رانيا محمد يونس
فاطمة نبيه

التصميم والإخراج الفني
ريم نعمان

عناوين
محمد جمعة

الإسكندرية، يوليو ٢٠١٥

L'EGYPTE

AU

XIX SIECLE

MEHEMET ALI EST UN GRAND HOMME

UN HEROS!

DE LAMARTINE.



تقديم

بين يديك عزيزي القارئ عدد خاصٌ عن مؤسس الأسرة العلوية في مصر؛ محمد علي باشا، ذلك الرجل الذي قدم لمصر الكثير، واختلفت الآراء حول أهدافه من تحديث مصر؛ هل كانت خالصة لوجه مصر والشعب المصري أو أراد بها مجدًا ذاتيًّا؟

حاولنا في هذا العدد أن نتطرق إلى ملامح شخصية محمد علي وتركيبتها النفسية التي انعكست على أفعاله، والبيئة التي نشأ فيها وعلاقته بإسطنبول قبل حكم مصر، وغيرها من التفاصيل التي ربما تعطي صورة واضحة عن شخص محمد علي. كما تناولنا مشروعه التوسعي وتجربته في حكم الشام وما له وما عليه من هذه التجربة. بالإضافة إلى جانب مهم في حكم محمد علي لمصر وهو مشروعاته الإصلاحية الكبرى، ومنها على سبيل المثال ترسانة الإسكندرية، ومطبعة بولاق، وأعماله بقلعة الجبل، واهتمامه بالبعثات التعليمية والهدف منها وهل حققت المرجو منها أو لا؟ كما تناولنا جانبًا جديدًا خاصًا بعمائر وأوقاف محمد علي بمسقط رأسه؛ مدينة قولة اليونانية؛ ثم الدور الذي لعبته الدول الكبرى وتحالفها من أجل تقويض طموح الباشا الذي يحكم مصر لحساب المصالحة الدولية الكبرى. ولم نغفل أيضًا بعض الجوانب الاجتماعية الخاصة بعصره، ومنها بداية استخدام عربات الخيول في مصر، وترقيم وتسمية شوارع القاهرة، وغيرها من الموضوعات التي نتمنى أن تنال إعجابك وتضيف إلى هذه الفترة التاريخية الجديد.

مضت مائتان وعشرة أعوام على أول يوم تقلد فيه محمد علي حكم مصر في يوليو ١٨٠٥م، نتج عنها تحول تاريخي وسياسي هامٌ في تاريخ البلاد، بداية من انتهاء نظام المماليك وانتهاءً بتأسيس أسرة تتولى حكم مصر لقرابة المائة والخمسين عامًا، وسقطت بالثورة على آخر ملوكها الملك فاروق في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ثم بإعلان تأسيس الجمهورية المصرية في ١٩٥٣م.

في هذا العدد استعنا بمقالات من كتب عربية وأجنبية بعضها ينشر لأول مرة باللغة العربية.

خالد عزب

رئيس التحرير



محمد علي

عفاف لطفي السيد
ترجمة: عبد السميع عمر زين الدين
السيد أمين شلبي

ذاكرة مصر



لا يختلف ثغر قولة الصغير المسور الواقع في مقدونيا عن عدد لا يحصى من ثغور الإمبراطورية العثمانية الأخرى المماثلة له في عدم الشهرة. الشوارع ضيقة متعرجة، والطرقات والمنازل مطلية بالجير الأبيض، تتلألأ تحت حر الظهيرة، وتؤذي العيون بوهجها. تحيط بكل منزل رقعة خضراء وكرمة أو شجرة تين لتحميه من الشمس. السيدات بملابسهن السوداء يسرعن الخطى لأعمالهن. ورجالهن، الصيادون أو البحارة، قد سبقوا وغادروا الميناء قبل الفجر وعادوا في منتصف الصباح ومعهم صيد يومهم. وتتراءى هنا وهناك بقعة لونية تعلن عن جندي تركي في زيه الرسمي، فقد كانت قولة - وهي مجرد نقطة في وسط الإمبراطورية العثمانية مترامية الأطراف - يحكمها محافظ عثماني. وكان ميناؤها يموج بالحركة، وكان الجانب الأكبر من تجارته يدور حول الدخان الذي كان يزرع في الأراضي الداخلية، وكان على درجة عالية من الجودة.

في واحد من هذه المنازل الصغيرة، ولد طفل اسمه محمد علي. وليس معروفًا على وجه اليقين سنة ميلاد هذا الطفل. ومن الممكن أن تكون في وقت ما بين ١١٨٢- ١١٨٤هـ، أي فيما بين مايو ١٧٦٨م وإبريل ١٧٧١م وفي سنوات لاحقة، وبعد أن أصبح مشهورًا؛ اختار محمد علي سنة ١٧٦٩م لتكون سنة ميلاده، وقد بدت السنة التي ولد فيها نابليون، وولنجتون، وناي سنة حسنة الطالع بالنسبة للجنرالات النابغين. هذه السنة التي تقع بين ٢٠ شعبان ١١٨٢هـ، و٢ رمضان ١١٨٣هـ، لم تكن سنة ميلاده الحقيقي.

ففي سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، تم سك ميدالية ذهبية تذكارية لإنشاء القناطر الخيرية عبر النيل شرقي القاهرة، وسجل عليها أن محمد علي ولد سنة ١١٨٤هـ. (بالتركية: بين يوز سكسان دورت)، وهي السنة التي بدأت في ٢٧ إبريل ١٧٧٠م، وانتهت في ١٥ إبريل ١٧٧١م ولإضافة المزيد من البلبلة، فإن شاهد قبره يعطي تاريخًا مختلفًا. فهو يشير إلى أنه مات في ١٣رمضان ١٢٦٥هـ/ أغسطس ١٨٤٩م، عن عمر يبلغ ٨٢ عامًا، وعلى ذلك فإن مولده يكون في عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩- ١٧٧٠م. وعندما نضع هاتين المعلومتين معًا، فإننا نستنتج أنه لابد أن يكون قد ولد في مطلع عام ١٧٧٠م. وتحتوي دار الوثائق المصرية على كم هائل من المراسلات بين القصر والأخصائيين في دار الوثائق تكشف عن محاولة لتحديد التاريخ الصحيح للميلاد عندما كان الملك فاروق يخطط للاحتفال بمئوية سلفه. وبدا كما لو كانت الأسرة المالكة غير واثقة تمامًا من تاريخ ميلاده؛ نظرًا لوجود اختلافات بين التواريخ المتاحة. وفي النهاية، وافق الأخصائيون في دار الوثائق على أن التاريخ الصحيح هو عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م.

جاء محمد علي من سلالة متواضعة، كان ابن إبراهيم أغا بن عثمان أغا بن إبراهيم أغا، وهو ما يظهر خلفية عسكرية امتدت لثلاثة أجيال. وفيما وراء ذلك، لا يعرف إلا القليل عن الأسرة أو عن أصولها. وبينما وصفهم المؤرخون بأنهم من أصل ألباني، فإنه من الأمور المتواترة في الأسرة أنهم قد يكونون من سلالة كردية، وجاءوا من إحدى القرى؛ قرية إليتش، في شرقي الأناضول؛ حيث عملوا في تجارة الخيول. وفي زمن ما انتقلت الأسرة من قرية أصلية غير معروفة إلى عمر بكير، ومن هنا انتقل عثمان أغا ووالده إبراهيم أغا إلى قونية في أول الأمر، ثم بعد ذلك إلى قولة، وكان آخر انتقال لهم نتيجة لتورطهم في عملية ثأر، ولا نعلم الكثير عن الحادث، وتشير الوثائق ببساطة إلى حادث دم، عندما اضطرت الأسرة إلى الرحيل في عجلة خوفًا من الانتقام.

وفي قولة، صاهر إبراهيم أغا أسرة محافظ شوربجي قولة؛ كانت عروسه تسمى خضرة. وعين بسبب ذلك قائدًا لجماعة من الجند غير النظاميين؛ (بالتركية: يول أغاسي) ونما محمد علي في بيت والده، على الرغم من أنه كان دائمًا يزعم في سنوات لاحقة أنه عانى اليتم في سن مبكرة، وأن طوسون شقيق أبيه هو الذي قام على تربيته. كان هذا محض خرافة. فقد مات إبراهيم أغا عندما كان ابنه في العشرين من عمره رجلاً كامل النضج ومتزوجًا. وقد دُوِّن على شاهد قبر إبراهيم أغا تاريخ وفاته ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م. أما لماذا اخترع محمد علي هذه القصة، فيمكن تفسير ذلك بعدة طرق. فربما كان على علاقة سيئة بأبيه وأنه اختار أن يعيش مع عمه طوسون. وكان هذا تصرفًا شائعًا فيما بين الأسرة المتشعبة، خاصة إذا لم يكن للعم أبناء من صلبه. ومع ذلك لو كان محمد علي على علاقة سيئة بأبيه؛ فإنه لم يكن يسمي ابنه الأكبر إبراهيم ويسمي ابنه الثاني طوسون، ولكان قد عكس الأسماء ليكرم عمه أولاً. والبديل لذلك والتفسير الأكثر احتمالاً، أنه اخترع حالة يتمه؛ ليعلي من قدر نفسه كرجل عصامي ارتفع إلى المجد في مواجهة ظروف شاذة لا تقهر، بما في هذا الحرمان المبكر في الحياة. وربما كان يكمن وراء هذا التلفيق رغبة لا شعورية في قطع كل الصلات بماضيه، لإنكار هذا الماضي من جهة، ولاختراع ماض آخر أكثر ملاءمة لحياته الجديدة ولمركزه الاجتماعي من جهة أخرى. وكانت هذه العوامل هي نفسها التي دفعته إلى تلفيق تاريخ ميلاده، ليشارك فيه رجالاً أعجب بهم، ففيما يتعلق



به كانت كل تواريخ الميلاد تستوي، وربما كانت قصة يتمه نابعة من عداوة مختفية لأبيه، ورغبة في الانتساب إلى عمه. وأخيرًا ربما كانت مخترعة من أجل أولاده، ليظهر التباين بين ظروفهم كأبناء لوالد مرموق جليل، وظروفه هو اليتيم الذي لم يكن له سند في الحياة، ورغم ذلك ارتفع إلى الشهرة والمجد من خلال جهوده. وليعلم أبناءه أن لديهم ميزة انتسابهم لوالد شهير يمكنهم أن يرتفعوا في الحياة أكثر، إذا ما شحذوا فكرهم من أجل ذلك. وربما أحس محمد علي أن أبناءه الأصغر سنًّا الذين نشأوا في يسر وثراء لن يكون لهم نفس الصلابة التي اتصف بها ابنه الأكبر، وأنهم لن يكونوا مقاتلين، لذلك فقد كان دائم المقارنة بين الذرا الشاهقة التي ارتفع إليها، وبين الأعماق الوضيعة لخلفية أسرته المتواضعة وانفصاله المبكر عن أبيه كحافز لهم لاستيعاب دروسهم ليصبحوا رجالاً عظماء كذلك.

كان إبراهيم أغا يتاجر في الدخان كنشاط جانبي، وكذلك في تأجير السفن. وعندما بلغ محمد علي العاشرة أشركه والده معه في تجارة الدخان. ثم خلف أباه بعد مدة في رئاسة الجنود غير النظاميين، وفي تجارة الدخان كذلك. ومن خلال معاملاته في الدخان التقى مع رجل من مرسيليا يدعى م. ليون الذي كان يعمل قنصلاً لفرنسا في قولة، وأصبح صديقًا وربما شريكًا له. وقد شاعت بعد ذلك قصة مؤداها أن محمد علي قد دعاه للاستقرار في مصر، لكن ليون توفي في نفس اليوم الذي كان من المقدر أن يصل فيه إلى القاهرة. والقصة في أغلب الظن مشكوك فيها؛ إذ تتشابه تمامًا مع قصة اخترعت عن شخص أرميني كاراكيهيا لدرجة لا تبدو معها صحيحة. وربما تكون قد اخترعت لإظهار الصلات المبكرة التي نشأت بين محمد علي والفرنسيين، وسيقت كمبرر لدعوته للكثيرين من الفنيين الفرنسيين إلى مصر. وربما كانت ببساطة تلفيقًا من جانب أحد كتاب سيرته، أولئك الذين اخترعوا العديد من القصص عنه، وكان ذلك موضع تشجيع منه باعتباره يمثل إضافة إلى أجواء المهابة التي تحيط به.

وفي سن السابعة عشرة، حوالي عام ١٧٨٧م بعد أن برز محمد علي في عدد من المناوشات ضد الفلاحين العصاة الذين رفضوا دفع ما عليهم من ضرائب، استُدعي إلى إسطنبول وأُسندت إليه قيادة سفينة حربية لمطاردة القراصنة في بحر إيجة. إن هذه على الأقل كانت الرواية التي أوردها أحد خلفائه. ولم يتضح أبدًا السبب الذي دعا إلى إسناد قيادة سفينة حربية إلى ابن أحد قادة جنود غير نظاميين. ومن الممكن أن تكون هذه القصة قد اختُرعت هي الأخرى لإظهار أن الرجل اكتسب خبرة بحرية وهو في مطلع حياته. كما قد تساعد كذلك في تفسير رغبته في بناء قوة بحرية وتجارية، على الرغم من أن المرء لا يكاد يحتاج إلى أن يكون ضابطًا بحريًّا لكي يقدر أهمية القوات البحرية للدولة. وقد قيل إن تجربة بحر إيجة قد طبعت في ذهنه المهارة والمقدرة البحرية للبحارة اليونانيين الذين شكلوا أطقم سفن القراصنة. غير أن أي إنسان في منطقة بحر المتوسط كان على وعي كامل بالتمكن البحري لليونانيين، فقد كانت معظم سفن البحرية العثمانية مزودة بأطقم من البحارة اليونانيين؛ فقد كان من الممكن الاكتفاء تمامًا بالحياة في قولة لاكتساب مثل هذه المعارف مرة أخرى، يمكن أن تكون هذه القصة نتاجًا لخيال خصب لشخص ما، أكثر من كونها قائمة على دلائل حقيقية. ومن ناحية ثانية ربما كان من عادة العثمانيين أن يستعينوا بالشباب في سفن الدورية من وقت لآخر، خاصة إذا ما كان هناك نقص في أفراد القوات البحرية.

والذي نعلمه حقيقة، هو أن محمد علي قد اقتفى أثر والده في أن يكون جنديًّا، وأنه شارك في عدد من المناوشات؛ حيث اجتذب دهاؤه ومهارته فيها انتباه رؤسائه الذين أوصوا بترقيته إلى مركز قيادي أعلى.

وفي ذلك الوقت تزوج محمد علي بامرأة على جانب نسبي من الثراء، تدعى أمينة، كانت من قريبات المحافظ. وكانت أمينة قد تزوجت من قبل زواجًا رسميًّا من رجل آخر، رغم أن الزواج لم يكتمل إذ كان قد تم التوقيع على عقد الزواج لكن الزوج توفي قبل أن يتمم زواجه. وكانت الأرملة الشابة قد ورثت ميراثًا ضئيلاً عندما تزوجت من محمد علي. وقد أثار هذا الزواج المبكر فيما بعد قصة خيالية مؤداها أن إبراهيم لم يكن أكبر أبناء محمد علي، وإنما كان ابنًا لزوجته من زوجها السابق. ويبدو أن القصة قد شاعت حوالي ١٨٤٦م وأوردها هيكيكيان في يومياته؛ حيث كتب يقول: «يبدو من المؤكد تمامًا أن إبراهيم لم يكن على الأكثر إلا ابنًا بالتبني، نتاجًا لعلاقات غير شرعية وغير ناضجة لمحمد علي». إلا أنه في صفحة ٢١٥ من نفس الكتاب يذكر أنه سمع محمد علي يتحدث عن إبراهيم باعتباره ابنًا له. ويبدو أن قصة كهذه قد اختُرعت من قبل الجبهة المعارضة لإبراهيم. وهم فئة التفت حول عباس ابن أخي إبراهيم، وبالتالي له في الوراثة، بهدف الإطاحة بإبراهيم لصالح عباس. والقصة كاذبة بكل وضوح؛ إذ إن محمد علي في كتاباته للسلطان، قد أكد في مناسبات عديدة أن إبراهيم هو أول ابن مولود له.


محمد علي باشا

وقد أنجبت أمينة هانم لمحمد علي ثلاثة أبناء. ولد إبراهيم عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩- ١٧٩٠م في نصرتلي التابعة لدراما؛ حيث كانت الأسرة قد لجأت إليها هربًا من طاعون وبائي أهلك قولة. والثاني هو أحمد طوسون وُلد عام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م. والثالث هو إسماعيل كامل وُلد عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م. كما أنجبت له بنتين؛ هما: توحيدة التي ولدت عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، ونازلي التي ولدت عام ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م.

وقد سافر الزوج إلى مصر بعد ذلك، وافترق الزوجان لمدة تقارب عشر سنوات، وكانت أمينة الزوجة الشرعية الوحيدة التي اتخذها محمد علي طيلة حياته على الرغم من أنه اتخذ لنفسه ثمان أو عشر سراري، وكان أبًا لسبعة عشر ولدًا وثلاث عشرة بنتًا. وقد ولد آخر طفلين له عندما كان قد تجاوز الثالثة والستين عام ١٨٣٣م. وقد نسب أحد المؤلفين من ذوي الخيال الواسع إلى محمد علي أبوة خمسة وتسعين طفلاً، ويمكن للمرء التسليم بأن ثلاثين طفلاً عدد وفير بما يكفي ولا يحتاج لمضاعفته مرات ثلاثًا.

ولم يعش من بعده من بين أولاده إلا سعيد وعبد الحليم ومحمد علي الصغير، ومن بين البنات كانت ثانية كبرى بناته، نازلي، التي كانت متزوجة من محمد بك الدفتردار. كما عاش بعده عدد من السراري. ولا بد أن أمينة كانت امرأة غير عادية، فقد كان زوجها مغرمًا بها وعاملها باحترام. وكان رسم صورتها الشخصية - الذي كان معلقًا في قصر الجوهرة في القلعة قبل أن يحترق القصر - يظهر سيدة مليحة الوجه، لكن تبدو ذات شخصية طاغية بحاجبين سوداوين كثيفين مكحلين، يلتقيان فوق عينيها على النمط الذي كان سائدًا يومها، ويحيط بها إحساس عام منفر. ربما كان هذا نابعًا من رؤية الفنان لها، أو من تعبيرها عن المهابة حالة جلوسها للتصوير. وكان أولادها جميعًا حسني الطلعة، كما كان حقًّا سائر ذرية محمد علي، باستثناء عباس الذي كانت تشوه مظهره ملامح دائمة التجهم، وكذلك سعيد ببدانته المفرطة.

وكان محمد علي رجلاً قصير القامة ممتلئ الجسم ذا ذراعين مميزتين قصيرتين. وهي صفة خلقية ورثها عنه ابنه الأكبر إبراهيم. وكان ذا شعر أشقر، وعينين عميقتين رماديتين، وفم صغير ويدين جميلتين. وكان الناس للوهلة الأولى يلحظون عينيه اللتين كانتا على الدوام مليئتين بالحياة. وقد أبدى أ.أ. باتون A. A. Paton الذي تقابل معه بعد أن ذهب عنفوانه، هذه الملاحظة: «إذا كان ثمة رجل تفصح عيناه عن العبقرية، فهذا الشخص هو محمد علي لم تكن عيناه ذابلتين أو خامدتين. كانتا آسرتين كعيني غزال؛ أو قاسيتين كالنسر ساعة الغضب». وفي حوالي الفترة نفسها زار كوبدن Cobden محمد علي ووصف عينيه القلقتين، ولم ير كوبدن فيهما أية عبقرية، إنما مجرد عيني صاحب حانوت يرقب السرقات الصغيرة في حانوته؛ وبالنسبة له لم يكن هناك شيء مثير أو وسيم في ملامح محمد علي، ولم تفصح عيناه عن عظمة خلقية أو ذهنية. حتى لحيته الكثيفة البيضاء لم تثر إعجاب كوبدن الذي زعم أنه رأى لحى أكثر ثراءً حول ذقون الكثيرين من رعاياه التي لو كانت حقيقية فإنها تعني أن كثيرًا من المصريين مصابون بحالة متقدمة من مرض كثافة الشعر. وحاول كوبدن الذي كان حاذقًا في علم الفراسة أن يحلل النتوءات التي علت رأس الحاكم بواسطة النظر من خلال عمامته العريضة على الأرجح، مستنتجًا أن جمجمته تتوافق مع قوة الشخصية غير العادية التي يعكسها هذا الجندي الناجح، بينما تتناغم جبهته العريضة كبيرة الحجم مع قدراته الذهنية الفائقة التي أظهرها في مخططات تعظيم الذات التي رسمها لنفسه، وربما أمكننا الصفح عن الملاحظات التي أبداها كوبدن إذا ما علمنا أنه كان له مآرب لدى الحاكم؛ رغم موقفه هذا. إن صورة محمد علي التي تبرز من الوصفين ومن الصور المرسومة له التي بين أيدينا، هي صورة رجل حسن الطلعة ذي عينين حادتين تجتذبان الانتباه للوهلة الأولى.

كان محمد علي نظيفًا بصورة تامة النقاء، كما روى نوبار وآخرون، كان يحلق رأسه كل يوم، ويقضي وقتًا طويلاً عند استحمامه كل صباح. وعلى امتداد حياته تجنب أن يرتدي إلا أبسط الملابس، وذلك في تناقض متعمد للملابس المفرطة في زخرفتها التي كان يرتديها أبناؤه، ورجال بلاطه.

وقد أجمع كل من التقى بمحمد علي، وطنيين كانوا أو غرباء، على الإعراب عن جاذبيته الطاغية، وفوق كل شيء عن أدبه الجم، تلك السمة التي يتصف بها الرجل المهذب العثماني الحقيقي. ويجب على المرء أن يتذكر دائمًا أن المجتمع العثماني كان على درجة من سرعة التحرك الاجتماعي، ولم يكن كبار رجال الدولة من أسر موسرة بالضرورة. وكانت أخلاقيات البلاط وقواعد السلوك الراقي من سمات رجال السلطة، لكن محمد علي بدا لمشاهديه متجاوزًا للمجاملات التقليدية، وقد كانت هذه طبيعته بالفعل. ومن ناحية أخرى كشفت مراسلاته عن جانب آخر، لاذع وساخر وصريح للغاية، إن لم يكن وقحًا كل الوقاحة. ولكن كانت هذه المراسلات موجهة عادة إلى مرءوسين ارتكبوا أخطاء، لأنه كان يثني عليهم حينما يقومون بواجباتهم، واستحق معظم رجال حكومته في وقت أو آخر لقب حمار (بالتركية: إشيك) التعبير المفضل لديه. وكان يتناوب مع تعبير آخر هو (خنزير ابن خنزير) إن كان موجهًا لمصري من الذين كان يعتبرهم في مرتبة أدنى من الأتراك، ولذا استحقوا لقبًا أكثر هوانًا.





وكثيرًا ما تلقى موظفوه تهديدات بالإلقاء في البحر أو النهر، أو الدفن أحياء، أو قطع الرءوس، أو الوضع فوق خازوق، أو الضرب بالسياط، أو نتف شعر اللحى شعرة شعرة. ولم تُنفذ أيٌ من هذه التهديدات إلا في حالات نادرة، لكنها جعلت رجاله متيقظين؛ لأنهم لم يعرفوا أبدًا ما إذا كانت الفأس ستسقط بالفعل، ومتى ستسقط. ولابد أن هذا كان أسلوبًا فعالاً؛ إذ إن رجاله كانوا في خوف دائم منه.

وعلى النقيض من قهقهة إبراهيم العالية، فكان لمحمد علي ضحكة مكتومة قصيرة وجافة. وكان يتحرك برفق وهدوء حتى إنه كثيرًا ما أفزع خدم القصر بظهوره فجأة وحين لا يكون متوقعًا بالمرة. وبهذا بنى سمعته على أنه عليم بكل شيء. وعلى الجانب الآخر كان إبراهيم يُسمع قادمًا من بعد مع وقع خطاه العسكرية الثقيلة. وقد وصفهما أحد الفرنسيين المولعين بإطلاق النوادر — في تصوير لما بينهما من تباين — بأنهما الثعلب والأسد. وإذا كان لدى الأب بعض من صفات الثعلب؛ المكر والبراعة في تجنب المواقف الخطرة، وسرعة الخاطر، فقد كانت له كذلك بعض من صفات الأسد. كان يمتلك الشجاعة والشهامة، وبدا أكبر من الواقع في أعين أعوانه وأعدائه. وكان حائزًا على قدر من المشاعر الإنسانية لم يتوفر لإبراهيم.

وحين كان في شبابه في قولة، أكسبته خدمته مع الجند غير النظاميين سمعة عسكرية طيبة، وعندما أمرت مدينة قولة من قبل السلطات العثمانية بإمدادها بثلاثمائة رجل لينضموا إلى الكتيبة الألبانية التي كانت تشكل جزءًا من الحملة العثمانية إلى مصر ضد الفرنسيين، عُيِّن محمد علي معاونًا للقائد علي أغا ابن المحافظ الحالي.

وتتناقل الأسرة أسطورة مؤداها أن محمد علي كان محجمًا عن مغادرة قولة إلى مصر، حتى التقى بأحد الشيوخ الصوفيين المحليين الذي شجعه على السفر، مدعيًا أنه يرى النصر مكتوبًا فوق جبينه. ومرة أخرى حجبت الأسطورة تلك الحقيقة المجردة، وهي أن الرجل كان محجمًا عن السفر على الأرجح؛ لأنه لم يكن يملك المال اللازم لتجهيز نفسه. رغم أنه كان تاجرًا، فإنه لم يكن غنيًّا، ولم يكن لديه نقد حاضر ليجهز نفسه لحملة عسكرية. وفي آخر الأمر عثر على تاجر أرمني يدعى أغيازار أميرا أقرضه مبلغًا من المال، رغم أنه كان يمثل مخاطرة غير مأمونة؛ حيث كان متجهًا إلى شواطئ بعيدة ليخوض حربًا غير معروفة نتائجها. وأبحر محمد علي مصحوبًا بشقيقه أحمد ليلتقي مع الصيت الذائع والثروة. أول إشارة لدينا عن شقيق له ترد في يوميات الجبرتي حينما يذكر أن أحمد بك شقيق محمد علي توجه إلى خان الخليلي وعندما أدرك محمد علي غايته، سدد دينه إلى أغيازار أميرا مقابل ثقته به، بأن جعله صرافًا في إسطنبول.

ولا يمكننا أن نخرج من الشواهد المتفرقة عن حياة محمد علي خارج مصر إلا بتفاصيل مختلطة. ربما وجد هذا النقص في المعلومات عن سنواته المبكرة؛ لأنه كان ببساطة لا يعرف القراءة والكتابة حتى أواسط عمره، ولم يكن معتادًا على تدوين الأحداث، ومن ناحية أخرى، ربما كان يرغب في أن يبقي ماضيه مغلفًا بالغموض، وامتنع متعمدًا عن أن يعطي للفضولي أية تفصيلات تزيد عن مجرد الحد الأدنى.

أما ما نعرفه عنه يقينًا، فهو أنه لم يكن ينسى الفضل الذي يقدم له، ويقوم برده حينما يكون قادرًا على ذلك، وفي أقرب فرصة تسنح. يمكننا أيضًا أن نجد الدلائل على حبه للأجانب وللأقليات، الذين كان يعتبرهم رجال أعمال جديرين بالثقة. كان يقدر رجال الأعمال اليونانيين والأرمن والفرنسيين والذين يمكن أن تكون قد جمعته بهم علاقات عمل إبان اشتغاله بتجارة الدخان. وعندما حكم مصر دعا عددًا من رجال الأعمال اليونانيين للاستقرار في مصر وأسبغ عليهم رعايته، بل إنه أغمض عينيه عنهم عندما علم أنهم يجمعون الأموال في مصر لتدعيم حرب الاستقلال ضد السلطان، مولاهما المشترك. وأحاط نفسه بالأمناء والمترجمين الأرمن، ثم فيما بعد، بالفنيين الفرنسيين والخبراء والتجار البريطانيين والأطباء الإيطاليين. وكان في هذا مختلفًا عن معظم العثمانيين الذين كانوا يفضلون التعامل مع بني وطنهم. وفي حين يمكن أن تكون هذه محاوله متعمدة لتقليد السلاطين الأوائل الذين جمعوا في بلاط أصحاب المواهب أيًا ما كانت أصولهم وأيًا ما كانت جنسياتهم، فإننا يجب أن ندرك كذلك أنه كان لديه مبرر جيد لكي يملأ بلاطه بالأجانب. فقد كان محمد علي رجلاً ذا فكر عملي انتفع بكل موهبة كانت متاحة، كما لم يكن يحمل مشاعر تحامل جنسية أو دينية. ولما كان رجلاً ذا رؤية صافية، فقد أدرك أن المعاونين الذين يحتاج إليهم لن يمكن العثور عليهم بين أبناء شعبه، ولذلك فقد شرع في تعليم شعبه، لكنه في الوقت نفسه، استخدم اليونانيين والأرمن الذين كانوا رفقاء في المواطنة في الإمبراطورية. وكان الفرنسيون يتاجرون في البحر المتوسط دائمًا، ولذا كان جهدهم ضروريًّا. وفيما بعد عام ١٨١٥م كان الخبراء العسكريون والفنيون الفرنسيون متاحين بصورة فورية. وربما كان ميله للموهبة الفرنسية نابعًا كذلك من الإعجاب الفائق الذي كان يكنه لنابليون.

نستطيع الآن أن نستنتج أنه على الرغم من أن محمد علي كان تاجرًا، فإنه لم يكن تاجرًا غنيًّا، وإلا فإنه كان سيستأجر شخصًا



آخر كي يذهب ويخوض الحرب في مصر بدلاً منه، أو سيكون لديه المال اللازم لتجهيز نفسه. أما كونه كان مشتغلاً بالتجارة، فذلك يقودنا إلى افتراض أنه كان على قدر من الدراية بممارسات التجارة والتبادل التجاري، فقد كان الدخان سلعة مهمة، وفي حين لم تكن قولة ميناءً رئيسيًّا، إلا أنها كانت واقعة على الطريق الرئيسي للتجارة، وفي قلب بلد الخان؛ حيث كان يجري قدر كبير من عمليات الشراء والبيع، وباختصار، فإن خلفية محمد علي تتضمن خبرة عسكرية وربما بحرية، وخبرة تجارية، على الرغم من أنها كانت ذات طبيعة محدودة، وربما لم تكن على قدر كبير من النجاح. وكانت معروفة بالأقليات العرقية من مختلف الأنواع.

انضمت المفرزة المشكلة في قولة إلى القوات العثمانية المبحرة إلى مصر؛ حيث رست في ٨ مارس ١٨٠١م. ويزعم تاريخ الأسرة أن البحر كان مضطربًا لدرجة أن القوات لم تتمكن من الرسو لمدة أسبوع. والبحر في خليج أبي قير مضطرب بصفة عامة، فإذا ما هبت رياح الملتم فإنه يصبح من المستحيل للقوات أن ترسو دون أن تتكبد خسائر جسيمة. ويروي تاريخ الأسرة أن أول ضحية كان علي أغا؛ قائد القوات القادمة من قولة، الذي أصابه دوار البحر بشدة، وقرر العودة إلى الوطن في أول سفينة تاركًا محمد علي ليرأس القوة. ومع أنه من الممكن أن يصدق المرء على الفور أن أحوال الطقس السيئ قد أخرت إنزال القوات، فإنه من الصعب التسليم بأن الرجل الذي قضى حياته في أحد الثغور والذي لابد بالتالي أن يكون قد قام بالكثير من عمليات الإبحار، كان عرضة لدوار البحر، وحتى لو سلمنا بأنه، مثله في ذلك مثل لورد نيلسون قد عانى حقيقة من مرض كهذا، فمن المستبعد جدًّا أنه وصل إلى أرض الوطن. أما ما يبدو أكثر احتمالاً فهو أن مواهب محمد علي سرعان ما ناورت لتصل به إلى مركز القمة في قيادة قوته. ثم أدى حضوره بهيئته المقبولة وقدرته التي لا تنكر في إحدى المناوشات ضد القوات الفرنسية، إلى أن يجتذب سريعًا انتباه القائد العثماني قبطان باشا الذي عينه عام ١٨٠١م في رتبة سر شسمة أو رئيس الألف، الذي يقابل رتبة المقدم في اللغة الشائعة. وفي أول ذكر للجبرتي لمحمد علي، أشار إليه على أنه قائد الجنود العثمانيين (أمير العساكر العثمانية)، بينما تحدث عنه نيقولا الترك بلقبه الصحيح؛ المقدم الألباني (البنباشي الأرناؤوط). وبسرعة كبيرة اكتسب محمد علي المزيد من الشهرة كقائد قدير وكفء، وترقى بسرعة في مختلف الرتب حتى أصبح الرجل الثاني في قيادة القوة الألبانية بكاملها، وليس في القوات القادمة من قولة فحسب.

وقد شكل جميع الألبانيين في القوات العثمانية في مصر داخل الجيش كتلة مميزة ومنفصلة عن باقي الرجال، وكانوا تحت قيادة ضابط يدعى طاهر، وقد اتخذ العثمانيون من الألبان جنودًا مرتزقة منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر على الأقل، وكانوا يستخدمونهم أحيانًا لتحقيق التوازن مع الإنكشارية غير الموثوق بهم ومع الوجاقات الأخرى. ونظرًا لكونهم غير نظاميين فقد جنحوا للاحتفاظ بتكوينهم القبلي، مثلما فعل بحق الجنود المغاربة غير النظاميين الذين خدموا في جيش المماليك ثم تحت قيادة محمد علي فيما بعد، ومثلما فعل البدو غير النظاميين. كان الألبان يتحدثون القليل من التركية وكانوا يمقتون الإنكشارية العثمانيين، الذين كانوا بدورهم يحتقرون الألبان باعتبارهم رعاعًا منحطين: وعاملوهم معاملة الخدم. وطبقًا للجبرتي فقد كان الألبان أشد فظاظة وأكثر صعوبة في القيادة من العثمانيين. وكتب عنهم في ازدراء: «وغالبهم لم يصم رمضان، ولم يعرف لهم دين يتدينون به، ولا مذهب، ولا طريقة يمشون عليها، وأسهل ما عليهم قتل النفس، وأخذ مال الغير وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم. وهم أخبث منهم. فقطع الله دابر الجميع». وختم حديثه عنهم بهذا الدعاء بالشر.

وبسبب الصبغة القبلية للقوات الألبانية، وبوصية كبار ضباطهم، لم يكن من الممكن لغير الألباني أن يقود هذه القوات، وكانت هذه بالإضافة إلى صفات محمد علي وشخصيته المهابة الموهوبة وراء الصعود السريع له في سلم الرتب. ولقد كانت الترقية في مثل هذه الفترة اليسيرة من الزمن أمرًا فريدًا حقًّا وتقدم الدليل على مواهب الرجل، رغم أنه ينبغي على المرء أن يسلم بدور الحظ كذلك.

إن حقيقة كون محمد علي ألبانيًّا، وعضوًا في جماعة من الأقليات اللغوية والعرقية، أمر له مغزاه، فلقد كان الألبانيون يتحدثون لغة تختلف عن التركية، إلا أنهم كانوا مسلمين، ولم يكونوا من بين العرب الفلاحين المحتقرين. وكانوا — مثلهم في ذلك مثل الشركس الذين كانوا يمثلون صفوة المقاتلين العثمانيين — رجالاً جبليين، شرسين، غير منظمين، عدوانيين، ومتصفين بالجسارة. ولم تكن لهم هوية ثقافية بخلاف الهوية العثمانية. وقد يساعدنا هذا العامل الأخير في فهم دوافع محمد علي إلى أن يصيغ نفسه على نمط الرجل المهذب العثماني، وأن يلتزم قواعد السلوك والأدب الرفيع التي يتصف بها ربيب القصور، وأن يتشبث بهويته العثمانية حتى عندما كان يحتقر العثمانيين أو يزعم أنه يحتقرهم. ومن الجلي أنه كانت تربطه رابطة حب وكره معًا بالعثمانيين، وكان يخشى من فقدان هويته، وهو ما يفسر جمعه بين هذه المشاعر المتناقضة تجاههم، وتردده في إحداث قطيعة جذرية مع نظام الحكومة العثماني وهو يفسر في النهاية محاولته لإحياء الثقافة العثمانية في مصر، والقيام بنشر الأعمال الأدبية التراثية للعصر





الذهبي، القرن السادس عشر في مطبعة بولاق؛ حتى يتسنى لأتباعه الاستمرار في اتباع تقاليد ثقافية مصقولة، وحتى لا يشعروا أنهم انقطعوا عن جذورهم العثمانية. وكان يمكن لمحمد علي أن يندمج مع المتحدثين بالعربية ساكني مصر، كما فعل ابنه إبراهيم، لكنه – كعضو في واحدة من جماعات الأقليات – قد كانت خطوة أكبر مما ينبغي بالنسبة له أن ينضم لجماعة أخرى وفضل أن يتشبث بهويته العثمانية. وفي وقت متأخر جدًا من حكمه قرر أن يقطع ما بينه وبين العثمانيين من الناحية السياسية، لكنه لم يكن متبقيًا له في ذلك الوقت إلا القليل من الخيارات.

في داخل دائرة عائلته، كان محمد علي أبًا محبًا عطوفًا. ربما كان يعامل أطفاله بالقليل من الدفء الظاهر، لكنه كان يوليهم قدرًا كبيرًا من الاهتمام خاصة في المسائل المتعلقة بالتعليم. وفي الوقت نفسه، وبسبب طبيعته المرتابة؛ كان يضع الجواسيس في مقار سكنهم؛ ليبعثوا له بتقارير عن كل حركة من حركاتهم. ويزعم بورنج أنه قد قال له ذات مرة: «لقد كنت أشك في القدرات الذهنية لأبنائي– حتى إبراهيم باشا – لكنني علمت الآن أنه يمكن الاعتماد عليه ويوثق فيه تمامًا». ولم تكن قدراتهم هي التي أساء بها الظن، ولكن كان ولاؤهم له نفسه، كما سوف نرى فيما بعد. ونتيجة لحكمه الثاقب على أية شخصية، فإن شكوكه لم تكن تترك مجالاً لإصابته بالوساوس، كما كان الشأن في حالة السلطان عبد الحميد مثلاً، لكنها جعلته حذرًا في علاقاته بالناس حتى مع أفراد عائلته. وقد قال لبورنج: «كثيرًا ما أخدع وأعرف أني أخدع في الوقت الذي يُخدع فيه كثيرون لكنهم لا يعرفون، ثم أضاف بأسلوب ساذج أحيانًا يخدعني الآخرون وأنا أحيانًا أخدع نفسي، لكن الخداع لا يدوم طويلاً».

كان محمد علي ثعلبًا، ماكرًا وحاذقًا وحذرًا، لكنه كان أيضًا رجلاً جذابًا ذا تربية عالية وأخلاق آسرة، كما وصفه القنصل البريطاني اللورد بالمرستون. ونظرًا لأفكاره العملية، فقد كان يمكن الركون إليه في الخروج بأفضل النتائج من المواقف السيئة. وكتب عنه قنصل بريطاني آخر هو سولت، قائلاً: «إن أعظم قدرات الباشا على حسم الأمور ترتكز على مواهبه الفائقة؛ مبتكرًا في أساليبه وماهرًا بصورة متفردة في فن قيادة الرجال، فقد كان دائمًا وحتى الآن، يرى وهو يرتفع أكثر عظمة أمام العقبات التي عليه أن يواجهها».

ويمكن أن توصف الميزة الأخيرة بأنها الصلابة والتماسك خلال أكثر الأوقات صعوبة حتى يتحول المد أو أن يحول هو الشدة لصالحه. لقد آمن بأنه مقدور له أن يكون عظيمًا، وليس لأن أحد العرافين قد تنبأ له بذلك. كما زعم أحد كُتّاب سيرته، ولكن لأنه كان مؤمنًا بمواهبه الخاصة وواثقًا من مقدرته على النجاح وهو إيمان بررته الأحداث تمامًا. فكما قال عنه القنصل موراي: «وهو مجرد من أية مزايا ناشئة عن الميلاد أو عن الثروة؛ قام بحفر طريقه إلى السلطة والشهرة بشجاعته التي لا تقهر، ومثابرته وفطنته، ويمكن للمرء أن يضيف إلى ذلك الذكاء الذاتي، وبعد النظر والرؤيا الصادقة، كانت رؤياه لمستقبل مصر رؤية رائدة بصورة رائعة بالنسبة لزمانه، وهي العلامة الفارقة التي ميزته عمن جاء قبله ومن جاء بعده، ووضعته في مكان متفرد كواحد من أعظم الحكام الذين عرفتهم هذه البلاد».

لا يحكم رجل واحد بلدًا بمفرده، لكن رؤيا رجل واحد، عندما يحكم بلدًا، يمكن أن تعطي هذا البلد الشكل والاتجاه، كما يمكنها أن تنسق الأفكار والتيارات المختلفة التي يتزود بها من حاشيته ومن ظروف البلاد. أما كيف اختار هو هذه الحاشية وكيف اختارته هي؛ فذلك هو الذي حدد الطريقة التي ستدار بها البلاد والاتجاهات التي ستتبعها اقتصاديًا وسياسيًا. لكن خلال هذا كله، يجب على المرء أن يتذكر دائمًا أن مصر كانت عنصرًا واحدًا في بحر من التيارات السياسية والاقتصادية المتضاربة، وأن مصر في نهاية الأمر لم تكن فاعلاً حر الإرادة، لتشكل مصيرها كيفما شاءت. ولا توجد مثل هذه الدولة، فتاريخ كل دولة يتحدد بواسطة القوى المحركة الداخلية لهذه الدولة، وكذلك بواسطة التأثيرات الخارجية التي تشكلها وتحطمها تبعًا للمتطلبات والقوى الدولية. وبدون فهم هاتين القوتين، القوى الجاذبة والقوى الطاردة؛ فإنه يكون من الصعب أن نفهم ما تتكشف عنه الأحداث.

كان محمد علي رجلاً عسكريًا؛ فكان من الطبيعي بالنسبة له أن يدمر أعداءه بوسائل عسكرية. مثلما فعل بالمماليك، لكنه أيضًا ذلك السياسي الفطن الماهر، الذي كان يحاول أولاً أن يشتري أعداءه أو يبطل مفعولهم ولا يستخدم القوة إلا كملجأ أخير. وكان بصفة عامة غير مرتاح لاستخدام القوة، لأنه كان يؤمن بأنها تترك بعدها مذاقًا كريهًا، وأن الاستمالة كانت دائمًا البديل الأفضل. حتى المماليك الذين كانوا ألد أعدائه اختاروا أن يدخلوا في خدمته طواعية في آخر الأمر. هذا المدخل المرن نحو حل المشكلات سار شوطًا طويلاً في سبيل جعل نظام حكمه محبوبًا بين أوساط الصفوة ومقبولاً من الجماهير. أما الذي لم ينجح هذا المدخل في تحقيقه، على أي حال فهو أن يجعل من نفسه مستساغًا لبعض القوى العظمى.

لقد كان حكم الصفوة في مصر على مدى الأحقاب الماضية، يلطفه التعاون بينهم وبين طبقات معينة في المجتمع مثل التجار، أو في حالة الإنكشارية، بينهم وبين الصناع الحرفيين. ولا يمكن لأي حكم أن يستمر إذا لم يضع في اعتباره التيارات الداخلية في البلاد. ولقد تعلم محمد علي هذا الدرس جيدًا كما سوف



نرى خلال الأيام الأولى من صراعه من أجل البقاء. وحرص على أن يظل على علم بالحالة المزاجية للجماهير طيلة حكمه، فكانت الشائعات عن عدم الرضا تصل إليه وكان في إمكانه أن يخفف منه، أو أن يقمعه بقسوة.

ويمكن أن توصف حكومة مصر في تلك الأيام بأنها محصلة صراع بين قوتين غير متكافئتين؛ فبينما كان الحاكم يصدر أوامره إلى أسفل للأهالي، أو على الأقل كان الحاكم ومعاونوه في الإدارة المكتبية يفرضونها معًا من أعلى، كان الأهالي يدفعون من أسفل. وقد أعطى التفاعل بين هاتين القوتين للبلاد شكلها التاريخي الذي اتخذته. فكانت الصورة التي قدمها المؤرخون للحكومة المصرية تعكس نظام حكم فردي استبدادي مطلق ذا سلطة موحدة في المركز تفرض أوامرها على الأهالي المقهورين العاجزين. وبين الحين والحين، يتم إبلاغنا أن تلك الحكومة المستبدة لجأت إلى التعامل مع الثورات وحركات التمرد التي ثارت نتيجة لأعمالها الوحشية ضد الأهالي. ونادرًا ما أتيحت لنا أية نظرة نافذة، إن كان ذلك قد حدث على الإطلاق، إلى داخل العلاقة بين الأهالي والصفوة الحاكمة، تلك العلاقة التي أدت بهم في بعض الأحيان إلى أن يهبوا في مقاومة عنيفة، كما أدت بهم في أحيان أخرى إلى قبول هذا الحكم على اعتبار أنه يقدم بديلاً لأنظمة الحكم القديمة. ومن المسلمات أن الشعوب تتفاعل مع حكوماتها وأن ردود أفعالها القوية أو الضعيفة حسبما تكون الحالة، تكون مؤثرة وتحمل معها ردود أفعال مضادة من جانب الصفوة. ويتبع ذلك أن تحدث تغييرات سلمية أو ردود أفعال عنيفة، لكن الصفوة كانت تستجيب بالفعل لضغوط الجماهير. والصفوة التي تكون أكثر إدراكًا لهذا الضغط تفرز حكومة مقبولة؛ بحيث تكون درجة استجابتها مقياسًا للحكم الناجح لحكومة ما. وقد رأينا أن العقود الأخيرة من حكم المماليك قد أثارت ردود أفعال تسببت في اضطرابات عنيفة في المجتمع، وأدت في النهاية إلى نبذ الحكم المملوكي لمصر.

ويجب أن ينظر بوضوح إلى الأداء السيئ للمجتمع المملوكي على أنه ذو شقين؛ فقد كان ناتجًا عن إساءة استخدام المماليك للسلطة من جهة، كما كان نتيجة للضغوط الدولية الواقعة على الاقتصاد المصري عامة من جهة أخرى. وسوف تظل نفس الضغوط نافذة المفعول على محمد علي. أما كيف سيكون التعامل معها فهذا هو تاريخ العقود التالية. فدورة القوة الرائعة التي دفعت بلدًا من حالة قريبة من الانهيار الاقتصادي إلى بلد غني ومزدهر يرجع الفضل فيها إلى عبقرية محمد علي وبصيرته النافذة. ويجب كذلك أن نذكر أنفسنا أنه لم يكن من الممكن تحقيق ذلك إلا بالتعاون مع الشعب المصري ووقفته الشجاعة في مواجهة المحن، إضافة إلى قدرته على البرء من جراحه القديمة؛ إذ إن مصر قد صنعت محمد علي تمامًا، كما ساعد هو مصر على أن تسترد عافيتها من حالتها الميئوس منها في القرن الثامن عشر.

هذا المقال نشر ضمن كتاب مصر في عهد محمد علي، الصادر عن المركز القومي للترجمة ٢٠٠٤م.



شاهد قبر محمد علي بمسجد محمد علي بالقلعة



محمد علي باشا في أواخر أيامه





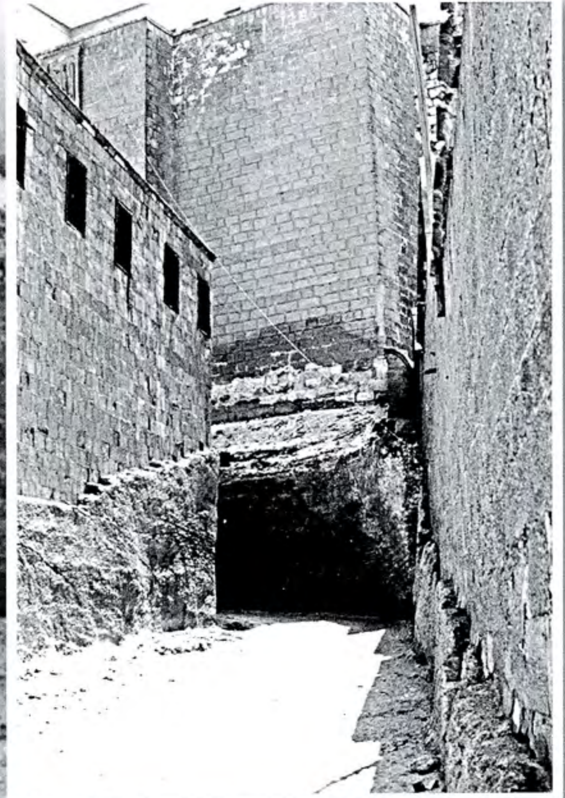
محمد علي وقلعة الجبل

الدكتور خالد عزب

تسلم محمد علي حكم مصر، ومقر حكمها في حالة يرثى لها، نتيجة لأسباب عدة، يأتي على رأسها التدمير الذي أحدثه الفرنسيون بها، والذي ذكره الجبرتي، وشمل نصب المدافع في عدة مواضع بالقلعة، لتدمير العديد من منشآتها، وشمل هذا التدمير العديد من المنشآت السلطانية كالقصر الأبلق وأبواب القلعة، كما هدموا سور الميدان وأبوابه، بل واستغلوا جامع سارية الجبل كسكن ومخزن. وكان نابليون بونابرت قد أمر في ٢٣ أغسطس ١٧٩٨م بأن ينشئ في القلعة فرنين للخبز ومخزنًا للطعام ومستشفى لاستعمالها في حالة الحصار. وهو بذلك يعد القلعة آخر مكان يمكن الاحتماء به. لذا كان الفرنسيون حريصين على ترميم بعض أجزائها وإزالة ما يرونه عائقًا في سبيل ذلك. وأخلى الفرنسيون القلعة وبقية حصون القاهرة عقب اتفاقهم مع العثمانيين والإنجليز على الانسحاب من مصر، وانتقلوا إلى قلعة الروضة ثم تركوا مصر نهائيًا. ودخل العثمانيون القاهرة في ١٤ يوليو ١٨٠١م.



أدى تتابع الأحداث إلى تولية محمد علي حكم مصر عام ١٨٠٥م، وكان عليه أن يصفي القوى المعارضة له، أو أن يكسبها إلى جانبه، فكسب بعض مشايخ الأزهر ونفى عمر مكرم الذي كان السبب في توليته حكم مصر، وصفى المماليك أشد معارضيه وأكبر خطر يهدده، وكان ذروة هذه التصفية في مذبحة المماليك - مذبحة القلعة - التي أدت إلى استقرار الأوضاع لمحمد علي. بدأت هذه المذبحة بدعوة الأمراء المماليك وجنودهم للمشاركة في موكب طوسون باشا بن محمد علي المتوجه إلى الجزيرة العربية، فطلع الأمراء إلى ديوان الباشا ومع نزول الموكب من الممر الصخري إلى باب العزب، رتب محمد علي مع أتباعه إغلاق باب العزب عند اقتراب المماليك منه وتصفيتهم، ومن نجا تم إعدامه في حوش الديوان، وتم تصفية من تبقى منهم بالمدينة. وبذلك يعد هذا الممر الصخري شاهدًا سياسيًّا على نهاية عصر وبداية عصر، ذلك أن العصر العثماني لم يشهد تغيرًا كبيرًا في طبيعة سيطرة المماليك على مصر، إلا في خضوعهم للسيطرة العثمانية القوية في بداية العصر، الضعيفة في نهايته. وكانت تلك المذبحة عاملاً مساعدًا بدرجة كبيرة على تحديث الجيش المصري، وبداية إدماج الأهالي (المصريين) في مؤسسات السلطة، والقضاء على النظم التقليدية لصالح بناء الدولة الحديثة. ساعد هذا الإجراء على سرعة تحديث مصر، وهو ما ترك أثره على القلعة؛ حيث انتهى دور فرق الجيش العثماني بها، فلم نعد نرى وجودًا للإنكشارية ولا للعزب. بل أصبحت سلطة الباشا محمد علي هي السلطة العليا والوحيدة في القلعة. بينما تأخر الأمر في تركيا إلى حين نجاح السلطان محمود في القضاء على الجند الإنكشارية فيما عرف بالواقعة الخيرية في عام ١٨٢٦م. حيث دمرت ثكنات الإنكشارية بالمدفعية، واقتحمت في مذبحة تشبه مذبحة المماليك، قتل فيها ٤٠٠٠ جندي وشرد ما يزيد على ٢٠٠٠٠، وتحالف الشعب والعلماء مع السلطان في هذه المذبحة. وتم حل فرق الإنكشارية، وشُكِّل جيش على النمط الحديث عرف باسم (العساكر المحمدية المنصورة)، وهو ما أدى إلى إقامة وتنشيط مؤسسات حديثة بالدولة.



الممر الصخري - هنا وقعت أحداث مذبحة المماليك في الأول من مارس عام ١٨١١م



دفترخانة محمد علي

واجه محمد علي منذ توليه حكم مصر العديد من الصعوبات والعوائق، على رأسها عدم رغبة الدولة العثمانية في توليه أمر مصر. فسعت في عام ١٨٠٦م إلى عزله، وتوليته سالونيك عوضًا عن مصر، وهو ما قابله محمد علي بالرفض ودفعه إلى الاهتمام بالقلعة، وزيادة تحصينها، وساعده على ذلك استقرار جنده في مصر وزواجهم فيها. وهو ما أدى في نهاية الأمر إلى تراجع الدولة العثمانية عن عزله.

في عام ١٨٠٧م واجه محمد علي الخطر الإنجليزي، والذي تمثل في هجومهم على الإسكندرية، ساند القنصل الفرنسي محمد علي، وساعده في زيادة قوة تحصينات القلعة، وانتهت الأحداث بهزيمة الإنجليز في رشيد وانسحابهم.

أثبت محمد علي تجديداته بالقلعة في ثلاثة نصوص تذكارية بالقلعة. النص الأول: نقش على لوحة رخامية تعلو باب الشرك الذي قام محمد علي بسده، وهو مكتوب باللغة التركية، وترجمة هذا النص كما يلي:

خديوي الخطة المعمورة أم الدنيا الذي
أشعة نجمه تنير أقطار العالم كالشمس
فلن يصيب صفوف الإسلام غم، لأن
لسان خنجره يرد الجواب لأعداء الدين
فأي أثر كهذا من آثار نقوم بتبيانه
إن بقاع خيره في الدنيا لا حصر لها
لقد أنشئ باب مزين مثل الطاق المعلى
حيث دار في عهده لم ير مثل سواد رسمه
لا شك أبدًا في دوام دولته وإقباله
لأن اسمه اشتهر باسم محمد علي
يا له من وزير سابق الهمة شجاع محمود
والله سبب الأسباب معين له في كل أموره
أمـر، وبإشـارة منـه تجـددت
قلعة يوسف بعد أن كانت خرابًا
فقل يا كاشف تاريخًا بضم رأس إشارة
بنى باب القلعة هذا فكان خير مآب
١٢٤٠ هـ

النص التأسيسي لتجديد القلعة في عهد محمد علي، مثبت أعلى باب الشرك



والنص الثاني: وضع على الحائط المواجه لدفترخانة محمد علي، وقد كتب باللغة التركية أيضًا، وترجمته:

والي مصر محمد علي باشا الكريم
خديو أعظم لم يأت في الدنيا مثله
ومن جملة أعماله أن كانت قلعة مصر خرابًا
كالعظم الرميم فجعلها كبستان إرم
فليحقق الله آماله بالليل والنهار
وليشرح الله صـــدره في كـــل آن
وضع عزيز تاريخًا في شطره بعون الله
جدد بناء قلعة مصر من أساسها وجعلها قوية
١٢٤٢ هـ

والنص الثالث: يتضمن إشارة إلى تجديدات محمد علي بالقلعة يوجد على الباب الفرعي المؤدي إلى الفناء الأمامي للجناح الغربي لقصر الحرم، وهو عبارة عن نص تذكاري كتب باللغة التركية، وترجمته:

والي مصر محمد علي باشا الكريم
ذو الكلمة العالية وهو الخديو الأعظم
قد أراد له الحق سلوك هذا الطريق
ليشيد على خاطره (على عاتقه)
ما تهدم من قبله في هذا الركن
وعلى الجملة (كذلك) فقد كانت قلعة مصر
كالعظام الرميم فشيدها ببناء محكم
وخرج بعون الله تاريخ هذا الباب العزيز
الذي شيد بقلعة مصر على أساس جديد محكم
١٢٤٢ هـ

تدل الألقاب الواردة في النصوص السابقة على طبيعة حكم محمد علي لمصر؛ ففي لقب والي مصر في النصين الثاني والثالث تعبير عن تبعية مصر للدولة العثمانية، وعلى استمداد محمد علي جانبًا من شرعية حكمه من فرمان عثماني بتوليته حكم مصر. في حين دل لقب خديوي على رغبة محمد علي في الاستقلال عن الدولة العثمانية. فهذا اللقب كان يعطى سابقًا في فارس وتركيا لبعض حكام الأقاليم المستقلة. وكان محمد علي يستمد جانبًا من قوته من كونه ولي أمر مصر بناءً على رغبة المصريين، وعلى حربه للوهابيين في شبه الجزيرة العربية نيابة عن الدولة العثمانية وعلى مشاركته في حرب المورة. ومن هذا المنطلق منح محمد علي هذا اللقب لنفسه دون انتظار أن يمنحه إياه السلطان العثماني. وأقدم نص وصلنا الى الآن يحمل هذا اللقب نص تأسيس مدفن شريف بك الذي يعود إلى العام ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م. وبنص سبيل محمد علي بالعقادين ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، ثم توالت النصوص بعد ذلك. وهذا يدل على شيوع هذا اللقب في المكاتبات الرسمية بمصر.

حصل الخديوي إسماعيل على هذا اللقب بناءً على فرمان من السلطان العثماني في ٥ ربيع الأول ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م. وقد تأكد هذا اللقب بفرمان آخر صدر من السلطان في ١٣ ربيع الآخر ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. ويعني كل ما سبق أن السلطان بمنحه هذا اللقب للخديوي إسماعيل إنما كان يعترف بأمر كان قائمًا بالفعل.

تدل أعمال محمد علي على استيعابه لتقنيات العصر ومستجداته، ولنا في ذلك الأمر ثلاثة إجراءات اتخذها؛ الإجراء الأول: هو إنشاؤه قلعة المقطم أعلى قلعة الجبل، والإجراء الثاني: إقامة أبواب جديدة للقلعة تسمح بمرور العربات، وهي وسيلة الانتقال التي بدأت تشيع بمصر منذ أن دخلها الفرنسيون. والإجراء الثالث: هو تشييده دارًا للصناعات الحربية في القلعة في المكان الذي شغله جند العزب بالقلعة في العصر العثماني.

قلعة محمد علي بالمقطم

أنشئت هذه القلعة لحماية قلعة الجبل؛ حيث أدت التطورات التي طرأت على الأسلحة خاصة المدافع إلى سهولة قصف القلعة وتدميرها من جبل المقطم المواجه، حدث ذلك في العصر العثماني حينما احتلت طائفة العزب جبل الجيوشي (المقطم) في إثر نزاع دار بينها وبين الوالي العثماني وطائفة الإنكشارية عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، وأطلقوا من جبل المقطم المدافع على ديوان الباشا وعلى باب الإنكشارية. وحدثت تطورات إضافية منذ ذلك الحين في المدفعية وقوة قذائفها ومداها. كان محمد علي نفسه قد استخدم هذا الموقع في محاصرة قلعة الجبل سنة ١٢٢٠ه/ ١٨٠٥م؛ حيث تم تصعيد مدافع إلى جبل المقطم لإحكام الحصار على الوالي المعزول أحمد باشا خورشيد.

بدأ محمد علي هذا العمل في عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م؛ حيث أمر بإنشاء زلاقة، أي طريق صاعد ممتد من باب القلعة المعروف بباب الجبل إلى أعلى جبل المقطم وهو طريق واسع منحدر من أعلى إلى أسفل سهل في الصعود والنزول. كان الهدف من إنشاء هذه الزلاقة تسهيل الصعود إلى المقطم من قلعة الجبل، وقد وصف الرجبي بناء هذه الزلاقة في كتابه قائلاً: «فأمر محمد علي بإحضار العملة والصناع وجمعهم في هذه المحال والبقاع، فحضروا حسب أمره، وشرع فيما يثنى عليه به طول دهره، فأمرهم بنحت الأحجار وإتقان الصخور المهندمة الكبار، وبإحضار كل ما يحتاجونه من جص وغيره، وكل عامل منهم في شأنه وسيره فابتدأوا من حذا باب الجبل تجاهه وأحكموا عملهم متانة... وبالغوا في قوة البنا المحكم حتى التصق بالجبل واستقام واستحكم.



ومن رفقه بالمارة هناك جعل فيه قناطر للاستدراك يمر السائر في ذلك الطريق الراكب على الجواد إذا خرج من باب القلعة مارًّا في الطراد لايزال يكر في طلق واحد حتى يصير في أعلى الجبل والعيون له تشاهد؛ بحيث يصير الواحد والجمع العديد بلا تعب في ذلك المسلك السديد، فحبذا هذا الاختراع والتجديد... وقد كان قبل ذلك يصير الصاعد في تعب شديد وقلق بحال جهد جهيد». هذه الزلاقة كان الهدف منها ربط قلعة الجبل بالقلعة الجديدة بطريق مباشر. يصل طول هذه الزلاقة ألف ذراع أي ما يقرب من ٦٤٠ مترًا. لم يتبقَّ من هذه الزلاقة سوى جزء طوله ١٥٦مترًا، وهو شديد الانحدار؛ حيث تصل درجة انحداره من ١ إلى ٧ درجات. وعرض هذا الجزء متغير؛ إذ يتراوح بين ٤ و٥ أمتار. تبدأ الزلاقة من أسفل بدعامتين حجريتين مربعتين يعلو كلاً منهما شكل هرمي وتتقدم كل دعامة جلستان حجريتان تأخذان شكلاً نصف دائري، هاتان الجلستان خصصتا لجلوس جنود الحراسة. والزلاقة تصميمها غير مستقيم؛ إذ إنها متعرجة خاصة من أعلى إلى أسفل. وهو ما يزيد من قوتها من الناحية الإنشائية، علمًا بأن جبل المقطم دائم الحركة؛ وذلك لأسباب جيولوجية وبيئية، وهذا ما جعل المهندس حريصًا على متانة وقوة الزلاقة. فدعم واجهتيها الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية بعدة دعامات حجرية تختلف في أشكالها وأحجامها. ويصل ارتفاع الزلاقة عند جبل المقطم إلى ٤١ مترًا. وبذلك ضمن محمد علي سرعة الاتصال بين قلعة الجبل والمقطم؛ حيث القلعة الجديدة.

شيد محمد علي قلعته بعد الانتهاء من تشييد الطريق الصاعد إليها، وجاء هذا التخطيط وفق معطيات العصر؛ إذ روعي فيه استخدام المدافع والبنادق للدفاع عن القلعة من كافة الزوايا. عُرِف هذا التخطيط بالمبستن أو البسستيون Bastion؛ وهو اصطلاح أوروبي يشير إلى حصن له زوايا في أركانه الأربعة. هذه الزوايا منفرجة وغير منتظمة الأضلاع؛ بهدف التحكم في مرمى النيران من كل الجهات. وتتيح زوايا الأبراج فرصة قوية للدفاع عن القلعة؛ حيث يوجد بها أجزاء داخلة وخارجة، وكانت المدافع توضع فوق الأجزاء الخارجة أعلى البرج، وبذلك تتوجه فتحات المدافع من الدروة التي تعلو البرج، وليس من خلال فتحات مزاغل. وهو ما يتيح لها تتبع حركة العدو إذا ما هاجم القلعة.

كان يحيط بالقلعة خندق كبير يشكل خط دفاع عنها معظمه مردوم حاليًّا. ويتراوح عرض الخندق حاليًّا ما بين ٥ إلى ٦ أمتار وعمقه حاليًّا متران. يتكون تخطيط قلعة محمد علي من مساحة شبه مربعة حدودها الخارجية ٧٠م، أما مساحتها الاجمالية فهي ٢٩٠٠ متر مربع، ويخرج من أركانها أربعة أبراج رئيسية غير منتظمة الشكل، يتكون تخطيط البرجين الموجودين في الواجهة الشمالية الغربية من شكل مخمس غير منتظم الأضلاع، أما البرجان الموجودان في الواجهة الجنوبية الشرقية فتخطيطهما غير منتظم الأضلاع.

تعد الواجهة الشمالية الغربية هي الواجهة الرئيسية للقلعة؛ حيث تواجه قلعة الجبل وتلتقي مع الزلاقة الصاعدة من قلعة الجبل للمقطم، وطول هذه الواجهة ٧٣مترًا. وفي ركنيها برجان يميلان عن الواجهة بميل قدره ١:٧ درجة. ويتوسط هذه الواجهة كتلة المدخل الرئيسي، وهو مسدود حاليًّا. وللمدخل باب بقنطرة عبارة عن باب متحرك يصعد ويهبط بسلاسل ملفوفة على بكر. وكان يعلو كتلة المدخل نص تأسيسي مازال مكانه باقيًا إلى اليوم. ويحيط بالمدخل من أعلى كرنيشان على هيئة منحنى عرف باسم French curve. يعلو المدخل غرفة المراقبة الرئيسية، وهي محمولة على ستة كوابيل حجرية، ويوجد بها ثلاث فتحات مستطيلة تستخدم كفتحات للمراقبة، وفي نفس الوقت كفتحات مزاغل لإطلاق نيران البنادق عند الهجوم على القلعة، وسقف غرفة المراقبة جمالوني الشكل زُخرِف بستارة مثلثة على الطراز الرومي.

تنقسم الواجهة الشمالية الغربية إلى مستويين؛ المستوى الأول به ٢٦ فتحة مزغل من المزاغل التي كانت تفتح لإطلاق السهام غير أنها هنا تستخدم لإطلاق رصاص البنادق. كما توجد بهذه الواجهة فتحتان مستطيلتان معدتان لتستخدما للمدافع. أما المستوى العلوي فبه ٢٦ فتحة مزغل إلى جانب أربع فتحات كبيرة مستطيلة الشكل.

أما الواجهة الجنوبية الشرقية فيوجد بها ميل قدره ١:٥ ويوجد بها في المستوى العلوي ٢٢ فتحة مزغل. يتوسط هذه الواجهة برج مراقبة دائري الشكل ارتفاعه ٢٠ مترًا، يتكون من ثلاثة طوابق. بكلٍّ من الطابق الأول والثاني فتحتان مستطيلتان معقودتان بعقد نصف دائري يعلوهما عتب حجري، وهي فتحات تضيق من الداخل (٥٠ سم) وتتسع للخارج (١٤٠ سم) وكانت تستخدم للمدافع. وأما سطح البرج فيرتد إلى الداخل قليلاً وقد فُتحت بدروته فتحتا مدفع كبيرتان لهما ميلان يتوسطهما فتحة مزغل، ويؤطر البرج من أعلى كرنيشان من الحجر.

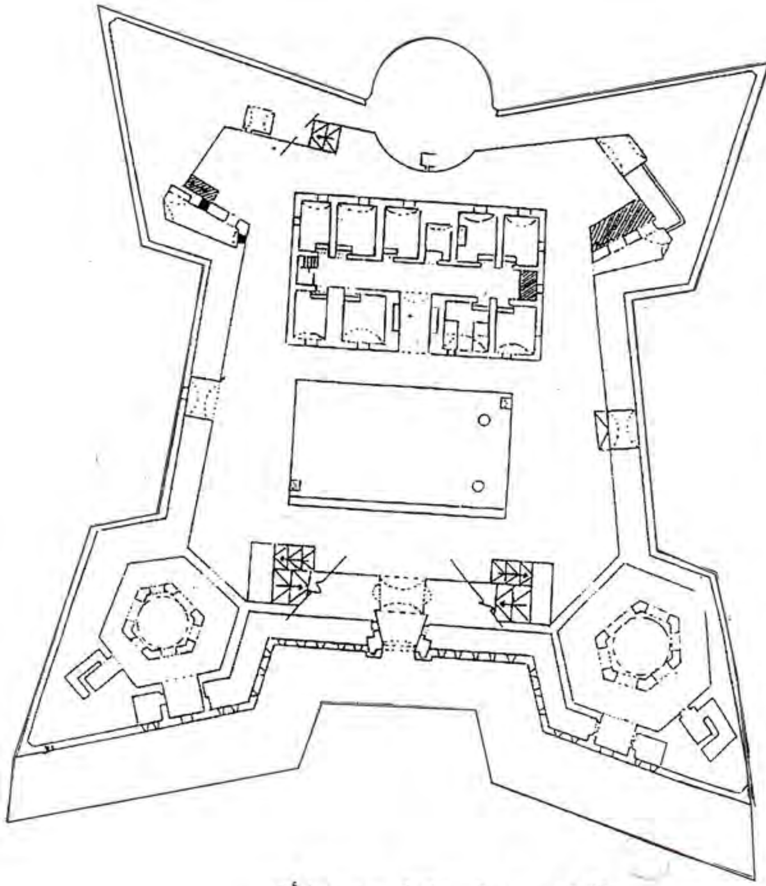
وتتماثل كلٌّ من الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية؛ حيث يبلغ طول كلٍّ منهما ٧٠مترًا تقريبًا، وميولهما على خط الواجهة ١:٥، وفُتح بالمستوى العلوي لكلتا الواجهتين ٣٢ فتحة مزغل إلى جانب أربع فتحات مدافع كبيرة ذات ميلين. وقد فتح في منتصف الواجهة الشمالية الشرقية فتحة باب مستطيلة مستحدثة تستخدم حاليًّا كمدخل للقلعة؛ حيث إن المدخل الرئيسي مسدود.

والقلعة مكونة من طابقين يشتمل الطابق الأرضي على غرف للمراقبة والحراسة وحجرات كانت تستخدم كمخازن للعتاد الحربي إلى جانب ممرات وسراديب داخلية بكلٍّ من الضلع

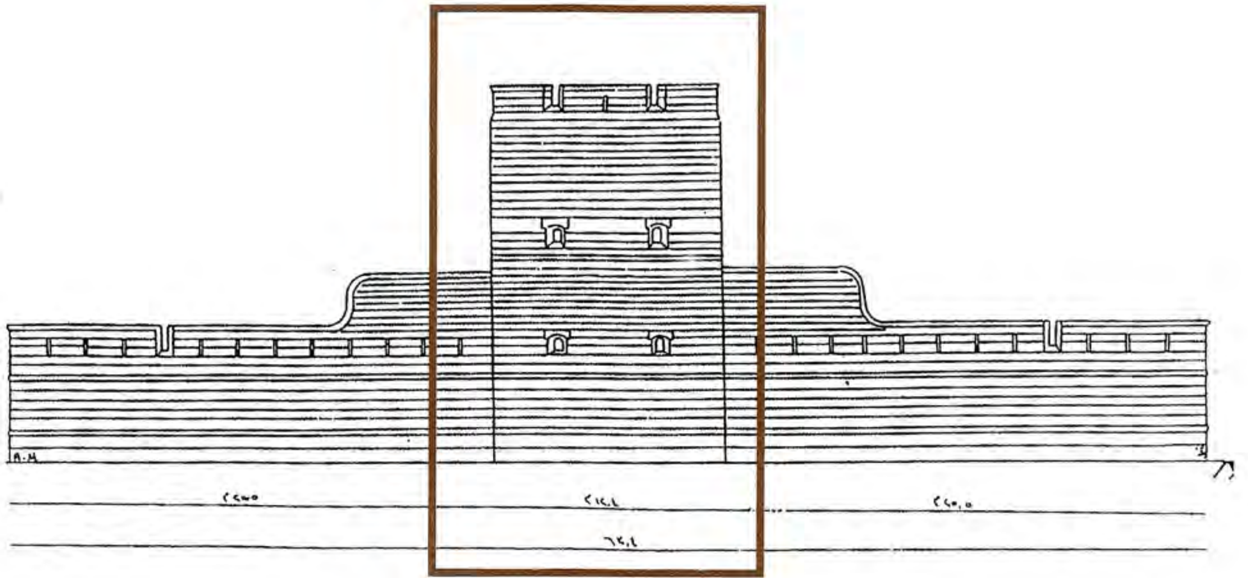


الشمالي الغربي والضلع الجنوبي الغربي للقلعة. أما الطابق الأول فيعتبر سطح القلعة أو دروة القلعة حسب المصطلح العسكري وقت إنشائها، ويصعد إليه عن طريق زلاقات من فناء القلعة. وقد استخدمت هذه الزلاقات لسهولة الصعود والهبوط عليها، خاصة في حالة إصعاد المدافع أو إنزالها من سطح القلعة. أما فناء القلعة فيتوسطه مبنى مكون من طابقين كان يستخدم لمبيت الجنود. كما يوجد به صهريج مياه كبير لخزن المياه العذبة، وهو محفور في تخوم صخر المقطم . ذكر الرجبي هذا الصهريج في كتابه بقوله: «وأن يتخذ به سبيل جليل لخزن الماء العذب ليكون ثم كالسبيل»، وهذا الصهريج ردمت أجزاء منه حاليًا.

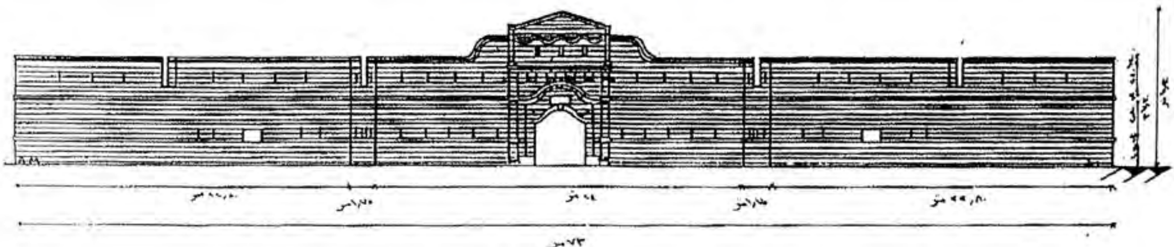
يرى البعض أن من أسباب تشييد هذه القلعة، أن يجد محمد علي منفذًا إلى خارج القلعة عند حدوث أية مؤامرة ضده سواء بحصار القلعة أو بقيام ثورة عارمة بالقاهرة. غير أن السبب الرئيسي في بنائها هو حماية قلعة الجبل من أي هجوم محتمل بالمدافع من جبل المقطم، وكذلك مراقبة العاصمة المصرية من هذا المكان المرتفع وإحكام سيطرة الباشا على جبل المقطم.



قلعة محمد علي بالمقطم – مسقط أفقي



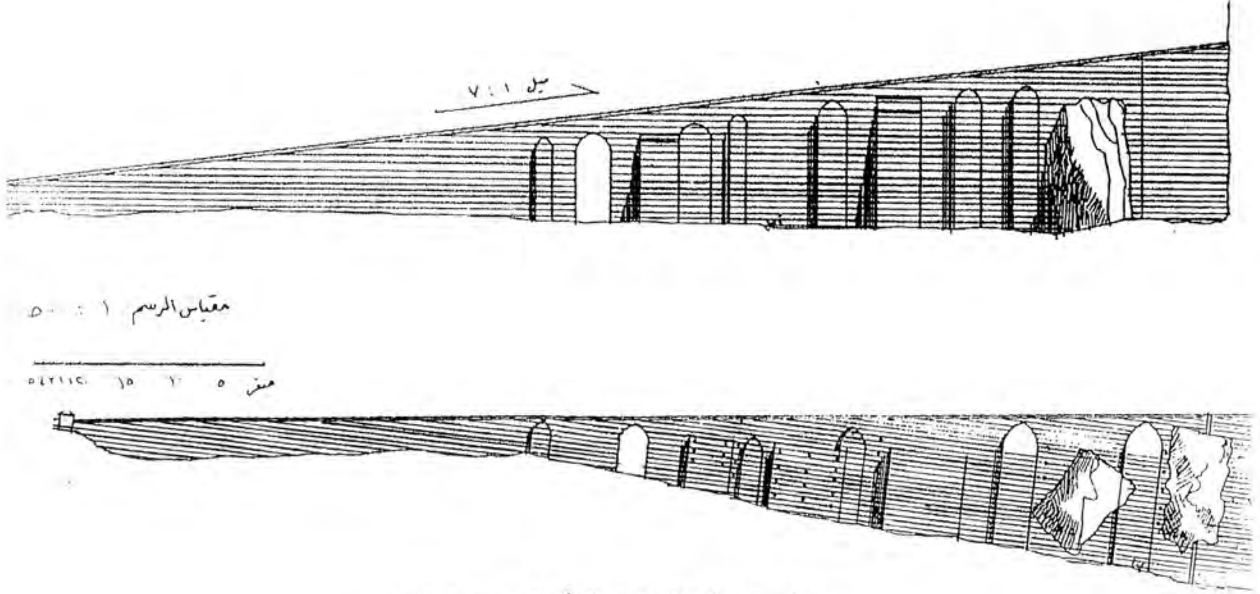
قلعة محمد علي بالمقطم- الواجهة الجنوبية الشرقية



قلعة محمد علي بالمقطم – الواجهة الشمالية الغربية

الطريق الجديد للقلعة

يعد إنشاء طريق جديد صاعد إلى القلعة الإجراء الثاني الذي اتخذه محمد علي، وهو إجراء يعكس استخدام محمد علي العربة كوسيلة انتقال رئيسية وكذلك ظهور المدافع ذات العجل. هذا التطور ترك أثره على أبواب القلعة، وهذا يتضح في عمارة كلٍّ من الباب الجديد والباب الوسطاني اللذين شيدهما مع الطريق الصاعد الجديد للقلعة. شيد هذان البابان في الفترة من ١٨٢٤م إلى ١٨٢٦م، بعد أن تم ردم أجزاء من الباب المدرج وهو الباب القديم للقلعة، وجزء من الممر المنحوت في الصخر، وكذلك ردم البوابة الواقعة أسفل الباب الوسطاني والتي كانت تعرف بباب السر الكبير. ومن الملاحظ في هذين البابين اختفاء عناصر الدفاع التقليدية التي كانت تستخدم في أبواب القلاع كالزلاقات؛ مثل التي كانت توجد في باب العزب في القلعة أو باب زويلة في أسوار القاهرة الفاطمية أو المداخل المنكسرة على نحو ما كان موجودًا في مدخل الباب المدرج بالقلعة.



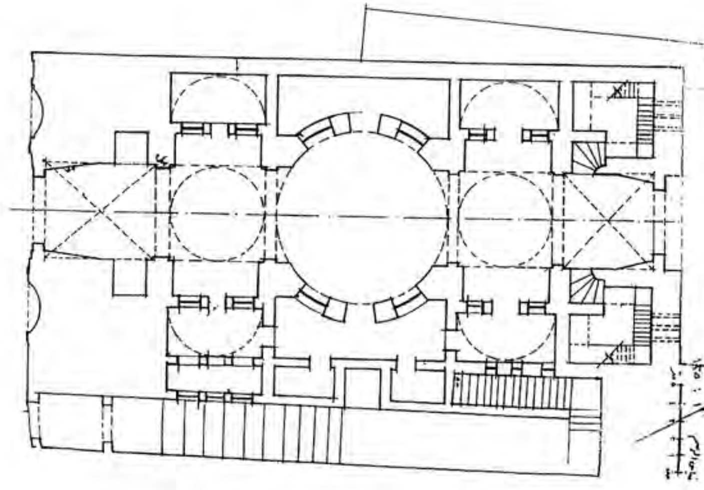
رسم توضيحي للزلاقة الموصلة إلى قلعة محمد علي



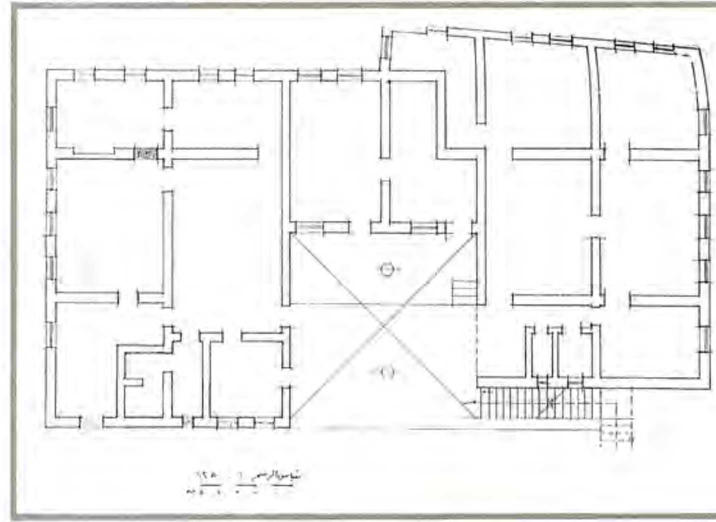
الباب الجديد

الباب الجديد

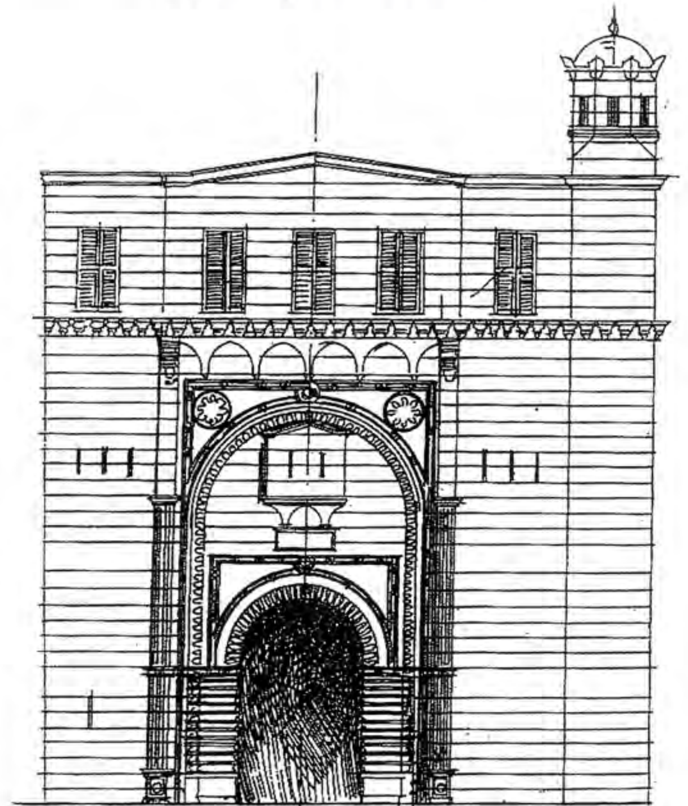
بني هذا الباب على رديم رفع أرض القلعة أسفله إلى مستوى يوازي الطريق الجديد الصاعد إلى القلعة، يبلغ طول الواجهة الشمالية للباب الجديد ١٥,٥٠مترًا، أما ارتفاعها فيبلغ ١٦مترًا. ويزيد قليلاً في الركن الأيمن لواجهة الباب الشمالية لوجود حرس أعلاها. تتوسط فتحة الباب الواجهة؛ حيث يعلوها عقد نصف دائري. وقد زخرفت فتحة الباب والعقد بوسائد حجرية. ويحيط بعقد الفتحة من أعلى جفت لاعب بميمات ينتهي بميمة كبيرة أعلى مفتاح العقد. ويكتنف دخلة الباب مكسلتان. ويُغلق على هذا الباب باب من الخشب المصفح بألواح حديدية مُثبتة بمسامير مكوبجة. والباب من فردتي باب، فتح في اليمنى خوخة صغيرة تستخدم للدخول إلى القلعة. وكان الباب لا يفتح



الباب الجديد – مسقط أفقي للدور الأرضي



الباب الجديد – مسقط أفقي للدور الأول



الباب الجديد – الواجهة

بكامله إلا عند مرور عربة أو مدفع. ويعلو المدخل السابق لوحة تذكارية كتب بداخلها بخط الرقعة البارز على أرضية من فروع نباتية «يا مفتح الأبواب». ويوجد أسفل الكتابة السابقة باللوحة إطار زخرفي كتب بداخله «راقمه عبد الغفار». ويؤطر اللوحة إطار زخرفي من فروع نباتية تتخللها زهور الرمان. ويعلو هذه اللوحة غرفة مراقبة تبرز عن واجهة فتحة الباب على حرامدنين حجريين، وسقفها من النوع الجمالوني، وتوجد بها فتحتا مزغل. وكل هذه العناصر توجد داخل العقد النصف دائري المزخرف بوسائد حجرية. يؤطر هذا العقد جفت لاعب بميمات، ويعلو مفتاح العقد ميمة كبيرة. وبكوشتي العقد جامتان دائريتان بهما رموز الجيش المصري؛ تعد هذه المدافع رمزًا للمدفعية، والطبلة والبوق رمزًا للموسيقى العسكرية، والأعلام والبيارق، والبنادق والسيوف والدروع والبلط والرماح إلى جانب الهلال والنجمة. وكلها تلتف حول ما يشبه الزهرة في المنتصف.

يحدد كتلة المدخل إطار على الجانبين على هيئة دعامتين حجريتين. ومن أعلى كوابيل حجرية تبرز عليها حجرة المراقبة الرئيسية التي يسقفها سقف جمالوني، ويوجد بها ثلاثة شبابيك، وعلى يمين ويسار الغرفة يوجد شباكان، يفتحان على حجرتين لهما سقفان مسطحان، وفي أعلى الركن الشمالي الغربي للواجهة يوجد محرس عبارة عن بناء مثمن تعلوه قبة حجرية، وهو يرتكز على مربع شطفت زواياه. وكان هذا المحرس يستخدم في مراقبة القادمين إلى القلعة.

أما الواجهة الجنوبية للباب الجديد فيتوسطها الباب، وهو عبارة عن فتحة معقودة بعقد نصف دائري، يعلوه عقد ذو طيات مزخرفة بوسائد رأسية وزخارف هندسية. ويعلو فتحة المدخل لوحة تذكارية كتب بداخلها بخط الرقعة البارز على أرضية من فروع نباتية «افتح لنا خير باب» أسفل هذه الكتابة إطار زخرفي بداخل اللوحة كتب بداخله «راقمه عبد الغفار». ويؤطر اللوحة إطار زخرفي بارز من الزخارف النباتية تتخللها زهور الرمان. ويحدد كتلة المدخل إطار على الجانبين على هيئة دعامتين. ويعلو ذلك حجرة مراقبة بارزة عن الواجهة بكوابيل حجرية لها سقف جمالوني. وعلى يمين ويسار فتحة الباب حنيتان عرض كل واحدة منهما ٢,٧٠ متر وعمقها ٤٠ سم. وقد عقدت كلٌ منهما بعقد نصف دائري زُخرف بوسائد رأسية، وفي الطرف الأيسر من الواجهة فتحة باب يعلوها عقد موتور، تؤدي إلى بقايا درج الباب المدرج؛ حيث يوجد في نهايتها فتحتا باب؛ الأولى: في المواجهة، وتؤدي إلى دركاة الباب المدرج، والثانية: على اليسار، وتؤدي إلى الطابق العلوي للباب الجديد؛ حيث يوجد به مجموعة من الحجرات مختلفة المساحة.

توجد بين فتحتي الباب ردهة طويلة، تنقسم إلى خمس مساحات تبدأ من فتحة الواجهة الشمالية بمساحة مربعة الشكل سقفها على هيئة قبو متقاطع، وعلى الجانبين توجد فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري، تؤدي إلى سلم صاعد يفضي إلى حجرة رماية في كل جانب. ويوجد بكل حجرة ثلاث فتحات مزاغل تفتح على الواجهة الشمالية. والمساحة الثانية بالردهة مستطيلة الشكل يتوسطها قبة ضحلة، ويفتح عليها أربعة عقود نصف دائرية، ويفتح بالناحيتين الشرقية والغربية منها إيوانان، تقع خلف كلٍ منهما فتحة باب مستطيلة على يمينها ويسارها دخلتان، تفتح بداخل كلٍ منهما فتحة شباك مستطيلة يغلق عليها مصبعات حديدية، ويعلو فتحة كل باب والشباكين إفريز حجري يعلوه نفيس. ويؤدي كل مدخل إلى حجرة مستطيلة مسقفه بقبو نصف دائري. والمساحة الثالثة بالردهة أكبرها مساحة، وهي دائرية تسقفها قبة ضحلة، ويفتح على هذه المساحة أربعة عقود نصف دائرية، ويوجد بالجانبين الشرقي والغربي إيوانان ترتفع أرضيتهما عن أرضية الردهة. وفتحت بكلٍ من الإيوانين فتحة باب مستطيلة على يمينها ويسارها فتحة شباك مستطيلة يغشيها مصبعات خشبية. تؤدي كل فتحة باب إلى حجرة مستطيلة، والمساحتان الرابعة والخامسة تماثلان المساحتين الأولى والثانية بالردهة على التتابع.

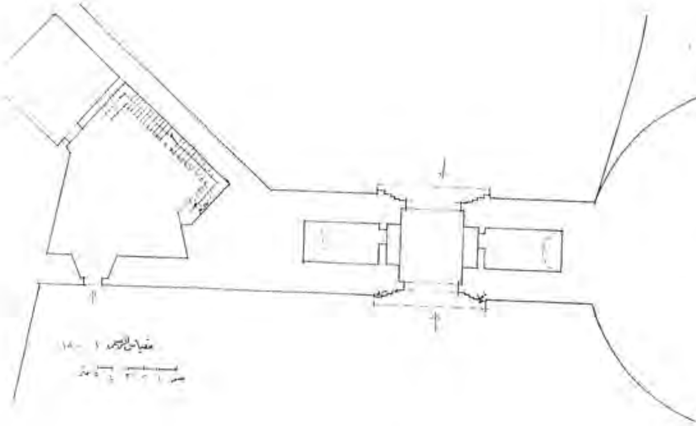
الباب الوسطاني

يقع هذا الباب أعلى باب السر الكبير الذى كان مخصصًا في العصر المملوكي لدخول كبار أمراء المماليك إلى النطاق السلطاني في القلعة، وكان هذا الباب يفتح أيضًا في المناسبات الرسمية. ردم محمد علي هذا الباب في إطار استكمال منسوب الطريق الصاعد إلى القلعة، وردم كل المنشآت المهدمة بها لإقامة منشآت جديدة مكانها. ويرتبط هذا الباب بسور النطاق الجنوبي الذي يمتد من برج السباع إلى باب القلة.

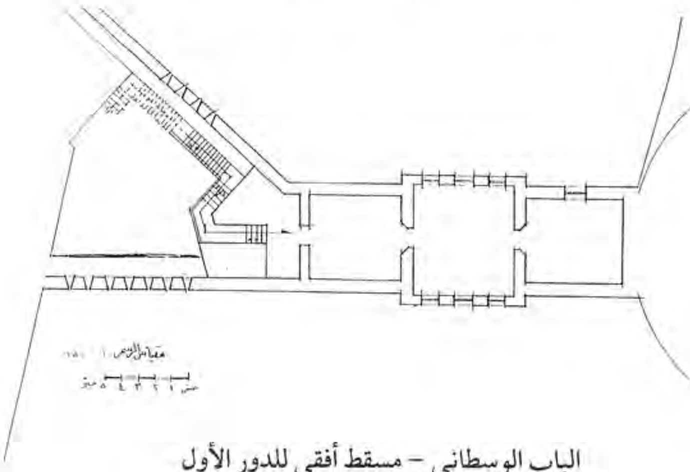
وللباب واجهتان؛ أولاهما الشمالية؛ وتطل على امتداد الطريق الصاعد بعد الباب الجديد، يتوسط هذه الواجهة كتلة المدخل، وهي تبرز قليلاً عن سمت الجدار، وتوجد بها فتحة الباب وهي معقودة بعقد نصف دائري ذي طيات، ويؤطر المدخل على جانبية إطار على شكل عمودين منحوتين في الحجر، وكان يعلو المدخل نص تذكاري نزعت لوحته. ويعلو ذلك حجرة مراقبة بارزة على كوابيل حجرية، ولها سقف جمالوني، يوجد بها ثلاثة شبابيك.

ثانيتهما الواجهة الجنوبية؛ وهي تماثل الشمالية ولكن يحدد حجرة المراقبة من أعلى كرنيش حجري من النوع المعروف باسم French curve كما فتحت على يسار الواجهة فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري تؤدي إلى الطابق الأول.

وردهة الباب مستطيلة وقد فتحت على يسار وعلى يمين الردهة فتحتا باب معقودتان بعقد نصف دائري، يغلق عليهما مصراع باب خشبي، يؤدي كلا البابين إلى حجرتين مستطيلتين سقفتا بسقف عبارة عن قبو نصف دائري. ويؤدي الباب الصاعد إلى الطابق الأول إلى ممشى يعرف حربيًّا باسم قدم بيادة، فتحت بسوره أربع فتحات مزاغل للبنادق. وفي نهاية الممشى فتحة باب مستطيلة تؤدي إلى حجرة المراقبة الرئيسية السابق ذكرها.



الباب الوسطاني – مسقط أفقي للردهة



الباب الوسطاني – مسقط أفقي للدور الأول



باب القلة

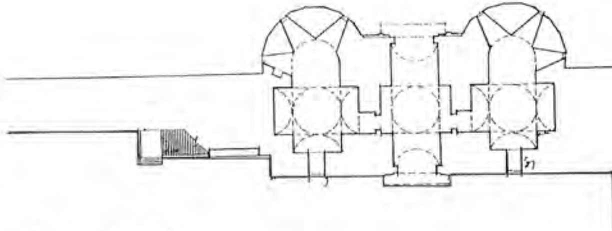
ارتبط تجديد باب القلة بإنشاء محمد علي الباب الوسطاني الذي يرتبط مع باب القلة بسور واحد، وفي إطار ما قام به من تجديد لأبواب القلعة جدد باب القلة الذي يعد في عصره المدخل الرئيسي للنطاق الشمالي للقلعة بعدما ألغى الباب المدرج بإنشائه الباب الجديد فوقه، وسد هذا الباب دركاة الباب المدرج فضلاً عن أن المنشآت التي تعود لعصر محمد علي وخلفائه بالنطاق الشمالي ألغت نهائيًا استخدام الباب المدرج. ذلك أنها سدت مدخله من داخل النطاق وكذلك السور المكمل له. ومنها قصور الحريم والمبنى القديم لدار الوثائق.

تتوسط الواجهة الجنوبية لباب القلة السور الممتد من البرج المنصوري الكبير الذي عرف على خريطة الحملة الفرنسية ببرج الطبالين أو برج الطبلخاناة إلى برج المقطم الذي يرجح أنه برج القلة. هذا البرج جُدِّد في العصر العثماني، وهذه الواجهة من باب القلة عبارة عن فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري ذي طيات يعلوه نص تجديد الباب، وهو باللغة التركية وترجمته كما يلي:

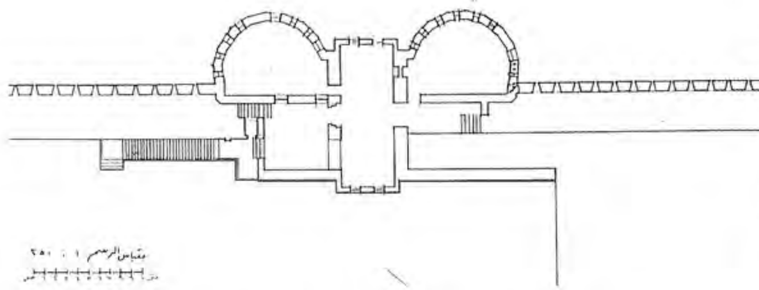
فلتغلق عين العدو السيئ النية كلما فتح باب الزغرة
وليبارك الله بانيه بحق سورة طه وياسين
١٢٤٢ هـ

ومن الملاحظ أن تاريخ تجديد هذا الباب يوازي تاريخ إنشاء الباب الجديد والباب الوسطاني، ويبرز فوق النص السابق حجرة مراقبة على سبعة كوابيل حجرية، وسقف هذه الحجرية جمالوني. ويكتنف المدخل برجان مضلعان، بهما فتحات مزاغل، تعلوهما دروة أضافها محمد علي، فتح بها فتحات مستطيلة يعلوها عقد موتور، ويعود هذان البرجان إلى العصر العثماني. أما ردهة المدخل فهي مقسمة إلى ثلاث مساحات، الأولى والثالثة مسقوفتان بقبو نصف دائري. أما الوسطى فمسقفة بقبة ضحلة، وتؤدي فتحتا باب كل منهما المعقودتان بعقد نصف دائري إلى البرجين اللذين يكتنفان الواجهة الجنوبية؛ وهما من الداخل كلٌ منهما مسقف في الوسط بقبة ضحلة يكتنفها من ثلاث جهات ثلاث سدلات مسقفة بأقبية نصف دائرية، والجانب الرابع يفتح على الواجهة الجنوبية للبرج بثلاث فتحات مزغلية.

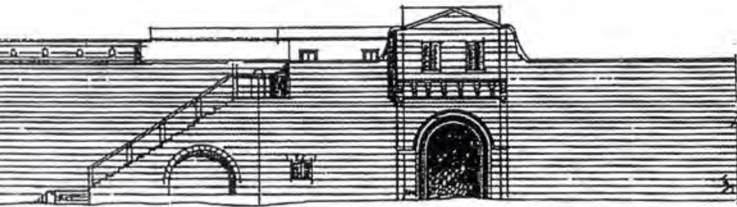
أما الواجهة الشمالية للباب فتتوسطها كتلة مدخل، وهي ذات عقد نصف دائري ذي طيات. تكتنفه على الجانبين دعامتان بارزتان في الحجر، وتعلوه حجرة مراقبة تبرز على ثمانية كوابيل حجرية، وهي ذات سقف جمالوني. ويصعد إلى حجرة المراقبة بالطابق الذي يعلو البرج بواسطة سلم يوجد على يسار الواجهة الشمالية.



باب القلة– مسقط أفقي للدور الأرضي



باب القلة – مسقط أفقي لحجرة الرماية والسلم الصاعد



باب القلة– الواجهة الشمالية

باب القلة



الديوان

حظي الديوان باهتمام محمد علي لكونه مقر الحكم في القلعة، وهو في ذلك يتبع ما سارت عليه الأمور في إدارة دفة الحكم من الحوش السلطاني بدءًا من العصر المملوكي الجركسي مرورًا بالعصر العثماني، وتعددت تجديدات محمد علي بهذه المنطقة من القلعة، وهذا يعكس مدى أهميتها. وقد بدأت أعمال محمد علي في هذا النطاق في العام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. وذكر الجبرتي هذه الحادثة قائلاً: «هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن، فهدم قاعة البحرة والمجالس التي كانت بها الدواوين وديوان قايتباي، وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحوش علو الكلار الذي به الأعمدة وديوان الغوري الكبير، وما اشتمل عليه من المجالس التي كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين، وشرع في بنائها على وضع آخر واصطلاح رومي، وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب ويبنون الأعالي قبل السفل. وأشيع أنهم وجدوا مخبآت بها ذخائر لملوك مصر الأقدمين».

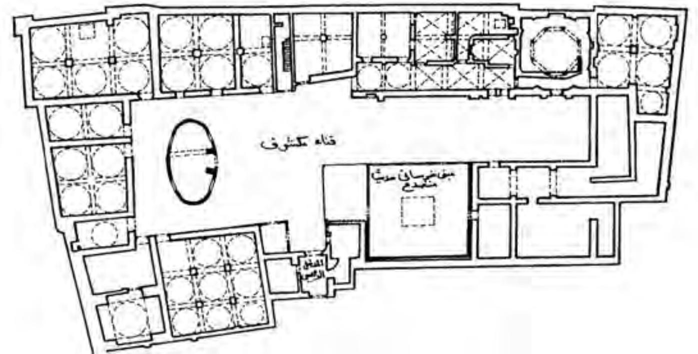
وتسلسل هذه المنشآت المجددة بدءًا من الدخول من باب الجبل هي:

دار الضرب

جددها محمد علي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. وأثبت هذا التجديد على لوح رخامي ما زال موجودًا على بابها الأوسط نصه: (جدد هذا المكان المبارك الوزير الأعظم محمد علي باشا حالاً). وتم عمل إضافات جديدة لهذه الدار تم الفراغ منها سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م. وتشمل هذه الإضافات محلات للموازين ومعرفة الذهب والشيشني ومكتبًا ومسجد صغيرًا، وبلغت تكلفة هذه الإضافات ١٢ ألف قرش.

وبناء دار الضرب شبه مستطيل؛ إذ إن أضلاعه غير مستقيمة، يتوسطه فناء به استطالة، تحيط به حجرات متنوعة المساحة والتسقيف، وبعض الحجرات تعلوها قبتان ضحلتان أو ست قباب ضحلة ترتكز في وسط الحجرة على أكتاف، وبعض الحجرات مربعة الشكل يغطيها أربع قباب ترتكز في منتصف الحجرة على كتف مبني بالحجر. وبنيت القباب بالطوب وفُتحت بها مناور سماوية للتهوية والإضاءة، وهذا الطراز لم يكن له شيوع بمصر، وتتوسط الصحن غرفة بيضاوية الشكل مبنية بالحجر.

دار الضرب – مسقط أفقي



سراي العدل

ما زالت هذه السراي باقية إلى اليوم بجوار دار الضرب، وفي جنوب حوش الديوان، وشهدت هذه السراي اجتماعات الدواوين التي كانت تدير حكم مصر، إلى أن نقلت منها في عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م إثر حريق وقع في القلعة. ومن الأحداث الهامة التي شهدتها هذه السراي، تولية إبراهيم باشا حكم مصر خلفًا لمحمد علي الذي كان يعاني مرض الموت. كان محمد علي قد أعلى أرضية الديوان، وهو ما أدى إلى اختفاء أجزاء من منشآت سابقيه، ومنها ديوان الغوري الشهير الذي شيدت فوقه سراي العدل، والتي يبدو أنه قد انتهى منها عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٣م، طبقًا لنص مسجل عليها نصه: «من أمن بالقدر أمن الكدر سنة ١٢٢٩هـ».

تطل السراي على الحوش بواجهتها الشمالية وهي واجهتها الرئيسية، وتتكون هذه الواجهة من مستويين؛ هما:

المستوى الأول: هو واجهة الطابق الأرضي منها، وهو عبارة عن سلم مزدوج أسفله ثلاثة عقود نصف دائرية ترتكز على دعامتين حجريتين مربعتين، أكبر هذه العقود أوسطها. تؤدي الثلاثة عقود إلى دخلة تفضي إلى باب يؤدي إلى الطابق الأرضي من السراي.

المستوى العلوي: من الواجهة ويمثل الطابق الأول، ويتم الوصول إليه بسلم مزدوج يتكون من ٣١ درجة في كل جانب وبسطة كبيرة ترتفع عن أرضية الحوش بحوالي ٦ أمتار. ويعلو البسطة جوسق له ثلاثة عقود نصف دائرية؛ الأمامي منها يطل على الحوش ويعلوه كورنيش معقود، والجانبيان يطلان على السلم المزدوج. وعلى يمين ويسار الواجهة ثلاث نوافذ في كل جانب معقودة ومغشاة بالحديد، وعلى جانبي كل نافذة دعامة بارزة من في الحجر، يعلوها كورنيش حجري بارز من عقود متتالية. ويعلو هذه الواجهة كورنيش من الحجر بارز منحن من جانبيه، ويعلوه بناء من الطوب المغشي بالملاط.

والطابق الأرضيّ للسراي عبارة عن صالة مستطيلة قسمت إلى سبع مساحات غير متساوية. أما الطابق الأول فيدخل إليه من فتحة باب كبيرة، تؤدي إلى صالة مستطيلة بصدرها حنية عميقة لها جلسة ترتفع عن أرضية الصالة وهي ذات سقف مقبَّب.

سراي العدل – مسقط أفقي للدور الأول

منظر عام لسراي العدل من الخارج



سراي الجوهرة

أنشأها محمد علي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. وذكرها الجبرتي تحت اسم ديوان السراية وسراية الديوان، وكانت هذه السراي مخصصة للاستقبالات الرسمية. وتبين النصوص الكتابية بها أن مبانيها انتهت سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م. ووقع حريق بها سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م. وذكر الجبرتي سبب هذا الحريق ويعزوه إلى المواد المستخدمة في البناء؛ حيث يقول: «إن أبنية القلعة كانت من بناء الملوك المصرية بالأحجار والصخور والعقود وليس بها إلا القليل من الأخشاب، فهدموا ذلك جميعه وبنوا مكانه الأبنية الرقيقة وأكثرها من الحجنة والأخشاب على طريق بناء إسلامبول والإفرنج، وزخرفوها وطلوها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش، وكله سريع الاشتعال، حتى إن الباشا لما بلغه هذا الحريق وكان مقيمًا بشبرا تذكر بناء القلعة القديم، وما كان فيه من المتانة. ويلوم على تغيير الوضع السابق، ويقول: أنا كنت غائبًا بالحجاز، والمهندسون وضعوا هذا البناء، وبعد هذا الحريق انتقلت إلى بيت طاهر باشا بالأزبكية».



سراي الجوهرة – مسقط أفقي

والمدخل الرئيسي لهذه السراية عبارة عن مظلة محمولة على أعمدة رخامية. ومكتوب أعلى الباب «يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب» (سنة ١٢٢٨ه). وهذا الباب يؤدي إلى طرقة كبيرة بها عقود حجرية تنتهي إلى سلم فباب كبير مكتوب عليه «الله ولي التوفيق». وتتكون هذه السراية من قسمين رئيسيين حاليًا، هما: سراي الاستقبال، وسراي الإقامة أو كما يعرف باسم قصر الضيافة.

سراي الاستقبال

يدخل إلى سراي الاستقبال من المدخل السابق ذكره، وتتكون من قسمين؛ هما:

الأول: بهو الاستقبال الرئيسي، ويعلوه الطابق الثاني المتمثل في سراي الضيافة.

الثاني: هو جناح الاستقبال البحري بشقيه الشرقي والغربي. استخدم المعمار في القسم الأول وحدة تصميم تعتمد على صالة كبيرة (بهو) تتوزع منها وحدات صغيرة عبارة عن حجرات متداخلة (قاعة الكوشة وقاعة الكسوة) وأخرى أكبر حجمًا، وتمثل قاعة رئيسية في هذا البهو (قاعة العرش السفلية) بالإضافة إلى إيوان يفتح على هذه الصالة، فضلاً عن أبوب تؤدي إلى ملحقات. تمتاز جدران هذا البهو بوجود حنايا (دخلات) كانت تستخدم في وضع المصابيح والتحف. ووحدة التصميم هذه كانت شائعة في المنازل العثمانية بتركيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين في فترة عرفت باسم فترة الباروك التركي. ويرى البعض أن هذا التصميم استمد مباشرة من تصميم بيوت إسطنبول، والذي استمر حتى عصر متأخر، وهو يعتمد على صالة مستعرضة يفتح عليها إيوان، وتجاوره حجرتان، بالإضافة إلى ملاحق تخدم هذه الوحدة السكنية. ويفصل بين كشك الجوهرة وجامع محمد علي حديقة يتوسطها فسقية.

المدخل المؤدي إلى سراي الاستقبال وسراي الجوهرة





سراي الإقامة

سراي الإقامة (قصر الضيافة)

هذه السراي تتكون من وحدة رئيسية تتمثل فيما يعرف بقاعة العرش العلوية؛ حيث تتكون هذه القاعة من صالة يفتح عليها إيوانان في الجهة الشمالية والجهة الجنوبية. بالإضافة إلى هذه الوحدة الرئيسية هناك وحدات أخرى بعضها مستقل عنها؛ مثل غرفة النوم، وبعضها يتفرع من الإيوان الجنوبي للوحدة الرئيسية؛ مثل قاعة الاستقبال العلوية وجناح الهدايا. وعرفت سراي الاستقبال بالكشك أو كشك الجوهرة. وتبقى من ملحقات الكشك حمام مفروش بالرخام وبه حوض من قطعة واحدة مجلوب من محاجر بني سويف.

تعتبر عمارة سراي الجوهرة مشتقة من الأسلوب العثماني لتقسيم المساكن وخاصة الراقية منها، إلى سلاملك وحرملك، مع محاولة تطويع ذلك المخطط لنظام القصور الأوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي. والذي نتج عنه عناصر معمارية؛ مثل باحة الشرف، وبهو للاستقبالات وأجنحة خاصة بالباشا وحريمه. وفيما عدا ذلك فإن القصر قليل الأهمية على الصعيد المعماري، لكن زخرفة أسطحه المنقولة عن النماذج الأوروبية تدل دلالة مباشرة على دور تلك الطرز في صياغة أذواق الطبقة الحاكمة في مصر آنذاك.

استقبل محمد علي في هذه السراي كبار زائريه من الأجانب؛ منهم الأديب الفرنسي شاتو بريان، والكونت دي فوربان الذي وصف في كتابه (مدينة القاهرة) حفلة استقبال في السراي (١٨١٧- ١٨١٨م). كانت هذه السراي هي المكان المفضل لسعيد باشا لإدارة حكم مصر لذا أعيد فرشها على يد الأسطى يعقوب وابنه كلش. كما زُودت سراي الاستقبال بمرايات كبيرة. ولما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر عام ١٨٦٢م أقام بهذه السراي، واستقبل فيها المرحبين به من كبار رجال الدولة والعلماء.

سراي الحرم

كانت في الأصل لإسماعيل أفندي أمين عيار الضربخانة، ثم أخذها محمد علي لحريمه عند انتقاله للسكن في القلعة؛ لأنها كانت دارًا عظيمة. ويبدو أن هذا القرار جاء نتيجة لتهدم قاعات الحريم بالقلعة والتي كانت تقع بجوار سراي الباشا أو ما يعرف حاليًا بسراي الجوهرة. واستخدم محمد علي هذه الدار في يوم مذبحة المماليك، وذلك بعد أن بدأ موكب ابنه طوسون؛ إذ انتقل إليها حيث كان حريمه يقيمون، وأسقط محمد علي ثمنها من الغرامة التي قررها على إسماعيل أفندي، الذي سكن في دار أخرى بحارة الروم. وجعل إلى الغرب منها ديوان المالية وديوان الجهادية وديوان المدارس.

تتكون سراي الحريم من ثلاثة قصور بشكل منفصل بعضها عن بعض، وإن كانت صممت لتكون متصلة على مستوى الطابق الأرضي، وكانت مخططاتها متشابهة، والقصر الوسطاني هو الأقدم بناءً، وتلاه القصر الشرقي، ثم القصر الغربي. ومن الخطأ تسمية هذه القصور باسم الحرم أو الحريم، وهو الاسم الشائع لها الآن؛ لأنها لم تعمر أساسًا لإسكان الحريم فقط. وكانت هذه القصور محاطة في الماضي بجدار، مما فصلها عن بقية النطاق الشمالي للقلعة ولكنه أزيل لاحقًا.

قصور الحريم- مسقط أفقي للدور الأرضي



قصور الحريم





القصر الشرقي – المدخل الذي يعلوه النص التأسيسي

القصر الشرقي

هو أكبر هذه القصور، وقد أقيم أصلاً لسكن أيتام عائلة محمد علي وأيتام العائلات المملوكية الذين كانوا يهيئون لكي يصبحوا ضباطًا في الجيش المصري الجديد. ويمكن تحديد تاريخ بنائه في عام ١٨٢٦م من اللوحة التأسيسية المكتوبة باللغة التركية والمثبتة فوق المدخل، ونصها:

إن محمد علي باشا حاكم
مصر الذائع الصيت
الذي يجد العالم في باب لطفه وكرمه الزخرف التام
هو خديو أعظم يطاول السماء
في علاها ويحاكيها في ظله
وصاحب السيف والقلم وهو
آصف غلامه بمنزل بهرام
سيفه يشتت شمل زمرة الطغاة
وقلمه كسحاب الربيع وورد حديقته الكرام
قد أنشأ ذلك الحاكم العالي
الشأن قصرًا جديدًا كتحفة
يجد ربه إذا كان بهرام بوابه
هو قصر كالجنة يا له من قصر بديع مزخرف
لم ينطبع مثله في أديم السماء الصافي كالمرآة
(إذا شاهدته) شعرت في داخله بانشراح
يفوح من صوره ونقوشه أريج الجنان
وقد فتن رسمه بهزاد
بخ بخ هكذا يجب أن يكون الرسام في العالم
لقد كتب التاريخ (عزيز) بيت مجوهر
جعل العلام منشأه سعيدًا
إن هذا الباب الجميل لمحمد علي باشا العادل
ظل مفتوحًا بالسعادة إلى يوم القيامة ١٢٤٤ هـ.

يؤدي مدخل هذا القصر إلى دركاة تقود إلى فناء بجداره البحري باب يؤدي إلى قاعة كبيرة. في حين يوجد باب آخر بدركاة تشبه السابقة يوصل إلى فناء آخر تطل عليه واجهة القصر على امتداد القصرين الآخرين. وتحيط بهذا الفناء أبنية مكونة من دورين. وواجهة هذا القصر يتوسطها باب صغير يؤدي إلى سلم مزدوج يوصل من الطابق الأرضي للعلوي. وأهم ما يسترعي النظر في الدور الأرضي هي قاعة الفسقية، وبها أربعة إيوانات يتصدرها سلسبيل رخامي تكتنفه عمد رشيقة من الرخام نقشت به زخارف على هيئة طيور من أفواهها مياه تصب في أحواض متدرجة تنساب في قناة الفسقية التي تقع وسط القاعة. ويوصل السلم المزدوج إلى قاعة علوية كبيرة بها إيوانات تتفرع منها حجرات وطرقات توصل إلى باقي القصر. وتلي هذه القاعة قاعة أخرى مستطيلة على جانبها حجرات، جدرانها وأسقفها مزخرفة بنقوش ما زالت باقية حتى الآن.

القصر الوسطاني

يوجد بالحائط القبلي لهذا القصر باب يؤدي إلى حديقة هذا القصر؛ حيث توجد فسقية يعلوها جوسق، ويتوسط واجهة هذا القصر باب له مصراعان حُلّيَت حشواتهما بزخارف نباتية. والدور الأرضي عبارة عن قاعة كبيرة بكل ركن من أركانها حجرتان احتفظت جميعها بنقوش أسقفها التي تتنوع بين مسدسات ومربعات وجدائل انتشرت بها الزهور. ويوجد بهذا الدور الأرضي حمام يتكون من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف مُحَلَّى بزجاج ملون، يليها باب يؤدي إلى قاعة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة، وواجهة كلٍ من الإيوانين محمولة عل عمد رخامية رشيقة قواعدها مربعة ومطعمة برخام أحمر. والقسم الداخلي من هذا الحمام هو بيت الحرارة، وهو مقسم إلى أقسام أكبرها هو أوسطها. والحمام مسقوف بسقف مغشي بالجص، بداخله تقاسيم زخرفية على هيئة زهرة ذات أربع أوراق.

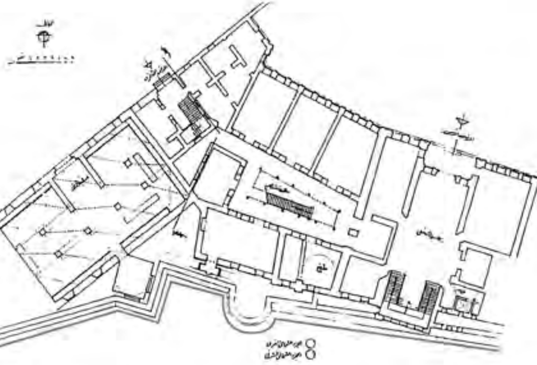
القصر الغربي

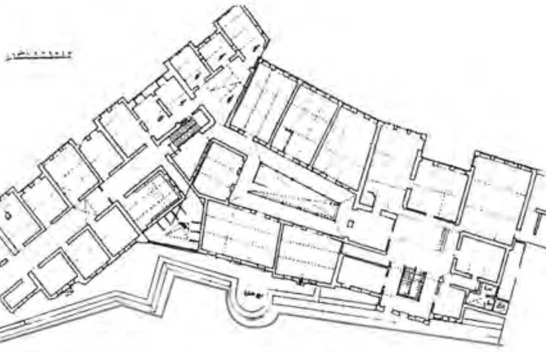
يمتد الحائط الخارجي لهذا القصر مع القصر الوسطاني، ويماثل تصميم هذا القصر القصرين السابقين، ولكن طرأت تغييرات كثيرة وجسيمة منذ مدة على هذا القصر أفقدته جميع زخارفه، واستبدلت أسقفه بأسقف حديدية.

ومن الملاحظ أن في كلٍّ من القصور الثلاثة، في الطابقين الأول والثاني توجد قاعات مكونة من أربعة إيوانات حول فراغ مركزي، وكلها كانت تستعمل للاستقبال. وقد تكون مخططاتها نابعة من مخطط القاعات المملوكية، أو أنها مقتبسة من مخطط البهو التركي المتأثر بالعمارة الأوروبية. وهو الأرجح فالأسلوب الغالب في القصور هو التشكيلات النباتية الملونة المرسومة على الأسقف أو على لوحات في زوايا جدران الغرف والأبهاء. وهذه الموضوعات الزخرفية إسطنبولية الطراز، أما التنفيذ فهو يخضع لطراز الباروك. وهذه القصور مهيبة باتساعها وليس بعمارتها، وملفتة للنظر بالتكرار في موضوعات وأشكال زخارف غرفها وليس بالجدة في أسلوبها أو البذخ في تنفيذها. وتعتبر هذه القصور أكبر منشآت محمد علي في النطاق الشمالي.

القصر الأحمر

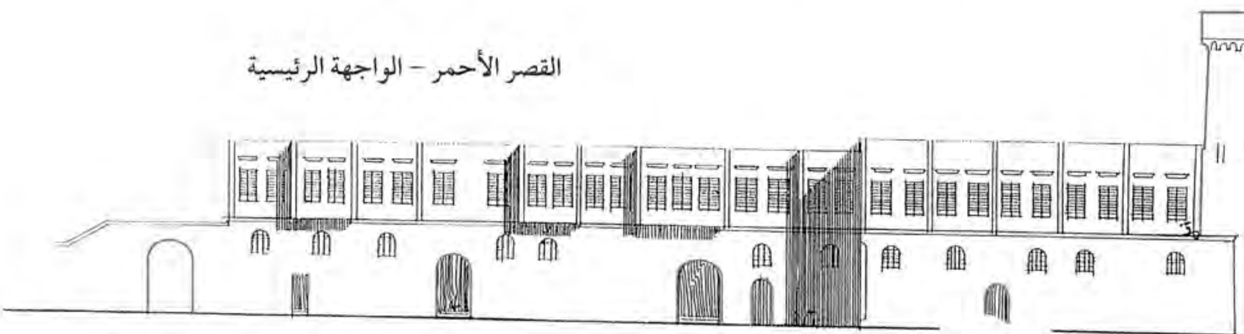
تقع هذه المنشأة على يمين الداخل من باب القلة، وهي في الأصل من تشييد محمد علي؛ حيث استكمل مبانيَ قديمة كانت في هذا الموقع. يرى الدكتور محمود الألفي أن هذه المنَشأة استغلت كمقر للمهندسخانة التي أمر بأن يلحق بها تلاميذ لتعلم فنون الهندسة. وذكر الجبرتي هذه الواقعة في تاريخه في عام ١٢١٣هـ/ ١٨١٦م؛ حيث يذكر: «فأمر - أي محمد علي- ببناء مكتب بحوش السراية ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا وجعل معلمهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي يقال له روح الدين أفندي بل وأشخاصًا من الإفرنج. وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز ...». ولم تستمر الدراسة بهذا المبنى في رأيه لفترة طويلة؛ إذ شيد محمد علي مدرسة للمهندسخانة في بولاق سنة ١٨٣٤م؛ حيث تتركز حركة


القصر الأحمر – مسقط أفقي للدور الأرضي


القصر الأحمر – مسقط أفقي للدور الأول

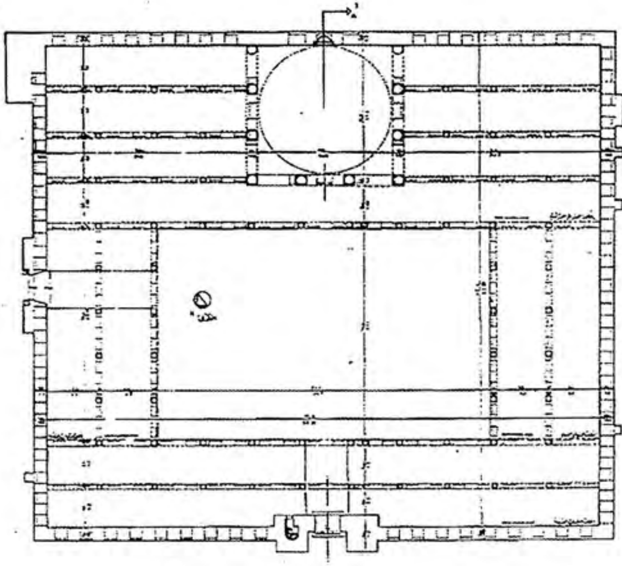

القصر الأحمر

القصر الأحمر – الواجهة الرئيسية

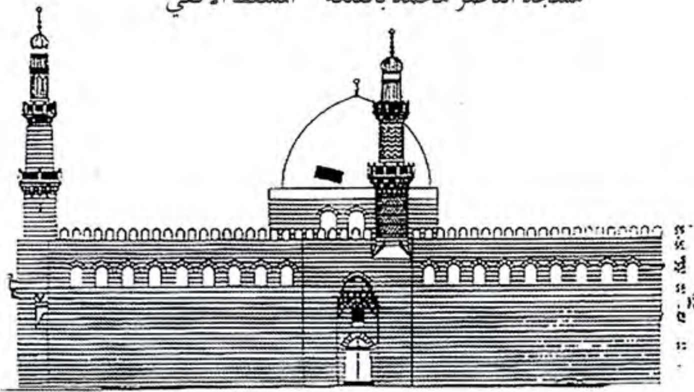


الصناعة بالبلاد. غير أن نص الجبرتي صريح فهو حدد موقع المهندسخانة في حوش السراية، ومن المرجح أن موقعها اليوم هو المباني المحصورة بين سراي العدل وسراي الجوهرة. وترى أمل محفوظ أن هذا المبنى كان مدرسة حربية في عصر محمد علي، وهي التي نقلها إلى أسوان فيما بعد، غير أنه من المؤكد أن هذا المبنى يعود إلى عصر محمد علي، والمحتمل أنه كان أحد المباني الإدارية ولذا ربما استغل كأحد مقار الدواوين في عهد محمد علي كديوان الجهادية. واستغل هذا المبنى كمدرسة للحربية في عهد سعيد باشا الذي أضاف إليه قسمًا جديدًا، وهو الجناح الشمالي الغربي. وذلك في عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م. وكان عدد طلبة هذه المدرسة ٢٥٠ طالبًا يقيمون بها، وهو ما استدعى توسعتها. إلا أن سعيد باشا نقل المدرسة من القلعة في سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م.

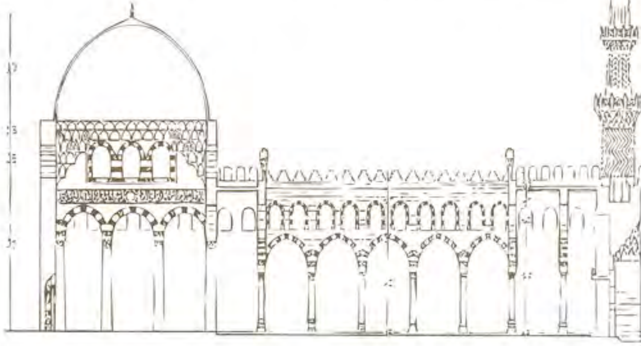
والمسقط الأفقي لهذا المبنى غير منتظم، هذا المبنى شيد على جزء من سور القلعة. ويتكون من طابقين؛ أرضي وأول. وله مدخلان؛ الأول يطل على الساحة التي بينه وبين قصر الحرم، والثاني يتوصل إليه من حوش يتقدم المبنى، يدخل إليه من باب في الطريق المحصور بين المدرسة وقصر الحرم.



مسجد الناصر محمد بالقلعة – المسقط الأفقي



مسجد الناصر محمد بالقلعة – الواجهة الرئيسية



مسجد الناصر محمد بالقلعة – قطاع عرضي

مسجد محمد علي

بعد انتهاء محمد علي من ترميم أسوار وأبراج القلعة، وكذلك ردم الأجزاء المتخربة منها، خاصة بقايا دار العدل أو الايوان الناصري وقاعات الحريم، وإعادة تشييد مقر الباشاوات، وهو حوش الباشا، وإقامة قصر لحريمه، اتجه ليشيد عمارة ترمز لعظمة سلطانه في مصر، معبرًا عن استقرار الأوضاع له. هو مسجد محمد علي، ذلك المسجد لم تكن له ضرورة ملحة بالقلعة لوجود مسجد جامع بها، هو جامع الناصر محمد بن قلاوون الذي يجاور الموقع الذي اختاره محمد علي لمسجده، ولعل لهذا العمل منحى سياسيًا بحتًا يرتبط بتوجهات محمد علي.



جامع محمد علي بقلعة الجبل



مسجد الناصر محمد بالقلعة؛ المسجد الرئيسي للقلعة قبل بناء جامع محمد علي





سجلت الوقائع المصرية في أحداث سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م، وقائع وضع حجر أساس المسجد. وجاء التقرير المنشور ليحمل العديد من المعاني السياسية؛ ومنها أن المسجد لم يشيد إلا بعد إصلاح أسوار القلعة وقصورها. وذكر التقرير أن محمد علي: «قدم بناء القلعة على بناء الجامع وأخر حتى حين اقتداء بمن قال الأمور مرهونة بأوقاتها». وحضر وضع حجر الأساس محمد علي، ونجله سعيد، ووالي جده إبراهيم باشا، وملا أفندي قاضي مصر، وأعيان مصر وعلماؤها، وقرأ الجميع الفاتحة، وذبحت القرابين ونثرت الدنانير والدراهم. وذكر التقرير أن المهندسين وعمال البناء عملوا تحت إشراف أمين أفندي ناظر الأبنية، وأن المسجد سيشيد ليكون من الآثار المعمارية.

يتربع جامع محمد علي على قمة القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من السور في موقع لابد وأنه اختير بعناية؛ بحيث إنه يشرف على المدينة كلها. وهو الآن المعلم الأكثر شهرة من معالم القلعة، حتى إنه أعطى اسمه لها في اللغة الدارجة المصرية اليوم؛ بحيث إن عامة الناس تنسب القلعة إلى محمد علي، مع أنه آخر من بنى فيها، فهل كان ذلك مقصودًا من محمد علي ومهندس جامعه؟

أكثر ما يلفت النظر في جامع محمد علي هو اختلافه الجذري شكليًّا ومعماريًّا عن غالبية جوامع القاهرة الكبيرة، فهو من دون أي شك ينتمي للطراز المعماري العثماني الكلاسيكي بقبته ومئذنتيه المدببتين الشاهقتين اللتين تؤطران القبة. في حين إن صورة جوامع القاهرة عمومًا بما فيها جامع القلعة الرسمي – فيما عدا بعض الجوامع – تنتمي للنموذج المملوكي الذي يمتاز بقبابه الصغيرة نسبيًّا والمنحوتة بالنقوش الهندسية والنباتية الرائعة، وبتشكيلاته الفراغية المعقدة، وبالمآذن ذات الجواسق.

ومما يزيد في غرابة جامع محمد علي بالنسبة لمحيطه وزمنه هو أنه لا يشبه الجوامع العثمانية المعاصرة له، أي تلك التي بنيت في عاصمة الخلافة إسطنبول في بدايات القرن التاسع عشر، وإنما يعود بأسلوبه إلى الجوامع التقليدية الإسطنبولية. وهي جوامع القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديَّين، وبشكل خاص جامعا: بيتي فاليدة (جامع الوالدة صفية والدة السلطان محمد الثالث – بني ١٥٩٥ / ١٦٠٣م)، وجامع السلطان أحمد الأول الشهير بالجامع الأزرق، وإن كان معظم المتخصصين في العمارة العثمانية يعيبون عليه أنه لا يتسم بالدقة والرشاقة التي تتسم بها الجوامع الكلاسيكية العثمانية.

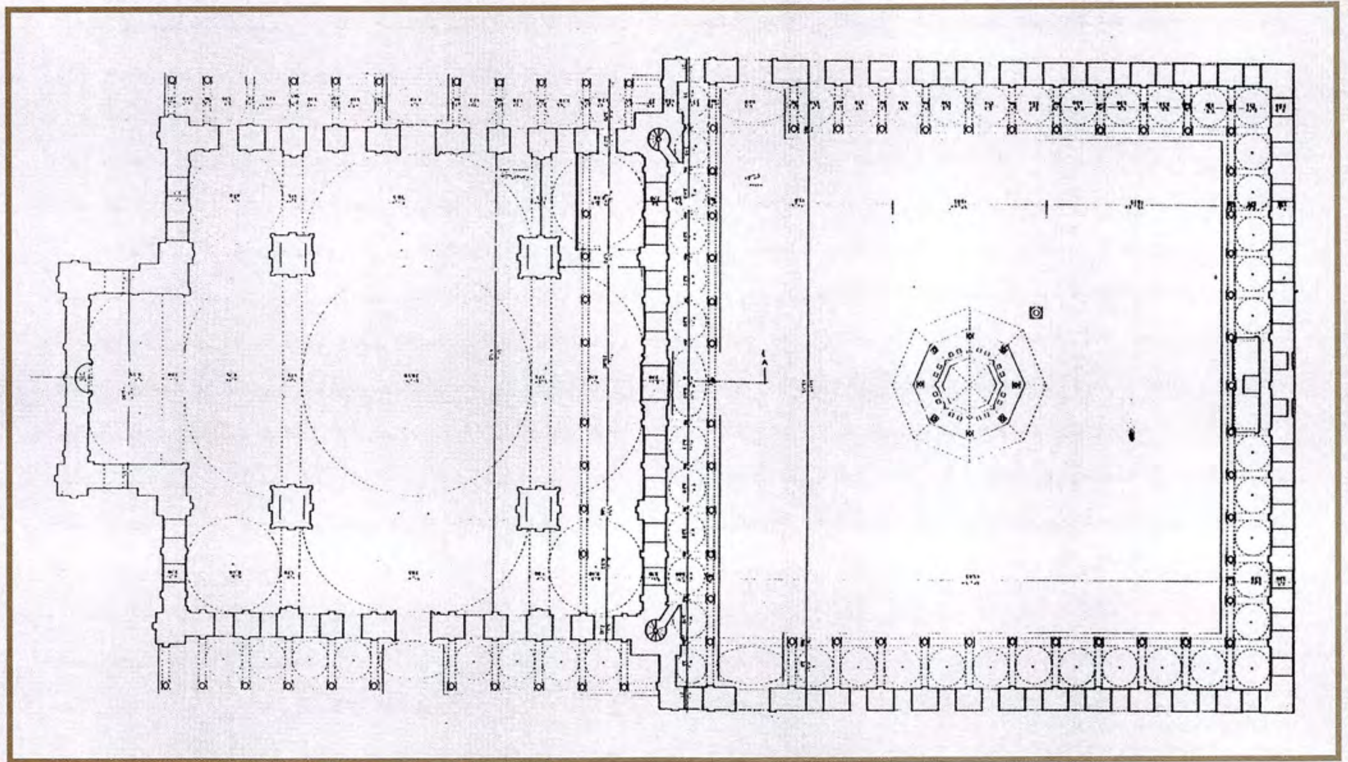
بالإضافة إلى ذلك يتباين وضوح وصراحة إنشاء وعمارة جامع محمد علي مع زخرفته بغزارتها وانتقائية طرزها، فقبته التي ترتفع إلى ٥٢ مترًا؛ مكسوة من الخارج بصفائح الرصاص. في حين غطيت سطوحها الداخلية بالنقوش النافرة الملونة والمذهبة والتي نفذت بأسلوب باروكي محدث. ويحيط بالصحن الملاصق للمصلى من جهة القبلة، ثلاثة أروقة. وقد كسيت أعمدة وعقود وجدران الأروقة بالمرمر المصري الشاحب، وكذلك كسيت القبة وفسقية الوضوء التركية باروكية الطراز بنفس المادة، وقد رفعت فوقها ظلة خشبية على ثمانية أعمدة رشيقة. وتتشامخ مئذنتا الجامع المبنيتان على زاويتي الجدار الغربي للمصلى إلى ارتفاع ٨٢ مترًا. في حين يبرز في منتصف الضلع الغربي للصحن، والمطل على ميدان الرميلة برج الساعات النحاسي المزخرف الذي أهداه لويس فيليب ملك فرنسا لمحمد علي سنة ١٨٤٥م، مقابل المسلة الفرعونية في ميدان الكونكورد في باريس. ومن الملفت للنظر أن هذا البرج لا يتعارض مع الشكل العام للجامع، على الرغم من أنه منطقيًّا وأسلوبيًّا يجب أن يكون نقيضه تمامًا.

يزخر جامع محمد علي بكم هائل من الكتابات تتناسب وحجم المسجد وإمكانيات المنشئ الهائلة، بعضها أبيات شعر من نظم الشيخ محمد شهاب الدين. علمنا من هذا الشاعر أن سلامة أفندي المهندس صنع مزولة للجامع، وأن الأبواب انتهت سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، وأن القبة الكبيرة انتهت سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م. ويستوقفنا في كتابات المسجد استخدام ثلاث لغات فيها. فالأبيات الشعرية كتبت باللغة العربية، والنصوص الكتابية على الميضأة كتبت باللغة الفارسية، وشاهد قبر محمد علي كُتب بالتركية. وهذه التعددية اللغوية تعكس طبيعة العصر الذي شيدت فيه المنشأة. فقد كان محمد علي وبطانته لا يجيدون إلا التركية. وبالتالي شاعت التركية في النصوص التأسيسية بالقلعة وبالمنشآت الكبيرة في هذا العصر، وفي المكاتبات الرسمية لكونها اللغة المشتركة بين الإدارة في مصر ومقر السلطنة في إسطنبول. وهذا هو السبب الذي جعل اللغة التركية تستمر في مصر إلى عام ١٩١٦م. ويعود ظهور اللغة الفارسية إلى اهتمام محمد علي بها وبتدريسها في المدارس المصرية. إلا أنها لم تستخدم كلغة للإدارة. وإنما كانت معينًا تقوم به الأصول الفارسية في اللغة التركية. وجاءت الفارسية في مسجد محمد علي على يد خطاط فارسي هو ميرزا اسنتلاح.

بني الجامع في تاريخ متأخر نسبيًّا في عهد محمد علي، الذي رغب في إنشاء مدفن لنفسه فيه، وتدل وقائع الأحداث الخاصة ببناء الجامع على دلائل مهمة لمعناه ولدوره الأساسي كمعبر عن نفسية الباشا وسياسته تجاه السلطنة العثمانية وعن طموحاته للحلول محلها أو بالأحرى لإحياء مجدها الغابر.

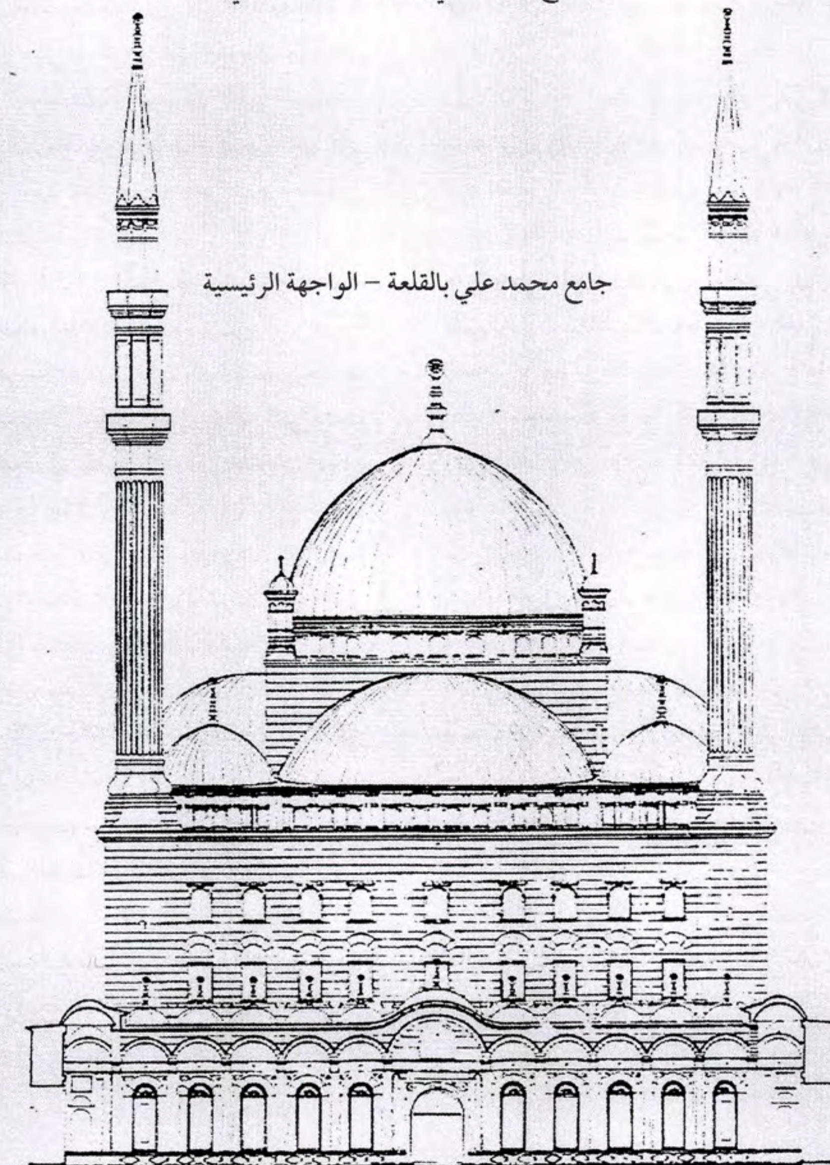
يخبرنا باسكال كوست المعماري الفرنسي الذي عمل في مصر تسع سنوات (١٨١٩– ١٨٢٨م) في مذكراته بأن محمد علي باشا طلب منه تصميم جامع في القلعة وجامع آخر في الإسكندرية بين عامي (١٨٢١– ١٨٢٢م) فامتثل كوست للطلب بعد أن قضى سنتين (١٨٢٢– ١٨٢٤م) يدرس جوامع القاهرة. ومن خلال دراسته توصل إلى أن بناء الجوامع في مصر يجب أن يعتمد على الطراز المملوكي، لكونه الطراز المميز للعمارة المصرية في العصور الإسلامية.





جامع محمد علي بالقلعة – مسقط أفقي

جامع محمد علي بالقلعة – الواجهة الرئيسية



وضع كوست مشروعين، مازالت رسوماتهما في المكتبة البلدية في مارسيليا. يبدو التأثير المملوكي فيهما واضحًا في مساقطهما وواجهاتهما ومآذنهما مع بعض التفاصيل الباروكية في العناصر الملحقة بالجامع كالسبيل، ولكن التنفيذ تعثر على ما يبدو، ووجد الباشا نفسه مضطرًا لإلغاء مشروع جامع الإسكندرية بسبب نقص السيولة الناتج عن اشتراك مصر في الحرب اليونانية كجزء من قوات الدولة العثمانية، ولم يشرع في بناء جامع القلعة إلا بعد نهاية حملة المورة الفاشلة، وبعد مغادرة كوست لمصر مغادرة نهائية، وإن كانت في الأصل غير مخطط لها. ولكن يذكر كوست في مذكراته أن المشروع اتبع مخططه مع أنه كان بعيدًا في فرنسا. ويؤكد كلام كوست تقرير للقنصل الروسي في القاهرة عام ١٨٣١م يذكر فيه أن تجميع الرخام لجامع القلعة الذي صممه كوست قائم على قدم وساق. ولكن اسم كوست يختفي من الوثائق القنصلية والرسمية بعد ذلك، واعتبارًا من عام ١٨٣٣م تطالعنا تقارير من مسافرين زائرين للقلعة مثل الإنجليزي كوروزون، تتحدث عن الطراز البربري أو الطراز الأرمني. واعتبارًا من تلك السنة نجد أن أكثر المعلقين على جامع الباشا في القلعة الذي ما زال في طور البناء يعيبون عليه غرابته عن محيطه القاهري، وبشاعته، وعدم انتظام نسبه بالنسبة لجوامع إسطنبول العثمانية. وبعضهم يذكر معماريين مغمورين من عاصمة الخلافة، أرمن أو أتراك أو يونانيين أو حتى بوسنيين، على أنهم المسئولون عن عمارة هذا الجامع، ولكننا لا نملك وثيقة رسمية واحدة توضح لنا من هم حقًا هؤلاء المعماريون؟ وكيف تحول تصميم كوست المملوكي إلى الجامع القائم اليوم العثماني الكلاسيكي، ومن هو صاحب قرار التحول، وما دلالة هذا التحول؟

بادئ ذي بدء أخطأ كوست حين اقترح على الباشا أن يصمم جامعًا، على أن يتخذ طرازه الطراز المملوكي، في أعقاب مذبحة المماليك أعداء الباشا، ثم بنى قصوره على أنقاض قصور المماليك التي ردمها ودمر بعضها، فمما لا شك فيه أن الباشا ما كان ليرضى لنفسه أن يتبع أسلوب المماليك معماريًا بعد أن حطمهم سياسيًا وأفناهم فعليًا. ولكن اختياره لطراز الجوامع التقليدية الإسطنبولية يفصح عن جوانب مثيرة من شخصيته وطموحه وقوة عزمه وتصميمه وذوقه العثماني المحافظ خاصة إذا تذكرنا أن بناء الجامع توافق زمنيًا مع محاولة الباشا إقامة دولة إسلامية قوية على أنقاض الدولة العثمانية. ذلك المشروع الذي أشعل حربًا مع الباب العالي دامت عشر سنوات (١٨٣٠- ١٨٤١م)، وكادت أن تودي بكل طموحات محمد علي، عندما تدخلت الدول الكبرى لحماية رجل أوروبا المريض، وأجبرت محمد علي بعد معاهدة لندن على الاكتفاء بمصر. ولكن محمد علي لم يعتبر نفسه ثائرًا على الدولة العثمانية هادفًا لإزالتها من الوجود كدولة، بل مجددًا لها. فمشروعه كان قائمًا على فكرة أن الدولة منهكة ومهلهلة وأنها بحاجة لدفقة دم جديدة تعيد لها مجدها الغارب، وأنه هو من سيقدم هذه الدفقة عن طريق برنامجه التطويري الإصلاحي الذي بدأه في مصر في عشرينيات القرن التاسع عشر، والذي بلغ ذروة نشاطه في الثلاثينيات.

وقد اعتمد محمد علي على الأنظمة الأوروبية في الجيش والزراعة والري والتعليم والصناعة، بيد أن محمد علي وبطانته من أرناؤوط وشركس وأتراك وقليل من المصريين لم يتخلوا عن أساليب حياتهم وعاداتهم وأذواقهم ورؤاهم لصالح الجديد الأوروبي الذي استقدموه لانتشال البلاد من تخلفها، فهم على الرغم من قيادتهم للمشروعات التحديثية، تعسفًا وبالكرباج أحيانًا حافظوا على توجههم العثماني الطابع، والتقليدي الاتجاه وحتى الجامد التفكير في بعض الشئون الاجتماعية والشخصية. فمحمد علي الذي ترعرع في جو عثماني محافظ في قولة باليونان أظهر ميلاً واضحًا منذ استلامه الحكم في مصر لتثقيف نفسه ثقافة عثمانية أرستقراطية قوية. ويمكننا أن نلاحظ ذلك في مطبوعات مطبعة بولاق باللغة التركية. من هذا المنطلق نفسه، يمكننا أن نفهم لماذا اختار محمد علي والمحيطون به لجامعه طرازًا تقليديًّا إسطنبوليًّا، فبالنسبة لعقلية محمد علي ومحيطين به كانت تلك علامات السيادة والعظمة والأصالة التي فهموها وتذوقوها ورغبوا بالتمسك بأهدابها. وهي نفس الأسباب التي دفعت أحمد بن طولون إلى اختيار طراز مسجده الجامع تقليدًا لمسجد سامراء خاصة في الزخارف والمئذنة.

ولا شك كذلك في أن قرار محمد علي باشا بالعودة إلى الماضي العثماني في عمارة جامعه في نفس الفترة التي كانت فيها جيوشه تدك معاقل الحاضر العثماني، كان الهدف من هذا الاختيار هو إثبات الولاء لذلك الأمر العثماني العظيم، الذي كان محمد علي يحاول إحياءه فعلاً من خلال حكمه وشخصه وطموحه، والتأكيد على فك الارتباط مع الحاضر الضعيف، الذي كان يحاول الحلول محله. وهذا المعنى هو ما عبر عنه الجامع، بالإضافة لكل مشروعات محمد علي في القلعة من سرايات وثكنات ومستودعات من خلال ضخامة المعمار، وموقع البناء، وأسلوبه المرجعي المليء بالإشارات التي فهمها معاونو الباشا تمامًا، وإن كانت غامضة بالنسبة لعامة الناس، الذين لم يهتم الباشا برأيهم أصلاً، فجامع محمد علي إذًا ما هو إلا تكوين بلاغي تشكيلي صمم عن سابق إصرار لكي يحاكي الأسلوب الإسطنبولي المبكر في عمارة الجوامع السلطانية، ولكي يقتبس من مدلولاته مسوغات لتصرفات بالية خلال تلك الفترة المثيرة التي شهدت محاولة محمد علي إنشاء دولة جديدة. لقد كان محمد علي مدركًا ما يفعله بالضبط، فهو يريد دولة قوية ذات استقلال عن الدولة العثمانية أو دولة تقام على أنقاض هذه الدولة، لذا فليس من المستغرب أن يمنح محمد علي نفسه ألقابًا كانت لا تطلق إلا على السلاطين؛ مثل لقب خان، ولقب خديوي، ولقب عزيز. ويتبقى أنه ليس من المعقول أن يختار الباشا طرازًا لمسجد يماثل طراز مسجد الناصر محمد؛ مسجد القلعة الجامع. فلابد أن يكون الطراز مختلفًا؛ لكي يلفت انتباه الناس إليه.

جامع محمد علي بالقلعة – صحن الجامع

جامع السلطان أحمد بإسطنبول

نطاق باب العزب

حدث تحول هام في وظيفية هذا النطاق من القلعة؛ إذ تحول من مكان لإقامة جند طائفة العزب، إلى منطقة صناعية حديثة تعكس رغبة محمد علي في إقامة جيش قوي حديث كان محمد علي بدأ في عام ١٨٠٦م في تصنيع الأسلحة بالقلعة، وظلت هذه الصناعة تنمو؛ حيث شهدت في عام ١٨٢٠م تشييد مصنع جديد لصناعة وسبك المدافع والقنابل والسيوف والرماح وغير ذلك، وسمي (الطوبخانة) وعمل تحت إشراف أدهم بك قائد المدفعية. كان بهذا المصنع ٩٠٠ عامل ومعهم عدد من الأجانب للاستفادة من خبراتهم. تراوح إنتاج هذه الطوبخانة من المدافع ما بين ثلاثة وأربعة مدافع في الشهر. وكان يصنع بها كل شهر من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية على الطراز الفرنسي. شيد أيضًا بهذه المنطقة مصنع لألواح النحاس التي تبطن بها السفن، وكان ينتج في اليوم من سبعين إلى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاسات والسمك، ووضع هذا المصنع تحت إدارة توماس جالوي الإنجليزي.

جددت هذه المنطقة وشهدت توسعات في عام ١٨٢٠م. وما زالت أجزاء كبيرة باقية منها إلى اليوم، غير أننا لا نستطيع أن نحدد وظيفة كل المنشآت الباقية؛ نظرًا للتغييرات التي طرأت على وظائفها، خاصة في ظل سيطرة الجيش الإنجليزي عليها في الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٩٤٦م، ثم سيطرة الجيش المصري عليها من ١٩٤٦ إلى ١٩٨٤م. في هاتين الفترتين استغلت منشآت النطاق في وظائف متعددة استلزم بعضها تغيير معالم الأبنية من الداخل. تتكون حاليًا دار صناعة القلعة من عدة مبانٍ متجاورة عبارة عن أبنية مستطيلة غطيت أسقفها بأسطح متوازية فتح بها إما ملاقف أو مناور خشبية للإضاءة والتهوية أو مناور حجرية تستخدم كمداخن لإخراج الدخان الناتج عن عمليات التصنيع المختلفة.

يعد مصنع المدافع والمسبك الملحق به؛ هو المنشأة الوحيدة ذات المعالم الواضحة التي يمكن من خلالها تحديد وظيفتها.

وكان يعلو مدخل هذا المسبك لوحة رخامية يشير نصها الذي كتب بالتركية إلى تاريخ تشييد محمد علي له، وترجمته بالعربية:

شيد محمد علي باشا والي مصر الشهير
بناءً عاليًا هنا لصب المدافع
فنظمت أنا خيرت تاريخه الجوهري
صار هذا البناء المتين العالي طوبخانة

يقع هذا المصنع أسفل القصر الأبلق ويمتد إلى برج الرفرف. والمصنع غير منتظم الأضلاع، به فناء مكشوف مستطيل غُطي حديثًا بسقف جمالوني من ألواح الأسبستوس. ويقع مسبك المدافع في الناحية الغربية من الفناء. وقد قسم المسبك إلى ثلاثة أقسام غير متساوية؛ يؤدي كلٌ منها للآخر، يتصدر القسم الثالث منها جدار حجري يتوسطه فتحة معقودة بعقد نصف دائري كان يوضع فيها الوقود الذي يستخدم في صهر الحديد المستخدم في سبك المدافع. وهذه الفتحة مسدودة حاليًا، يعلوها مدخنة تستدق كلما ارتفعت لأعلى. وتخترق المدخنة قبة محمولة على أربعة عقود نصف دائرية يربط بينها عوارض خشبية تزيد من قوتها من الناحية الإنشائية.

يقع مصنع صهر المعادن إلى الشرق من مصنع سبك المدافع. ومن الواضح أن المبنى أحدثت به تجديدات في عصر الخديوي إسماعيل وفي فترة الاحتلال الإنجليزي. وواجهة المصنع تعود إلى عصر محمد علي، ويوجد بها مدخلان بارزان، بكلٍ منهما فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري. والمصنع من الداخل غير منتظم الأضلاع. وهو مقسم إلى أقسام بواسطة دعامات حجرية تحمل سقفًا من الخشب عبارة عن عروق يعلوها ألواح خشبية، يتوسط هذا السقف مناور وملاقف للهواء. ومازالت باقية في أرضية المصنع مجارٍ كان يصب بها الحديد المصهور.



خلفاء محمد علي والقلعة

بدأ محمد علي في اتخاذ القصور كمقار لإقامته وإدارة دفة الأمور في مصر بالإضافة إلى القلعة. وصار هذا الأمر في تزايد مستمر في عهد خلفائه، إلا أن القلعة كان لها سطوتها عليهم، إلى أن نقل إسماعيل إدارة الحكم منها نهائيًا إلى قصر عابدين. وبالرغم من ذلك، فقد شهدت القلعة بعض الاهتمام في عهد خلفائه لأهميتها الاستراتيجية. ونرى في القلعة العديد من ثكنات الجند؛ مثل القشلة الكبيرة التي أجريت بها العديد من الإصلاحات في عهد سعيد باشا. وعندما تولى الخديوي إسماعيل الحكم، وجَّه عنايته لبناء قشلاقات جديدة بالقلعة، فبنى أربع قشلاقات لإقامة الفرق العسكرية المختلفة. وهذه القشلاقات كانت تقع في النطاق الشمالي من القلعة. ويكشف أمر أصدره الخديوي إسماعيل للواء علي سري باشا ليتولى مأمورية محافظة القلعة عن القوة المتواجدة بالقلعة في عصره، والتي كانت تتكون من لواءين للمشاة ألحق بهما ثالث. وهي لا شك قوة كبيرة لها أهميتها.

رم سعيد باشا أسوار القلعة؛ حيث قام ديوان الأشغال بتكليف علي حمدي المقاول لترميم الأجزاء المتهدمة من الأسوار خلال أربعين يومًا، وكلف الديوان أحد مهندسيه للإشراف على أعمال الترميم. كما قام الخديوي إسماعيل بترميم أسوار القلعة، خاصة الجزء الذي يتقدم نطاق باب العزب. فقد وردت إلى الخديوي إسماعيل إفادة عن نتيجة التفتيش على متانة أسوار القلعة، فوجد أن السور بجهة ميدان الرميلة بالجهة البحرية من باب العزب، كذلك السور بجهة ديوان الخديوي المطل على قرة ميدان مهدمان، ويمكن لأي شخص المرور خلالهما، وأمر الخديوي إسماعيل بتوفير الاعتمادات المالية الكافية لترميمهما. استغرق العمل في إعادة بناء وترميم أسوار القلعة ست سنوات؛ حيث يشير إلى ذلك نص تذكاري وضع بداخل سور القلعة بالقرب من باب العزب يعود إلى عصر الخديوي إسماعيل نصه :

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بإنشاء وتجديد هذا السور المبارك خديو مصر حالاً إسماعيل ابن الحاج

إبراهيم ابن الحاج محمد علي في تاريخ شهر رجب سنة خمسة وثمانين ومايتين وألف

وقام إسماعيل بتحويل جبخانة القلعة إلى دفترخانة لحفظ أوراق ودفاتر المديريات سواء في الوجه القبلي أو البحري؛ لأن دفترخاناتهم قد ألغيت ونقلت أوراقها إلى الدفترخانة المصرية.

أمر الخديوي إسماعيل علي باشا مبارك أن يعد تخطيطًا لميداني القلعة (الروم إيلي) الرميلة، و(قرة ميدان) المنشية. ونشرت الوقائع المصرية هذا الحادث في العام ١٨٦٨م. حيث ذكرت أنه: «كان ميدانا الروم إيلي وقرة ميدان الفسيحان مشحونين بالتراب وخاليين من العمران، ولذا فإن أوباش الناس يجتمعون فيهما مثل السحرة والمشعوذين، وكان هذا عملاً لا يليق لاسيما وأن الميدان يقع في سفح القلعة، ولذا فمنذ عام ١٨٦٧م بدأت أعمال التنظيف لهذين الميدانين وإزالة السور بينهما، وجعله ميدانًا واحدًا. كما هدمت جميع المباني التي أنشئت على غير القواعد الهندسية التي كانت تحجب السلطان حسن، وغرست الأشجار في جميع طرقات الميدان، وكذلك كثير من الزهور والرياحين. وقد تقرر أن يوضع في هذا الميدان تمثال من البرونز لمحمد علي راكبًا حصانه. وصُمِّم الميدان على أن تكون الجهة الجنوبية منه متنزهًا مما يساعد على عمران المناطق المجاورة لهذا الميدان، والتي كانت خربة». ولم يوضع تمثال محمد علي بهذا الميدان، بل وضع في ميدان المنشية بالإسكندرية. وقد شاب تخطيط هذا الميدان عيب فني؛ حيث إن الجزء المستدير تجاه باب العزب عند حوض المياه تتبع الميدان في انحداره، وبذلك يكون حوض المياه على ارتفاع ٦٠ سم من ناحية ومترين من ناحية أخرى. واكتسب هذا الميدان اسمًا جديدًا هو ميدان محمد علي، وارتبط بشق شارع محمد علي منه إلى ميدان العتبة، وكذلك بإصلاح أسوار القلعة تجاه الميدان. وهو ما يجعل من أعمال إسماعيل بهذه المنطقة مشروعًا عمرانيًا متكاملاً.

باب العزب





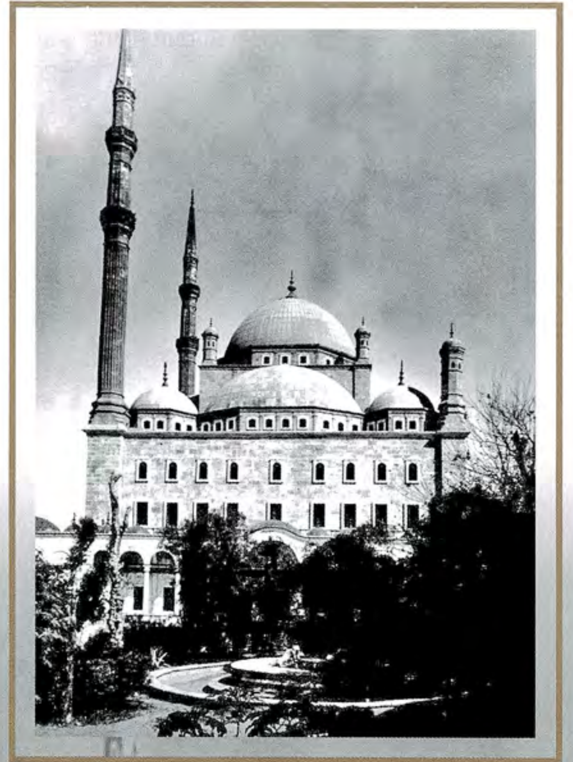
من الألبومات الخاصة بمكتبة الملك فاروق - نسخة مكتبة الإسكندرية



بسملة من كتابات المسجد

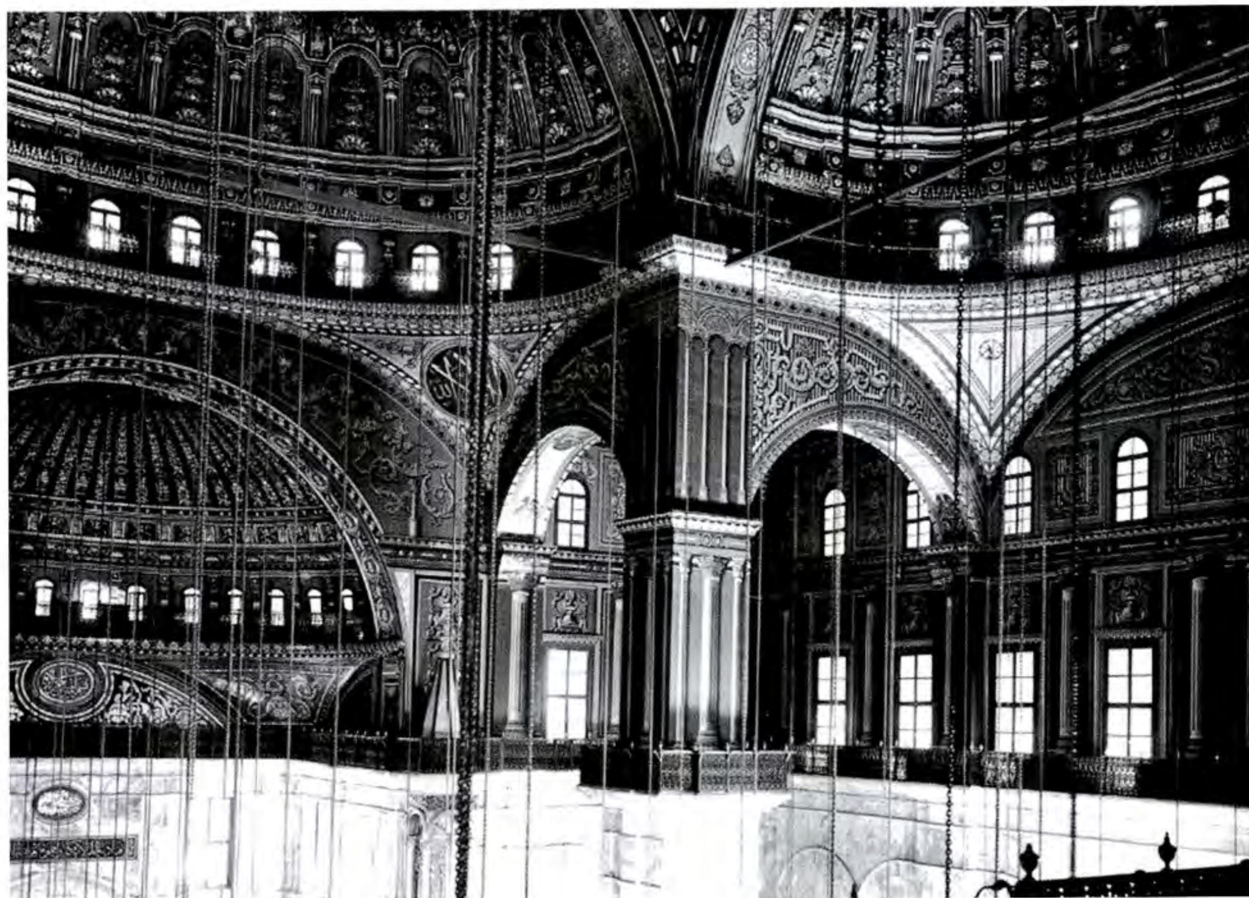
منظر عام للقلعة والمسجد





الوجهة القبلية للمسجد

منظر خارجي للمسجد



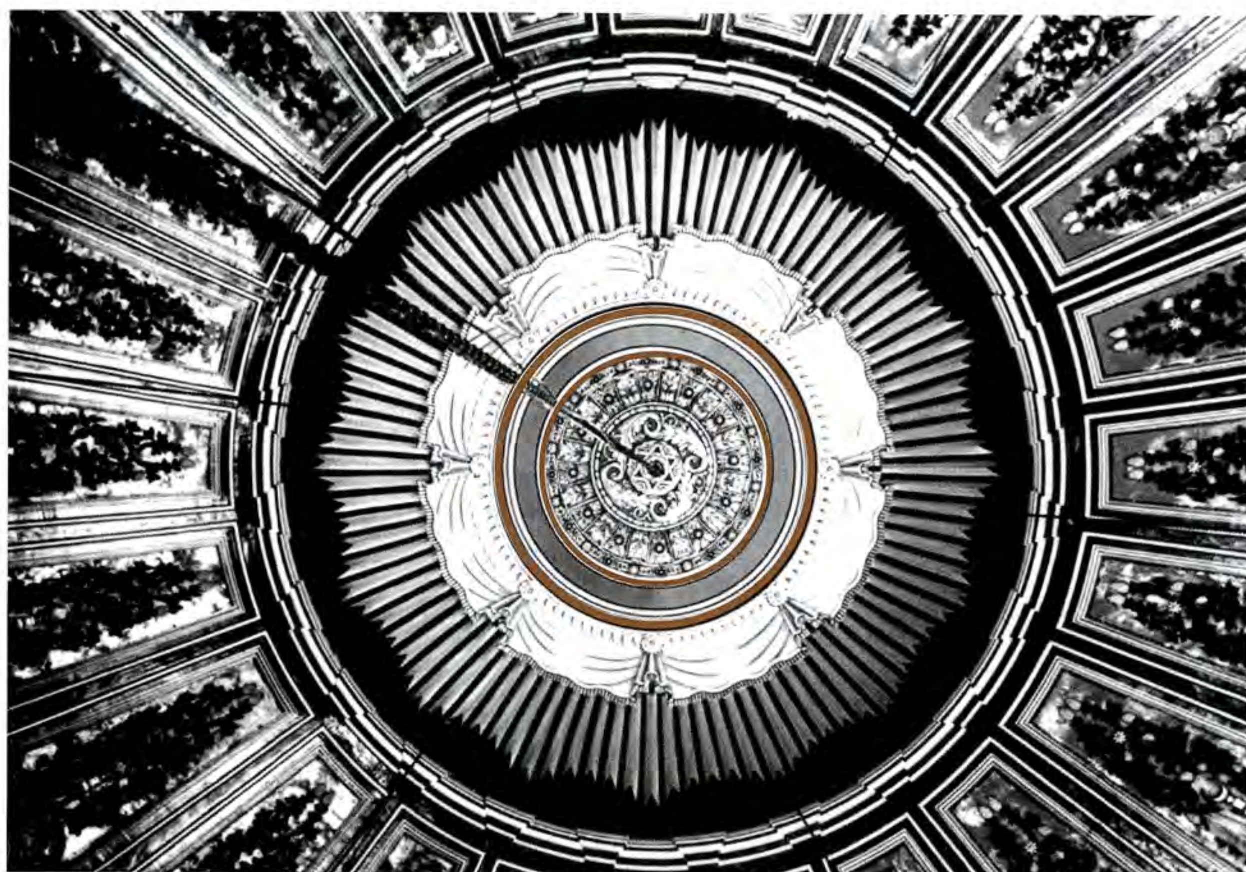
الركن الشرقي القبلي للمسجد



منظر عام للمسجد من الداخل



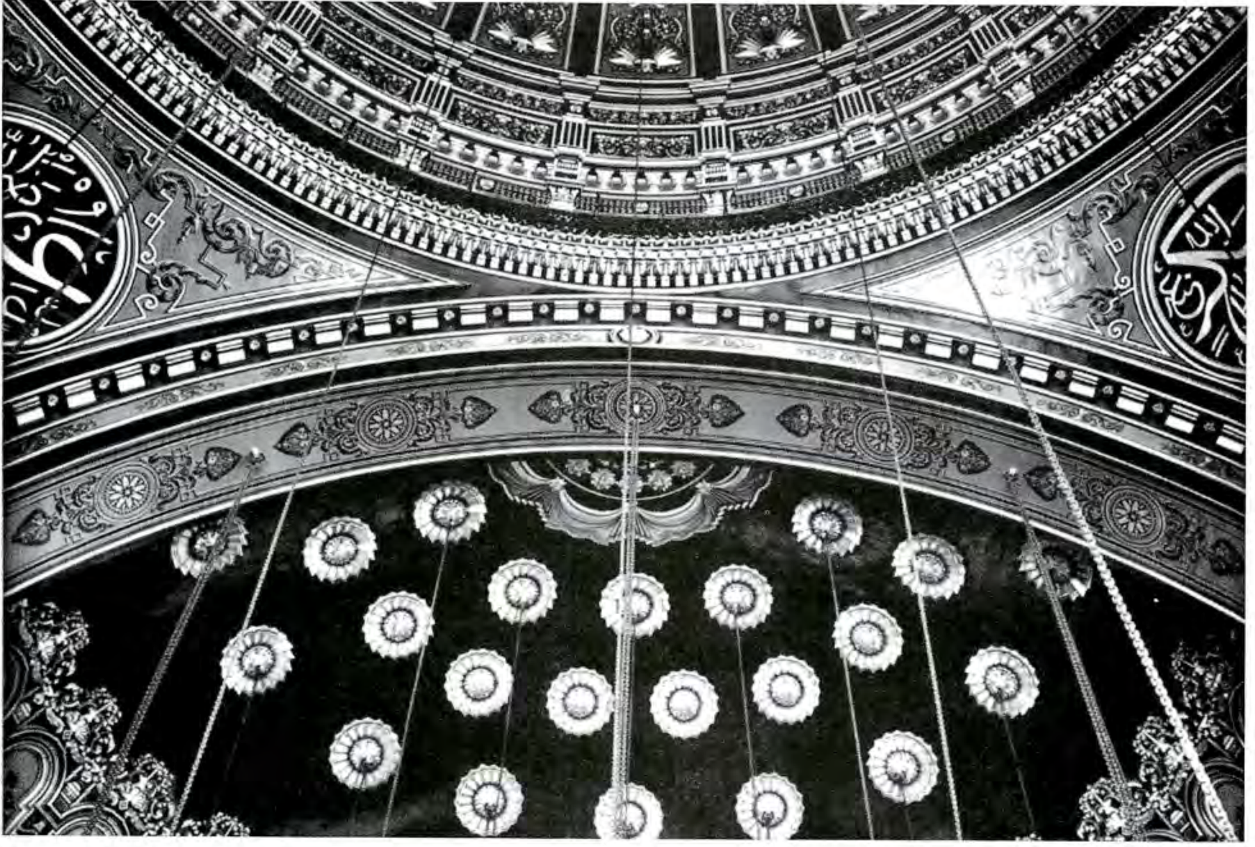
تفاصيل من زخرفة القبة الكبيرة وأنصاف القباب بالركن الشرقي البحري



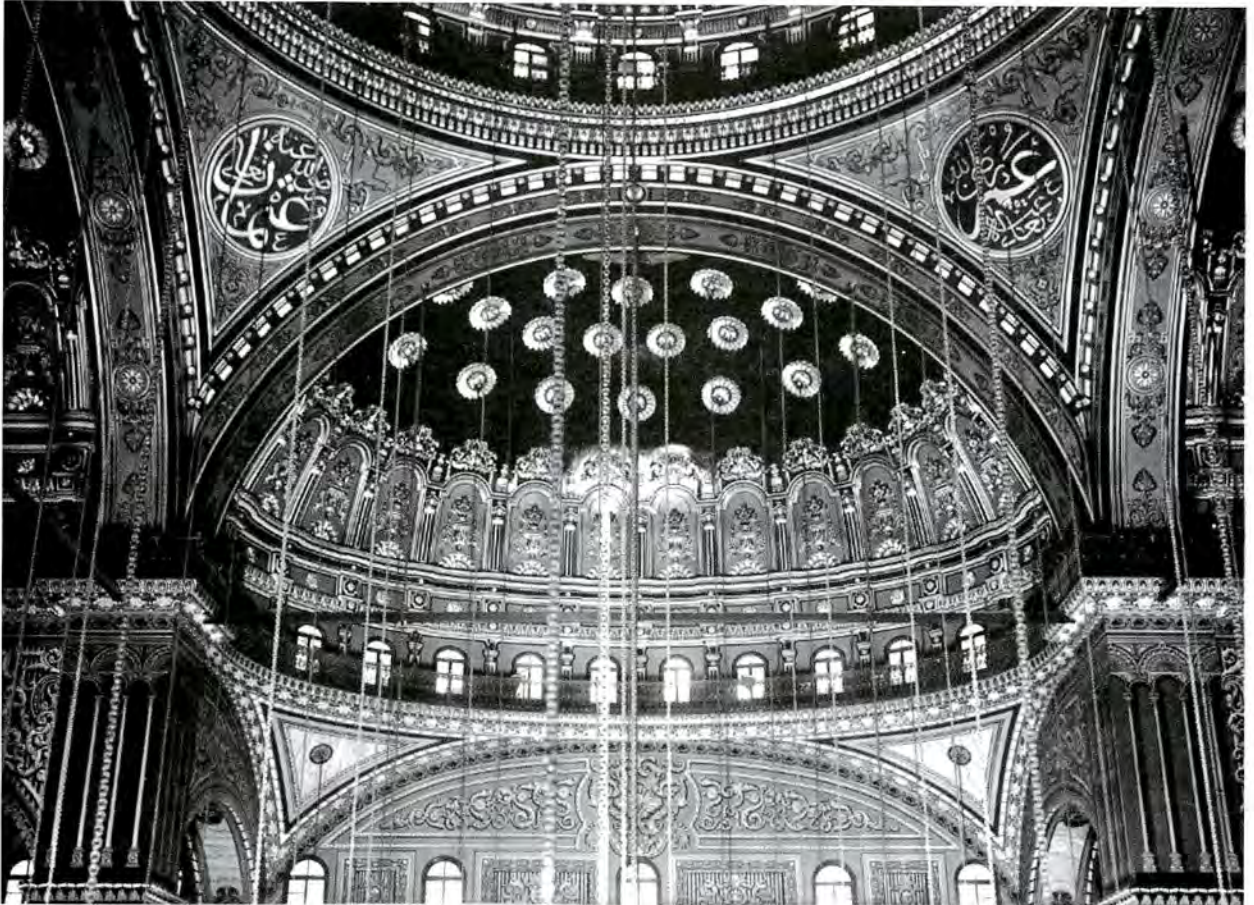
قطب القبة الكبيرة



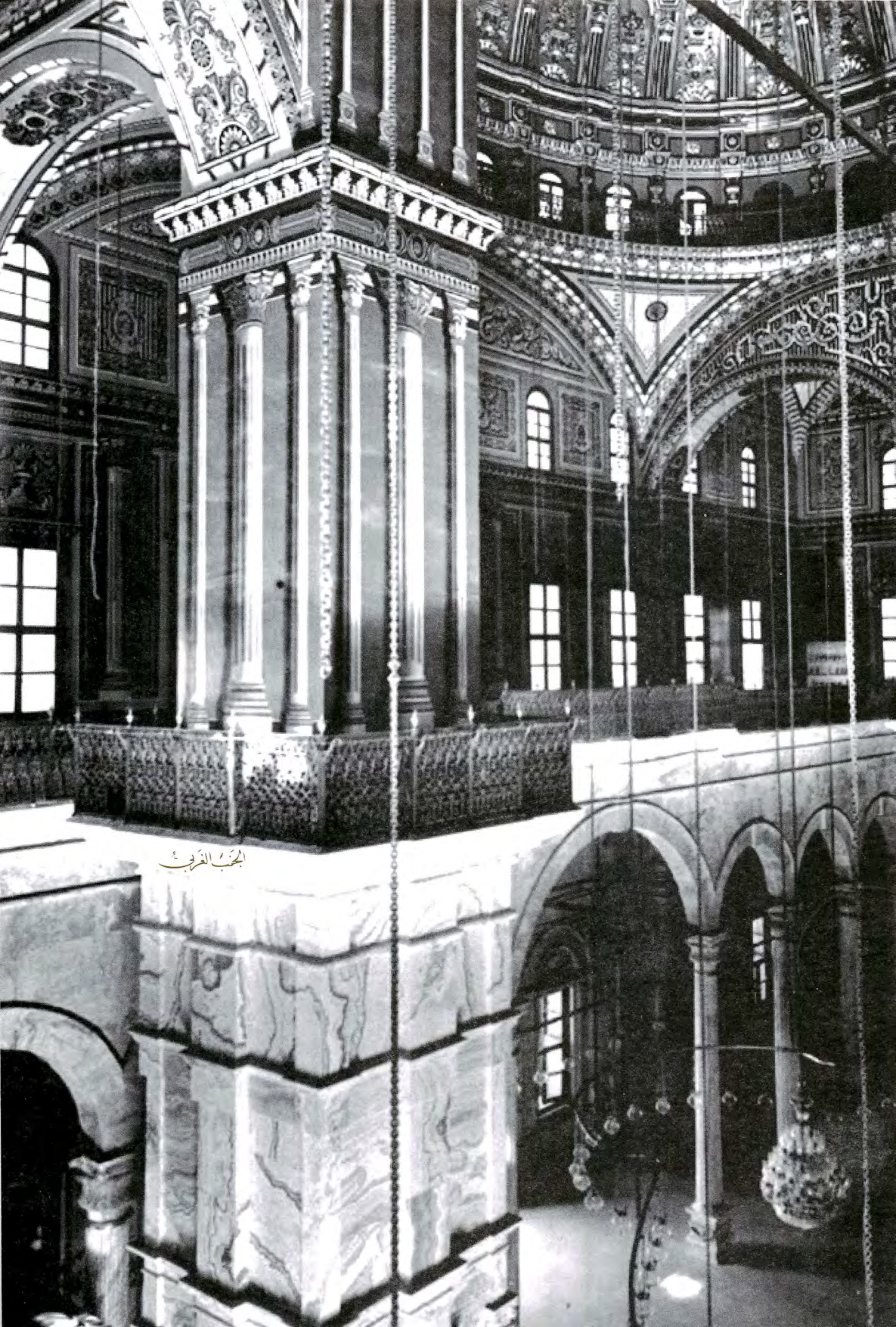
أحَدُ أركَانِ القبةِ الكَبيرةِ



تفاصيل من زخارف القبة والعقد الكبير



الجنب البحري



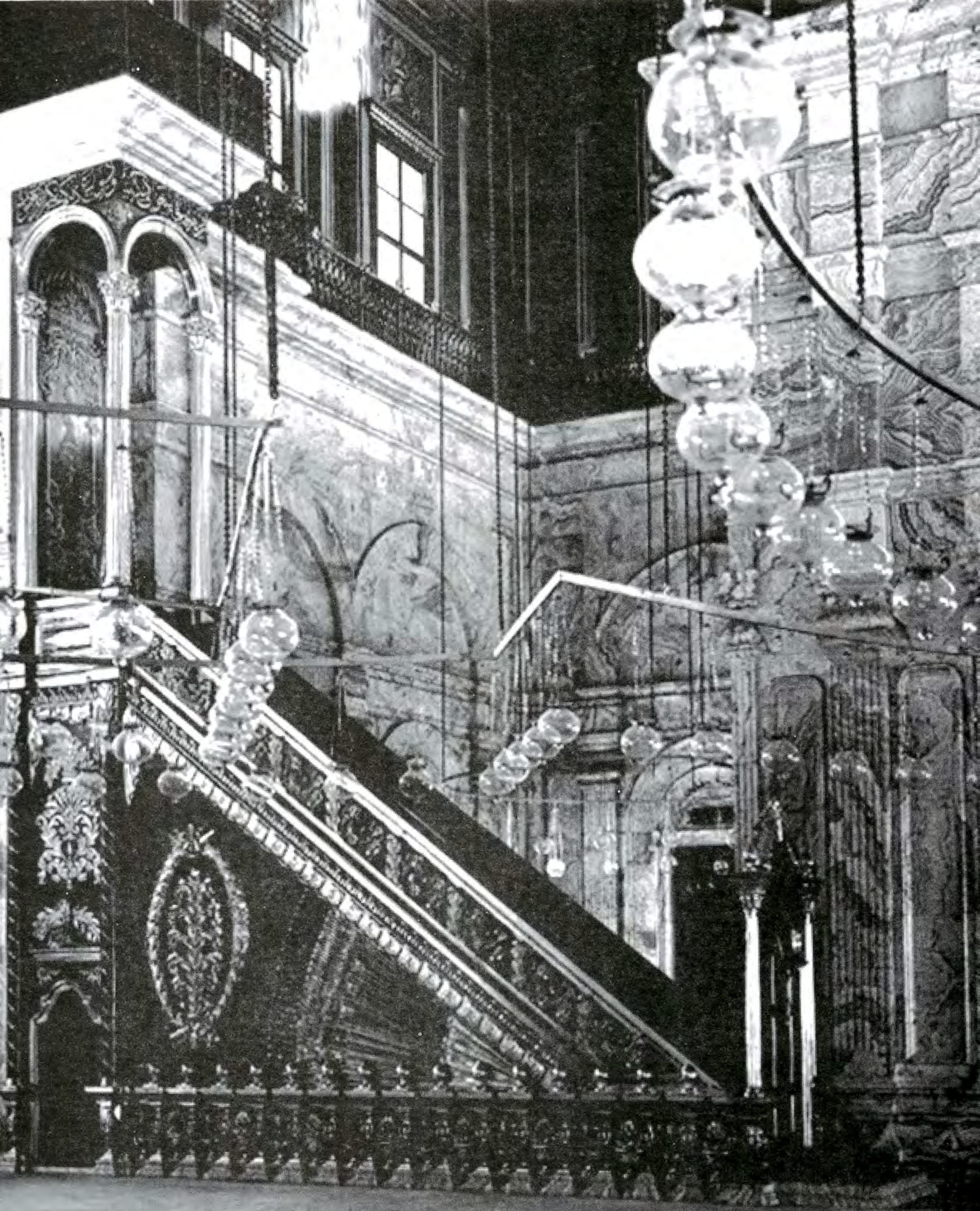
الجَنبُ الغربيُ



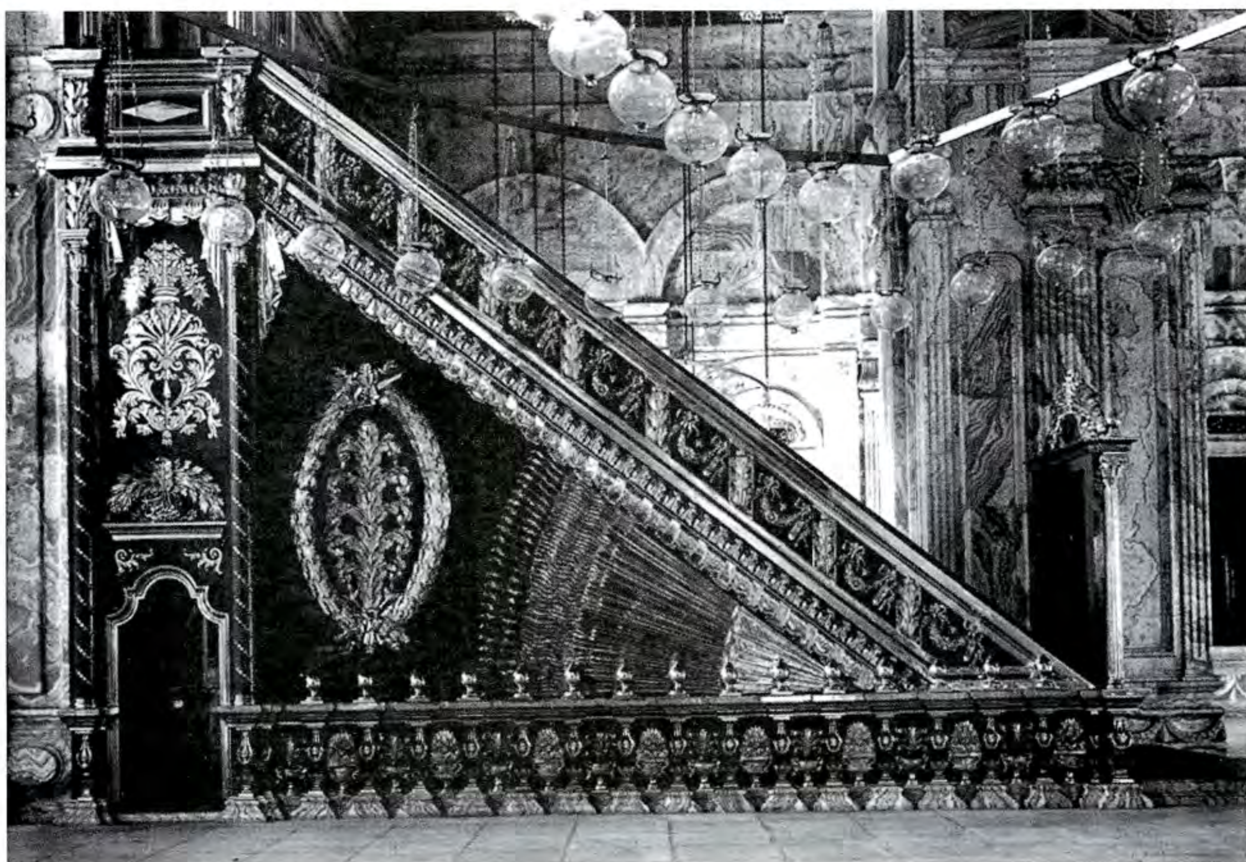
تفاصيل من زخارف نصف القبة أعلى المحراب



تفاصيل من زخارف القبة الكبيرة



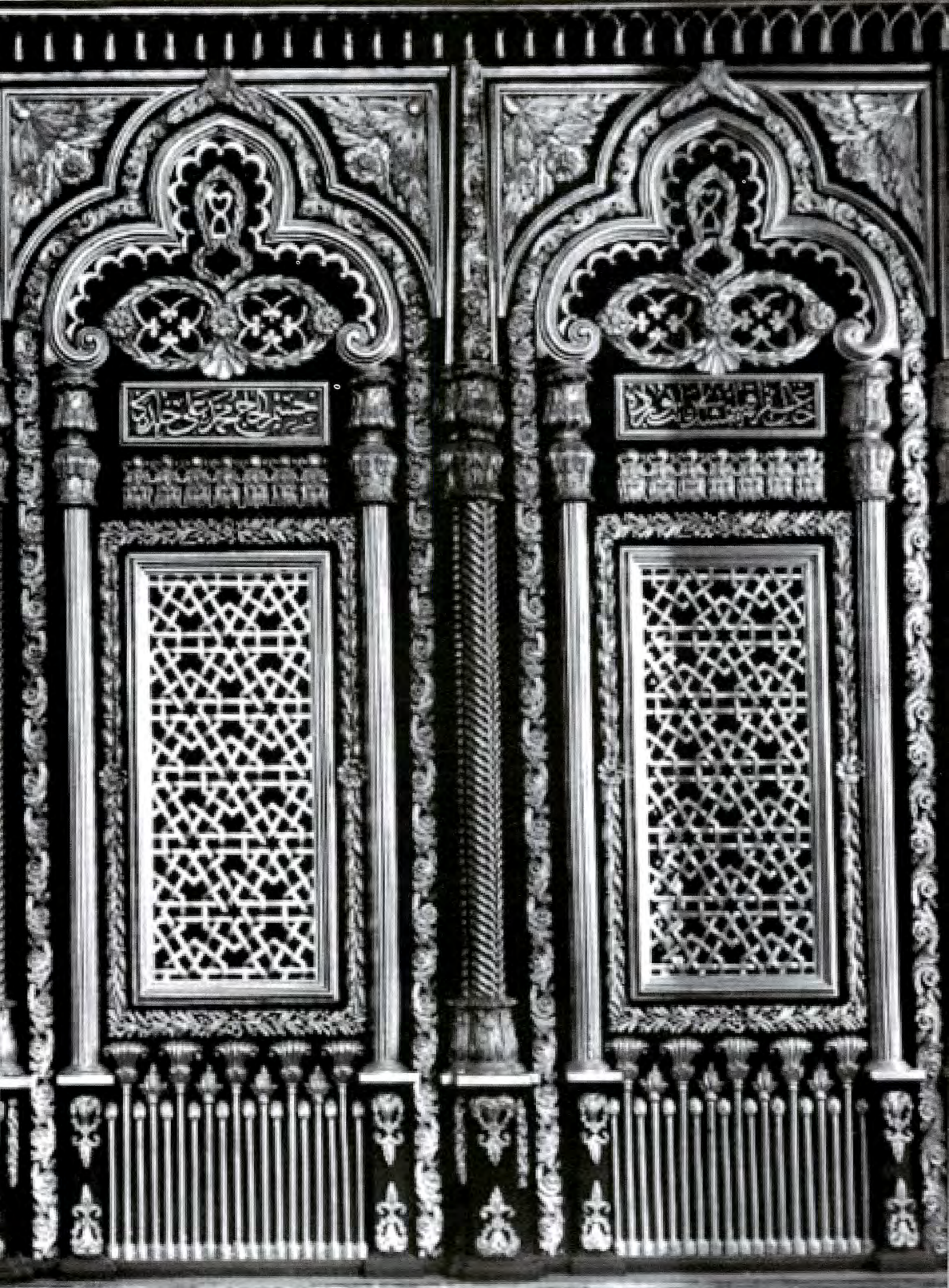
المنبر

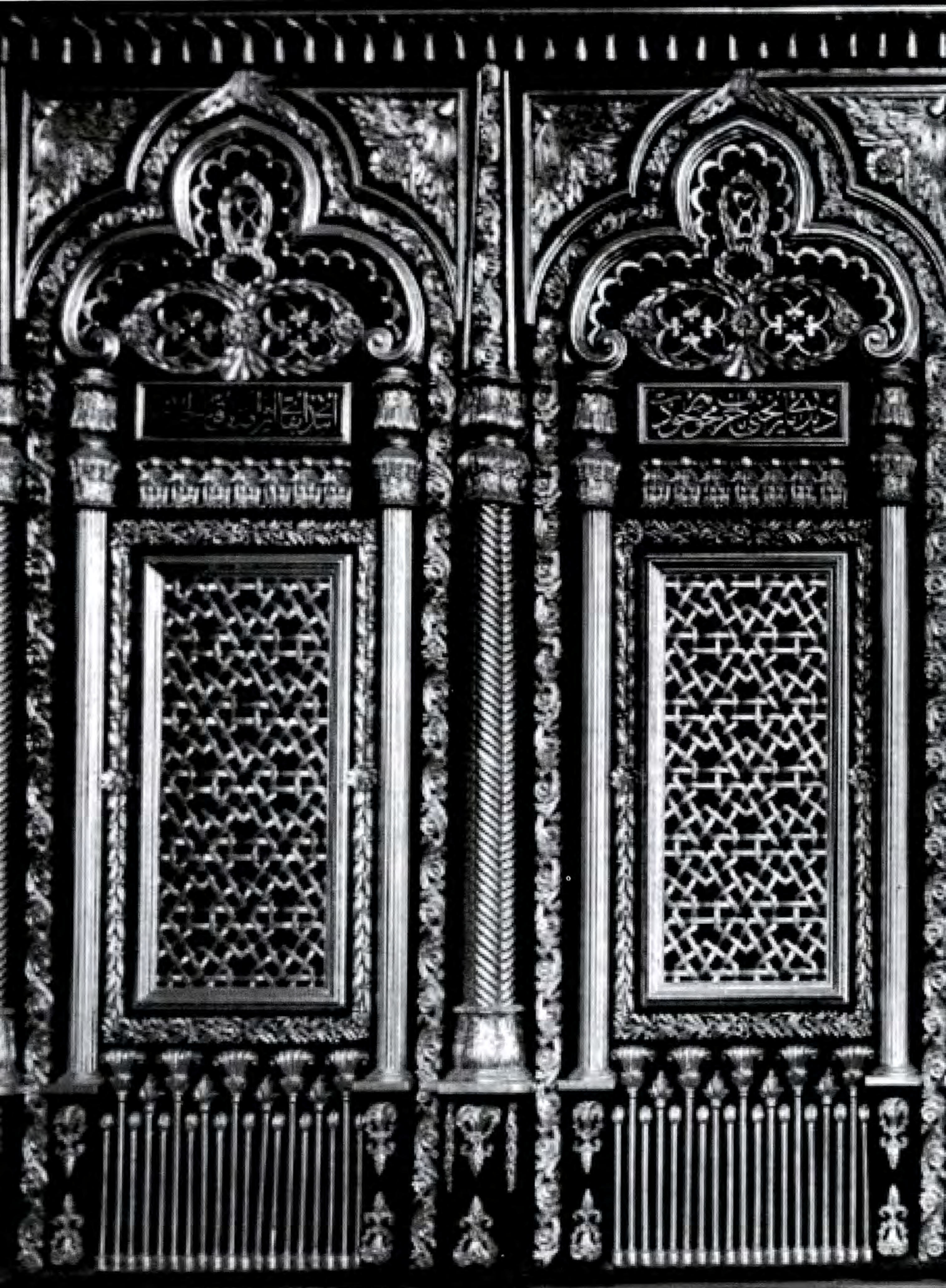


جانب المنبر



كرسي السورة





المقـصورة النحاس





صحن المسجد وبه الفسقية وبرج الساعة

تفاصيل من زخرف الفسقية



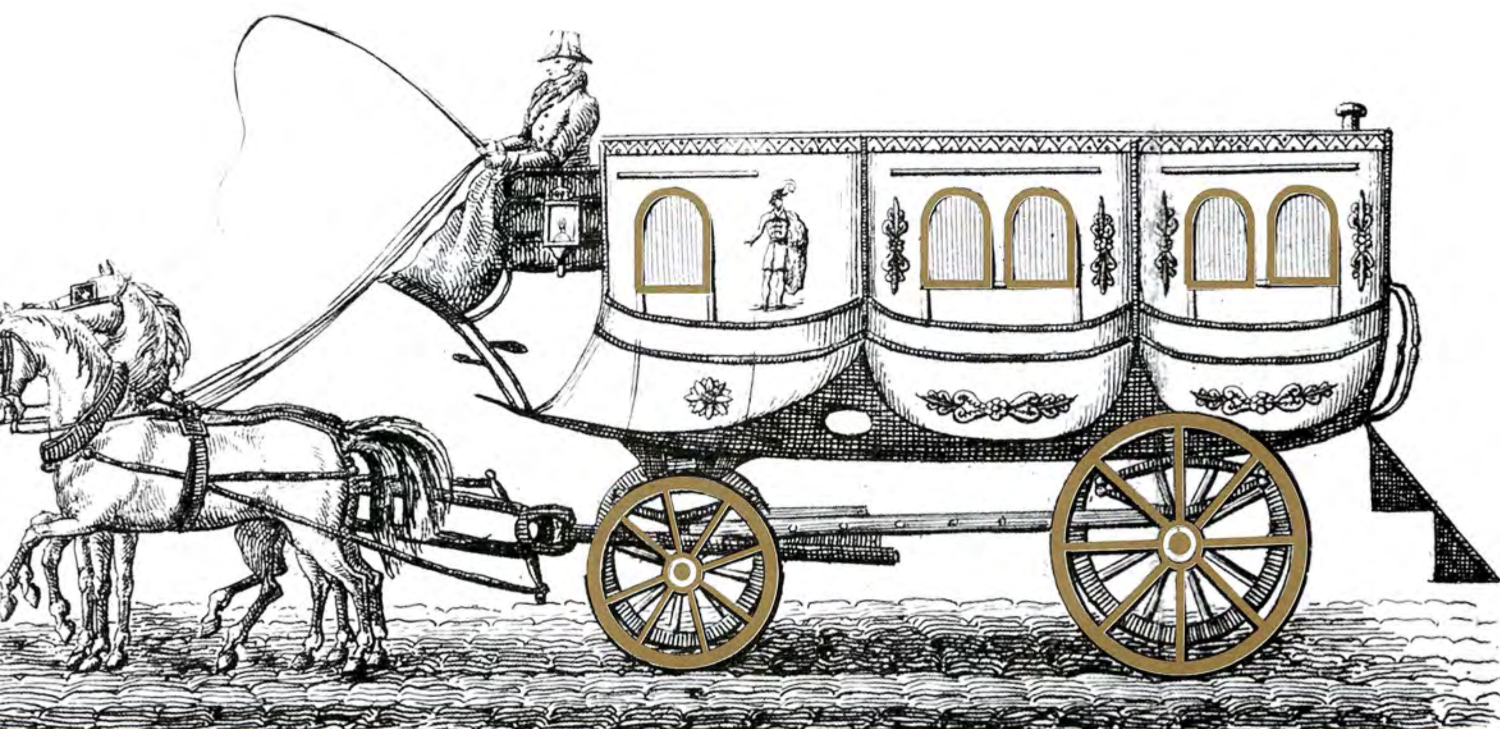
سقف قبة الفسقية بالصحن



برج الساعة

عربات الخيول في مصر

جاستون فيت
ترجمة: نادية الوكيل



يعلم الكل مقولة أمبير Ampère الشهيرة: «بونابرت Bonaparte هو أول من تجول في شوارع القاهرة بعربة يجرها ستة جياد. وإن كان قد قام على مدى حياته بأعمال أكثر عظمة، فقليلٌ منها كان أكثر صعوبة».

ويجب أن نذكر كذلك إدخال النقالة أثناء الاحتلال الفرنسي التي بهرت الجبرتي، وعبر عنها بقوله: «بدلاً من الأقفاص والشوالي، كان يتم استخدام نقالات صغيرة بذراعين يملؤها العمال بالطين ويدفعونها على عجلات».

كما لا يجب أن ننسى الواقعة الطريفة الخاصة «بالكاروسة» (Carrosse) – وهي عربة فاخرة يجرها أربعة جياد – التي تم طلبها من فرنسا لحساب محمد بك أبو الدهب عام ١٧٧٤. كان الطلب ينص على عربة ذات أربعة مقاعد مذهبة يكسوها قماش مشجر برسومات وورود وفواكه بدون أي صور آدمية. وقد تم تخصيص مبلغ ٤٠٠٠ جنيه لا غير لشراء هذه العربة، على أنه في حالة عدم كفايته لاقتناء عربة جديدة، فيجب محاولة الحصول على عربة مستعملة يتم تصليحها بعناية ودهانها وفقًا لهذه المتطلبات؛ ذلك مع عدم إغفال إرسال جميع المطاول والألجمة وبصفة عامة جميع مستلزمات الكدن».

وقد نجحت الغرفة التجارية بمرسيليا في اقتناء «عربة جميلة جدًا على غرار تلك التي تصنع حاليًا بفرنسا على أحدث طراز»، ولكنها كانت قد تأخرت بعض الشيء؛ فعندما وصلت العربة إلى الإسكندرية في ١٨ يونية ١٧٧٥م، كان محمد أبو الدهب قد فارق الحياة منذ عشرين يومًا. وتمكن قنصل فرنسا مور Mure من بيعها إلى موظف جمارك الإسكندرية الذي قام بإهدائها إلى إبراهيم بك. ولكننا لا نعرف إذا كان قد تم استخدام تلك العربة أو لا.

وفي عام ١٨١١م عندما عاد الكولونيل الإنجليزي ميسيت Misset، بعد أن أصبح كسيحًا، لاستلام مهامه من جديد كقنصل، كتب عنه قنصلنا بالإسكندرية: «كان لا يستطيع أن يتنقل إلا على مقعد متحرك، ولكن ذلك لم يمنعه بفضل عربته – من دخول المدينة في موكب مهيب؛ وقد أحاط نفسه بخمسمائة جندي من الفرق الألبانية».

ونحن نعرف أن محمد علي قد سافر إلى السويس عام ١٨١٧م بعربته، ولكن تلك كانت رحلة طويلة؛ وليست نزهة بالمدينة.

وبعد ذلك بثلاث سنوات، روت لنا البارونة مينوتولي Minutoli ما يلي: «لا يعرف بمصر استعمال العربات؛ فالتنقلات كلها تتم إما عن طريق النهر وإما بواسطة القوافل. ولذلك فالعربة تعد هنا ظاهرة حقيقية، قد يكون وجودها أصلاً غير ذي فائدة؛ حيث لا توجد طرق ممهدة. والعربة الوحيدة الموجودة بالمدينة هي عربة الباشا التي أحضرها من مرسيليا من باب الفضول. وهو لا يستطيع استخدامها إلا للذهاب من القاهرة إلى قصره الريفي بشبرا؛ حيث قام بمد طريق ممهد يسمح لحريمه من وقت إلى آخر بالقيام بالتنزه عليه بالعربة. وحيث إن ذلك قلما يحدث، فإن تلك النزهة تعد حدثًا بالقاهرة يجذب كثيرًا من الفضوليين.

وقد سمح السيد نوزيتي Nozetti لنفسه – اعتقادًا منه أن في ذلك إرضاء لي – بأن يطلب هذه العربة من الباشا؛ فوجدت نفسي برفقة زوجته ووالدتها، والاثنتان من أصل شرق متوسطي؛ منطلقة على طريق شبرا في عربة تجرها ستة جياد ويقودها حوذي عربي متهور. ولم يكن الخروج من أبواب المدينة بالأمر الهين؛ فالشوارع الضيقة والحشود المتجمهرة التي جذبها هذا المشهد وصياحها والأفراس المنطلقة والخوف من دهس أحد – والذي لم يكن يمنع الحوذي من الانطلاق بأقصى سرعة – كل ذلك جعلني أشعر بخوف من الصعب وصفه، في حين كانت رفيقتاي، اللتان كانت تلك المتعة جديدة بالنسبة لهما – مستغرقتين في الضحك، وقد بدا واضحًا جهلهما التام بمدى خطورة الموقف. ووصلنا بالرغم من ذلك إلى شبرا بدون حوادث. ولكن عندما حان موعد الرجوع فضلت تركهما تستقلان وحدهما العربة، وآثرت الرجوع إلى القاهرة بطريقة أقل بريقًا، ولكن أكثر سلامة؛ وهي أن أمتطي جوادًا وأسير جنبًا إلى جنب مع عربة النصر هذه».

كتب الوزير الفرنسي للشئون الخارجية لدروفيتي Drovetti في ٩ مارس ١٨٢٤م – «سيدي، لقد تم تكليف السيد مانجان Mengin الذي سبق أن حدثتكم عنه، والذي سيحضر إلى القاهرة ليحل مؤقتًا محل السيد تيدينا Thédénat بتسليمكم «لاندو» Landau – عربة بأربعة دواليب – وأطقم لأربعة جياد تم تصنيعها بباريس؛ وهي مهداة لمحمد علي من حكومة الملك لتقديمها باسمه للباشا».

ولم يكن هذا الوزير غير شاتوبريان Chateaubriand الذي كان قد حضر إلى مصر منذ ست عشرة سنة مضت. وقد تباهى بذلك في خطاب مرسل مباشرة إلى الوالي يقول فيه: «إنه لمن أجل البرهنة لفخامتكم عن الرضا الذي يشعر به جلالة الملك تجاهه، أمرني بإرسال عربة وأطقم خيل سوف يقوم السيد دروفيتي Drovetti؛ قنصل فرنسا العام بمصر بتقديمها باسمه لفخامتكم».



أرسل مانجان Mengin للوزير في ١٦ مايو تقريرًا يقول فيه: «في اليوم التالي لوصولنا تم إنزال العربة من الباخرة ونزع التغليف من عليها ثم رفعت على عجلات؛ وبدت كأنها لم تتأثر قط من طول الرحلة، بل كانت محتفظة بكامل رونقها. وقد وجدها صاحب السمو غاية في الجمال، وقال بعظمة: إن هذه الهدية تليق بالملوك».

وكتب نيزولي Nizzoli «لا توجد في القاهرة أو في الإسكندرية عربات سوى عربة واحدة فقط يملكها الباشا. وهو يستخدمها للذهاب إلى شبرا وفي بعض الأحيان تستعملها زوجته. وهذه العربة التي يجرها ستة جياد تم صنعها بمرسيليا Marseille. وهناك أيضًا عربة أخرى تم إحضارها من فيينا Vienne، مذهبة وعلى قدر من الجمال يمتلكها إبراهيم باشا، ولكنه لا يكاد يستعملها، بل يتركها مهملة في العربخانة، بالرغم من كل تلك الحلي الذهبية التي تكسوها. وقد تم دفع خمسة عشر فلورينًا لاقتنائها».

«عندما يخرج الباشا بعربته، يبهر عامة الشعب من السرعة التي تسير بها، خاصة أن الحوذي يطلق العنان لخيوله؛ وهو يشق طريقه بين الحشود. ومن أجل تفادي أن تدهسهم العربة يهرول الأهالي وقد راح يصدم بعضهم بعضًا في محاولة للاحتماء في المحلات المجاورة أو بأي مخبأ يصادفونه، لدرجة أن الأمر يبدو وكأن هناك مظاهرة. وعمومًا فإنه بالحالة الراهنة للطرق بالقاهرة بشوارعها الضيقة والمتعرجة، هناك استحالة لاستخدام العربات».

ويقول ريفو Rifaud: «لا تدخل العربات البرجوازية ضمن رفاهية المصريين؛ الباشا وحده هو الذي يمتلك عربتين أو ثلاثًا، وذلك منذ زمن ليس ببعيد».

أما رنوار دى بوسيير Renouard de Bussière فإنه يكتب «إن الشوارع ضيقة لدرجة استحالة سير العربات بها. الباشا وحده هو الذي يمتلك عربة، وقد أمر بتمهيد الشوارع التي يكون مضطرًا لسلكها للذهاب إلى ضيعته».

وقد رأى ميشو Michaud بمدينة فُوَّة مهندسًا تركيًا «يركب عربة رائعة يجرها جوادان من الجياد العربية». ويضيف: «كثيرًا ما يتنزه إبراهيم باشا بالإسكندرية وهو يركب «تيلبيري» (Tilbury) – عربة خفيفة ذات عجلتين – وهو ما يعده الأهالي أمرًا غريبًا. وبما أنه لا يوجد بالمدينة سوى شارع فرنسا؛ حيث تستطيع أن تسير عربة «كابريلة» – عربة بعجلتين وسطح قابل للطي – فإنني أنعم برؤية صاحب السمو وهو يمر يوميًا أمام منزلي، وقد انطلقت عربته بسرعة الريح لدرجة تجعلني أخشى أن يدهس أحدًا تحت عجلاتها».

ويروي كلٌّ من كادالفان Cadalvène وبروفوري Breuvery: «عند عودتنا إلى القاهرة قابلنا موكب الباشا وهو في طريقه إلى شبرا. كان يفتتح الموكب ستة من القواسين يمتطون الجمال، يليهم الوالي في عربة تجرها أربعة جياد، وتتبعها خيول ركوب ترتدي لباسًا مزركشًا يمسك بلجامها سياس يقودونها وهم يركضون بجوارها. ويختتم هذا الموكب المهيب عدد آخر من القواسين على ظهر الجمال وفريق من سلاح الفروسية».

أما البارون دي بوالوكونت De Boislecomte فهو يقص علينا تلك الواقعة التي من المرجح أن تكون مجرد مزحة: «عندما قام القنصل العام باستقبالي عند وصولي إلى البر، وجدت هناك عربة من عربات الوالي يجرها أربعة جياد. ومن صدف الأقدار العجيبة أن هذه العربة كانت هي ذاتها التي استخدمها نابليون Napoléon في كثير من المناسبات وما زالت تحمل شعار الإمبراطورية».

في حين يحكي ديستورميل D'Estourmel الواقعة نفسها بطريقة مختلفة: «عندما وصل البارون دي بوالوكونت De Boislecomte طلب العربة؛ تلك العربة التي تكاد تكون الوحيدة من نوعها في الشرق، كما سبق أن ذكرت، والتي كان محمد علي أمر بشق طريق كبير خصيصًا من أجلها. إلا أنه تم الاعتذار لعدم قبول طلبه؛ بحجة أن هذه العربة لم يتم إعارتها إلا للمبعوث الروسي؛ مما دعا ممثلنا إلى الرد عليهم بأن ذلك على وجه التحديد هو ما دفعه إلى طلبها. وهنا أترككم تخمنون ما الحجة التي تحجج بها الديوان المصري؛ وهي حجة مقنعة بدون شك ولكنها غير كافية في عالم الدبلوماسية؛ ألا وهي التحجج بسقوط الأمطار يوم قدوم السيد دي مورافييف M. de Mouravieff، في حين إنه من المتوقع أن يكون الطقس جميلاً يوم وصول السيد دي بوالوكونت M. de Boislecomte. ولست أدري إن كان الأخير قد أقحم الباروميتر في رده، ولكنه ظفر بالعربة في النهاية، ودخل في موكب مهيب كفيل بإثارة غيرة الكثيرين».

ويروي أيضًا: «يمتد طريق جميل تحفه من الجانبين أشجار التين المصري وأشجار السنط من شبرا؛ حيث قصر الباشا الريفي إلى القاهرة. وبينما كنا نتأمل ببهر ذلك الطريق المستقيم، فوجئنا بمشهد غير متوقع؛ كانت هناك عربة يجرها أربعة جياد يوجهها حوذي بسرعة مذهلة نحونا. كان هذا الحوذي يرتدي الزيَّ التركيَّ، ويلبس نظارة ذات زجاج محدب، ويمسك بيده سوطًا كبيرًا لا يستعمله. وكان جميع المارة يتوقفون في ذهول أمام عربة الباشا التي كانت تبدو لهم أكثر إثارة للدهشة من الأهرامات».



وقد أتيحت الفرصة لـ هوج Hogg أن يشهد مرور عربة حريم الباشا، فجاء في وصفه: «قابلت ركبًا غريبًا وهو يمر من أحد الأبواب. كان يتكون بداية من عربة كبيرة تغطي نوافذها ستائر تحجب الرؤية لمن يوجد بداخلها. كان يتقدمها ويسير بجانبها فريق من الضباط بعضهم مترجل وبعضهم الآخر على ظهر الخيول، ثم يأتي بعد ذلك حشد من النساء يمتطين حميرًا أو بغالاً؛ وقد تدثرن بملابس فضفاضة داكنة اللون، وغطين وجوههن بطرحات بيضاء طويلة. كما كان هناك لفيف من الخدم يجر بعضهم دوابهم وبعضهم الأخر على ظهور الخيول؛ وكان هؤلاء يرتدون ملابس فاتحة اللون، وكانت أغلبيتهم إن لم يكن جميعهم من العبيد السود».

أما جيرامب Géramb فعبر عن انزعاجه بقوله: «لم أكن أستطيع تقبل فكرة عدم وجود أي طريقة لأن تكون لي عربة تحت تصرفي في مدينة بهذا الحجم مثل مدينة الإسكندرية. وقطعًا لم يكن من الهين على شخص أوروبي – وفي عمري بالأخص – ألا يستطيع الحصول إذا احتاج لذلك على «كاروسة» أو «كابريوليه» أو ما شابه ذلك».

وروى سكينر Skinner موقفًا دراميًا تعرض له: «انعرج حماري فجأة في مدخل زقاق ضيق، ووجدت نفسي محاصرًا بعدو رهيب أحدث من الارتباك ما لم يكن لانهيار جليدي أن يحدثه. وعندما أفقت من الهلع الذي انتابني رأيت عربة الحاكم تندفع بعظمة وكان لا مفر من تفاديها. كانت الجياد الأربعة التي تجرها تحدث ضجيجًا قويًّا، والفرسان الذين يحيطون بها – وقد خلت وجوههم من كل تعبير – يصدمون في طريقهم الحوانيت على الجانبين. وكان واضحًا تمامًا أنه من المستحيل إيقافها، وأن باشا الإسكندرية يدرك ذلك تمامًا؛ ومن ثم فقد راح يدخن في وقار وجدية شديدين غليونه المصنوع من العنبر؛ وقد جلس أمامه أحد أصدقائه وقد بدت عليه علامات الجدية والخطورة نفسها؛ فكانت هذه المقابلة حدثًا مفاجئًا لي.

بالرغم من أن التطور الحضاري شيء مرغوب فيه، فإنني أتمنى أنه عندما يعمم استعمال العربات يبنون لهم مدنًا تسهل سيرهن».

وفي عام ١٨٣٤ يشير سكوت Scott إلى وجود بعض العربات وبعض «الكابريوليهات» الخفيفة على غرار الطراز الإنجليزي السائد تسير في شارع الإسكندرية الرئيسي. ويقوم نائب الملك بوضع «عربتين غاية في الجمال مزودتين بمرايا تم جلبهما من فيينا» تحت تصرف المارشال مارمون Marmont.

كما حظي الأمير بوكلير موسكاو Pückler-Muskau بعربة أنيقة يجرها جوادان من أصل عربي.

ويروي طبيب اسكتلندي كان مقيمًا بالقاهرة عام ١٨٣٦م أنه شاهد مرور محمد علي من نافذة منزله «في عربة كانت أقرب إلى عربة حنطور (Fiacre) من عربات لندن من كونها عربة رسمية لدولة، وكانت هناك ستة من الجياد تقوم بجرها ويتقدمها حوالي اثني عشر راكضًا».

ويكتب فورني Forni «بعد أن جاب نابليون شوارع القاهرة بعربة تجرها ستة جياد، أدخل محمد علي استعمال العربات بمدينتي القاهرة والإسكندرية؛ وذلك لنفسه ولعائلته ولوزرائه؛ فكان يقوم بإهدائها لهم. وفي عام ١٨٣٨ كان هناك كثير من العائلات التي تمتلك عربة، وكان العدد الأكبر منها يوجد بمدينة الإسكندرية؛ بسبب وجود عائلات القناصل والتجار الأثرياء».

وقد ترك لنا الرسام ماير Mayer، الذي رافق الأمير ماكسيميليان دى بافيير Maximilien de Bavière هذا العام، صورة خلابة لعربة محمد علي نقلها على اللوحة ١١٩: «أثناء وجود الباشا بالإسكندرية أو بالقاهرة، كان يستخدم العربات، بالطبع للتنقلات القصيرة؛ مثلاً من القاهرة إلى شبرا وبولاق أو من الإسكندرية إلى حدائق محرم بك. وعادة كانت تغلق هذه العربات أبواب تكسوها مرايا، وبالرغم من أنها لم تكن على أحدث طراز فإنها كانت شديدة الزخرفة تكسوها رسومات عربية أرابيسك مذهبة، وكان يجرها أربعة وأحيانًا ستة جياد، ويتقدمها فرسان من حاشية الباشا على ظهور الجمال، تليهم فرقة من المماليك يرتدون زيًّا موحدًا فاخرًا مطرزًا ويركبون الخيول أو البغال».

ويقول جوبيل فسكيه Goupil-Fesquet: «رأينا ونحن بالإسكندرية عربة منطلقة تجرها أربعة جياد ترمح بسرعة شديدة تحت ضربات سوط حوذي جريء يرتدي تنورة يونانية؛ وكان هذا موكب أحد الوزراء في طريقه إلى الوالي».

أما كلوت بك Clot-Bey فيكتب «حيث إن مصر لا تمتلك غير عدد قليل جدًا من الطرق البرية، في حين ينتشر التنقل عن طريق النهر لسهولته وكثرة توافره، فإن استعمال العربات و«الكاريتات» محدودٌ للغاية، بل كاد يكون معدومًا قبل محمد علي. وكانت العربة التي تسلمها إبراهيم باشا من فرنسا تذكر على أنها شيء لافت للنظر. وفي أثناء الحملة الفرنسية كانت عربة نابليون التي يجرها ستة جياد وتتنقل في شوارع القاهرة وبولاق الضيقة – تعد من الأشياء العجيبة التي كانت تثير دهشة المصريين بشدة. وقد كان الوالي أول من أدخل استعمال عربات الخيول في خدمته

وخدمة حريمه. ومن بعده حذا حذوه إبراهيم باشا وعباس باشا وجميع أفراد العائلة، واختاروا هذه الطريقة المريحة. بيد أن هذه الأخيرة لم تعمم؛ فلكونها تخص العائلة الحاكمة ما كان لأحد أن يستجرأ على اتباعها لولا قيام الوالي نفسه بإهداء عربات لكثير من وزرائه. ومن أجل الارتقاء إلى مستوى هؤلاء، أسرع كثير من كبار موظفي الدولة إلى اقتناء عربات بدورهم. وأصبح في القاهرة الآن أكثر من ثلاثين شخصًا يمتلكون عربة أو كابريوليه؛ أما في الإسكندرية فالعدد أكبر من ذلك بسبب وجود القناصل العامة والتجار الأوروبيين في تلك المدينة».

وتظل مشكلة سوء حالة الطرق هي التي تعرقل استخدام هذا النوع من المواصلات. يقول ويلكينسون Wilkinson في هذا الصدد: «هناك القليل من الطرق بالقاهرة تتسع بالقدر الكافي لمرور العربات بدون أن يمثل ذلك خطرًا على المشاة بالرغم من أن التقلبات التي تجرى بالشرق حاليًا قد أدخلت استخدامها في كثير من بلدانه، ومع ذلك فإنه يوجد هنا وهناك بعض الشوارع التي تتسع لمرور عربة حتى عربتين في آن واحد؛ فعربة الباشا ذات الغطاء المتحرك التي يجرها جوادان (كاليش Calèche) تستطيع أن تقطع المسافة من القلعة إلى أبواب المدينة بدون أي صعوبة. وفي الواقع هناك أيضًا عربات تستخدم في نقل أنقاض المنازل المتهالكة وتضعها خارج المدينة لتسوية سطح الأرض. وبالرغم من وجود عدد صغير من الطرق التي قد تسمح لهن بأن تتقابل، فإنهم يؤكدون لي هنا أن الشوارع الرئيسية تتسع بما يكفي لاحتواء عربة؛ بيد أن قد يفجأ هذه الأخيرة من حين إلى حين باب أو ملف غير متوقعين ليكونا عقبة مهمة أمامها، وفي هذه الحالة يتدافع المارة المساكين في هرج ومرج، ويصبح من المحال تفادي إصابة واجهات المحلات».

ويقول باروفي Baruffi: «يمر الوالي يوميًا بعربته في الشارع الجديد الذي يمتد بطول الإسكندرية، والأثرياء متحمسون لاقتناء عربات جميلة».

وفي التاريخ نفسه، أي في عام ١٨٤٣، كتبت الكونتيسة هاهن-هاهن Hahn-Hahn: «إنه لمشهد غريب أن ترى مرور موكب العربات التي يتنزه بها الأوروبيون، يتقدم المسيرة إبراهيم باشا بعربة ذات أربع عجلات، في حين يركب عباس باشا «كوبيه» (Coupé) – عربة مغلقة – يجرها أربعة جياد، وتسبقه مجموعة من الراكضين كما كان يحدث قديمًا في أوروبا».

ولكن تبقى الإنجازات غير مرضية في هذا المجال. ويعبر شيلشير Schœlcher عن ذلك في العام التالي بقوله: «لسنا بحاجة إلى أن نقول إن استعمال العربات شبه مستحيل في مدينة مثل القاهرة؛ هناك بعض العربات، ولكنها تستخدم فقط للذهاب إلى الضواحي أو إلى قصر شبرا».

ويشير جيسكيه Gisquet إلى «عربة ثقيلة كتلك التي كان يستخدمها عمدة باريس أثناء فترة عودة الملكية (الرستوراسيون - La Restauration)، يجرها بصعوبة جوادان مربوطان بمطاول وحبال طويلة جدًا؛ بحيث يلامس طرف العريش عراقيبهم الخلفية. ولم تكن احتمالية تعطلها في الطريق بالأمر المستبعد على الإطلاق. وكانت تلك العربة هي نفسها التي قد تم شراؤها لحساب إبراهيم باشا بواسطة أحد التجار معدومي الضمير، الذين كانوا يستغلون ثقة الوالي وعائلته، والذي جعله يدفع لاقتنائها ٣٦٠٠٠ فرنك».

وهو يذكر أيضًا شارع الإسكندرية الكبير الذي يصل بين باب مدينة رشيد وقصر رأس التين، فيضيف: «وهو يعد الجزء الوحيد من الطريق العام الذي يلائم حركة المرور. فليس هناك الآن أي خطر من عبور المدينة بأكملها بالعربة».

وما لبثت أن عممت وسيلة التنقل هذه بالإسكندرية: «نشاهد عربات من جميع الأشكال تركبها سيدات أنيقات تسير على مدار ساعات النهار. وهذا المشهد غير مألوف بالقاهرة؛ حيث الشوارع ضيقة لا تسمح بمرور العربات».

وقد شاهد هذا المسافر نفسه في ميدان الأزبكية الجزءَ الأسفل من عربة الحاكم المكشوفة يجره جوادان صغيرا الحجم، أما في الإسكندرية فقد قابل «برلينة» (Berline) – عربة مقفلة بأربعة مقاعد – صغيرة تتهادى على إيقاع أربعة جياد ويكسوها من الداخل حرير أحمر».

وعندما وصل الدوق مونتبانسييه De Montpensier إلى الإسكندرية عام ١٨٤٥، كان هناك «كم من العربات التي تستخدم في الاحتفالات الرسمية؛ وقد طقمت الجياد التي تجرها بأطقم بديعة، موضوعة تحت تصرفه». وفي اليوم التالي لوصوله «جاء محمد علي ليزور الدوق؛ وهو يركب عربة فاخرة تجرها جياد غاية في الجمال، ويحيط بها ما يقرب من اثني عشر مملوكًا يرتدون سترات حمراء مطرزة بالذهب بشكل رائع. وكان كل هذا الترف يتناقض مع بساطة الحاكم». وبعد ذلك « كانت هناك عربات كثيرة تجرها جياد تم اختيارها بعناية لتنقل الدوق من شبرا إلى قلعة القاهرة». وأخيرًا «وضع الوالي تحت تصرف سمو الدوق «كاليش» (Calèche) بعض العربات من تلك التي كانت تنقل ركاب الهند من السويس إلى القاهرة مرتين بالشهر. وكان عباس باشا يتقدم الموكب بعربته الخاصة».

ويظل شيء من الفضول قائمًا؛ حيث يشعر جزافييه مارمييه Xavier Marmier أثناء وجوده بالقاهرة عند مرور عربة أمامه برغبة بأن يضيف: «شيء مذهل وجد بالقاهرة منذ عشرين عامًا وأدخل استخدامه محمد علي وإبراهيم باشا».

وفي نهاية فترة حكم محمد علي يعرب بارديو Pardieu عن تعجبه المتزايد من أشكال العربات بتلك الكلمات: «كانت تمر أمامنا بالإسكندرية عربات أنيقة على الطراز الأوروبي، يتقدمها راكضون بأيديهم سوط لتنبيه وإبعاد الفضوليين، وفي الميدان شاهدنا مرور «بريك» Break – عربة بأربع عجلات يكون مقعد سائقها مرتفعًا وفي داخلها مقاعد باتجاه الطول – أنيقة يجرها ثمانية من الجياد بمقاود كبيرة يسوقها حوذيان؛ وهما يمتطيان اثنين منها، ويرتديان زيًّا أحمر مطرزًا بخيوط مذهبة، وطربوشين على رأسيهما. كانت تلك العربة ملكًا لسعيد باشا؛ الابن الأصغر لمحمد علي». وعند سفره إلى القاهرة أضاف: «كانت هناك عربة عامة يخصصها الفندق لنقل المسافرين إلى ميناء الإبحار بقناة المحمودية، في حين كانت الأمتعة تنقل إليه على متن عربة نقل».

ويضيف فيما يخص القاهرة: «كنا نشاهد على طريق شبرا عربات جميلة وفرسانًا أنيقين يمتطون خيولاً عربية جميلة. وقد رأينا عربة يجرها أربعة من الجياد جلس بداخلها عباس باشا، تحرسه فرقة من القواسة على ظهر الخيول ويحيط به بعض من ضباطه».

ولكننا نريد أن نتوقف بالأخص عند ملحوظته: «في نهاية شارع الموسكي وجدنا لافتة السيد ليشيل Leichel، وقد كتب عليها بالفرنسية والعربية: صانع عربات الخيول. ففي الآونة الأخيرة أصبح جميع أثرياء القاهرة يمتلكون عرباتهم الخاصة التي يحضرونها من فرنسا والنمسا وإنجلترا. وأصبح من المألوف مشاهدة هذه العربات بالشوارع والطرقات كما هو الحال في أي مدينة فرنسية. وقد استقر ليشيل Leichel بالقاهرة منذ حوالي خمسة عشر عامًا، وراح يزاول هذه المهنة التي تدر عليه ربحًا وفيرًا؛ فهو يقوم بإحضار العربات من الخارج، ثم يقوم بعمل التصليحات اللازمة التي تحتاج إليها».

ولكن دعنا لا نبالغ، ولننظر إلى الاختلافات التي ستظل بين الإسكندرية والقاهرة. فقد كتب في عام ١٨٥٧ أنه «توجد بالإسكندرية عربات جياد وعربات من جميع الأنواع، لها موقف انتظار خاص بها بميدان القناصل؛ أما بالقاهرة فهناك بعض العربات الخاصة القليلة جدًا وأقل منها العربات الأجرة. وهناك سبب وجيه لذلك؛ ففي ما عدا شارعين أو ثلاثة، كبيرين يمتدان بعرض القاهرة، فجميع الشوارع الأخرى بالمدينة ضيقة ومتعرجة ومزدحمة لدرجة لا تسمح لأي عربة بالمرور».

وبعد ثلاث سنوات وصلت إلينا أول معلومة عملية: «بالقاهرة من الممكن تأجير عربات ليوم كامل عن طريق الفندق مقابل مبلغ ستة عشر شيلنجًا؛ أما إذا استأجرها المسافرون من مكان آخر، فإنهم يدفعون جنيهًا».



تسمية وترقيم شوارع القاهرة

لما كانت كتابة أسماء الأزقة بمصر المحروسة على محل يناسبها فوق زواياها، وتنمير البيوت الكبيرة والصغيرة برقم نمرها بأعلى أبوابها أو بجانبها، كأسلوب أوروبا، مما يستوجب المنافع العظيمة للملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقًا أو بيتًا، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب؛ استقر الرأي بمجلس تنظيم المحروسة، على التدابير اللازمة لذلك طبق الإرادة السنية، واندرج بيانها تفصيلاً في نسخ الوقائع المنمرة برقم ٦٤، وحصل في هذه الأيام الشروع في إجراء ذلك ابتداءً من باب الخلق بمقتضى الترتيب الآتي:


شارع المعز

البند: ١

حيث كان خليج مصر المحروسة مارًّا من وسطها تقريبًا، وكان باب الخلق متصلاً بالخليج المذكور، ومركزًا لمصر المحروسة، استنسب أن تكون الجادة الممتدة من باب الخلق بالقلعة، تسمى بشارع القلعة، ويكتب على رأس زوايا تلك الطرق اسم شارع القلعة وتكتب نمر البيوت الكائنة هناك على أرضيات بيضاء بمداد أسود، يحيط بها برواز لونه كلون مداد الأحرف، وتنمر البيوت التي عن يمين المار بباب الخلق بنمرة الوتر، وعن يساره بنمرة الشفع، أي أن تكون في الجهة اليمنى غير مزدوجة، وفي الجهة اليسرى مزدوجة إلى انتهائها بناحية القلعة.

البند: ٢

أن تسمى الطريق الممتدة من باب الخلق إلى مبرك النوق المعبر عنه الآن بباب اللوق بشارع باب اللوق. وابتدأ بالنمر من باب الخلق على الوجه المشروح بالنسق المذكور في الأحرف والبرواز والأرضية.

البند: ٣

إن الجادة الممتدة من باب السيدة زينب البراني إلى غاية قرة قول باب الخلق تسمى بشارع السيدة زينب، ويكون لون أرض لوحتها أصفر، ولون أحرفها وبروازها أحمر.

البند: ٤

إن الطريق الممتدة من باب الخلق إلى زاوية الموسكي تسمى بشارع باب الخلق، ويكون لون أحرفها أحمر كذلك، وأرضية لوحتها صفراء.

البند: ٥

إن الجادة التي من زاوية الموسكي إلى غاية باب العدوي تسمى بشارع الشعراني وتكون أحرفها حمراء أيضًا، وأرض لوحتها صفراء.

البند: ٦

إن الطريق الممتدة من قرة قول السيدة زينب إلى القلعة تسمى بشارع الرميلة، وتكون أحرفها وبروازها بالمداد الأسود، وأرضيتها صفراء.

البند: ٧

إن الجادة الذاهبة من قرة قول الصليبة إلى باب زويلة تسمى بشارع الصليبة، ويكون لون خطها أحمر على أرضية صفراء.

البند: ٨

إن الطريق الممتدة من السيدة نفيسة إلى قرة قول الصليبة، تسمى بشارع السيدة نفيسة، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

البند: ٩

إن الجادة الممتدة من باب زويلة إلى سبيل الجمالية، تسمى بشارع الغوري، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

البند: ١٠

إن الطريق الممتدة من سبيل الجمالية إلى باب الفتوح، يعبر عنها بشارع باب الفتوح، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، على أرضية صفراء.

البند: ١١

إن الجادة التي من السبيل المذكور إلى باب النصر، تسمى باب النصر، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

البند: ١٢

إن الجادة الكائنة من قرة قول باب الشعرية إلى الباب الجديد، يعبر عنها بشارع الباب الجديد، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

البند: ١٣

إن الطريق التي من القرة قول المذكور إلى باب الفتوح تسمى بشارع مرجوش، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

البند: ١٤

إن الطريق الممتدة من زاوية الموسكي إلى الإستبالية الملكية الكائنة بالأزبكية تسمى بشارع الموسكي، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

البند: ١٥

إن الطريق الممتدة من شارع باب الخلق، إلى شارع الغوري تسمى بشارع الحمزاوي، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

وأعقب البند الخامس عشر هذا التعليق: "لما كانت الشوارع المحررة أعلاه إذا كتبت أسماؤها على الحيطان يحصل فيها مشقة على من يكتبها ولا تتحصل بسرعة كما ينبغي، بل تطول مدتها ولا يمكن كتابتها مع الراحة؛ بسبب ذهاب الناس وإيابهم في الأزقة، ومرور الحيوانات ذوات الأحمال والعربات أيضًا، استنسب أن تحرر أسماؤها على ألواح ثم تعلق عليها وتسمر بالمسامير. ومن حيث إن نمر البيوت ليست بالمثابة المذكورة لزم أن تكون كتابتها فوق الأبواب أو بجانبها حسب الاقتضاء. وإذا كانت النمر المذكورة ترتب على قدر طول الشوارع كما ذكر، ومن المعلوم أن كل شارع منها يشمل محلات كثيرة مسماةً بأسماء مشهورة استنسب أن تكون كتابة اسم الشارع المشتمل على النمر في ألواح الزوايا بخط جلي، وأن يكتب اسم المحل تحته بخط رفيع بالنسبة إليه، حتى إن كل من نظر إلى اللوحة يعلم اسم المحل الذي هو فيه. كان من مقتضيات الإرادة السنية إتمام مأمورية تنمير البيوت التي في الأزقة الآتي ذكرها؛ بسبب ما حصل من اجتهاد المأمورين والعمال الذين عينوا لذلك وشرعوا في وضع نمر ما بقي من البيوت. وعند انتهائها يدرج ذكرها في الوقائع ليكون معلومًا للعامة.

البند: ١٦

إن الجادة من قنطرة السيدة زينب إلى باب حارة الزير المعلق بآخر شارع درب الحجر، تسمى بشارع الناصرية، وتكتب نمرتها بالمداد الأحمر.

البند: ١٧

إن الطريق الممتدة من قنطرة سنقر إلى باب الزير المعلق تسمى بشارع درب الحجر، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ١٨

إن الطريق التي من باب قرة قول سويقة السباعين، بشارع الناصرية إلى حارة السقايين، تسمى بشارع درب الحمام، وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

البند: ١٩

إن الطريق التي من باب الزير المعلق الكائن بدرب الحجر إلى بيت شربتجي باشا، تسمى بسكة الزير المعلق، وتكون نمرتها بالمداد الأحمر.

البند: ٢٠

إن الطريق التي ابتدأوها من شارع درب الحجر المارة من عابدين المنتهية إلى جادة باب اللوق، تسمى عابدين، وتكون نمرتها حمراء.

البند: ٢١

إن الجادة الممتدة من شارع باب اللوق المارة تجاه بيت حضرة الباشا مدير المالية المنتهية إلى الجبانة، تسمى بشارع البيدق، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٢٢

إن الطريق التي تمتد من باب الخوخة إلى شارع باب اللوق، تسمى بشارع البلاقسة، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٢٣

إن الطريق الممتدة من باب درب أبي الليف إلى شارع الشيخ ريحان تسمى بشارع حارة السقايين، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٢٤

إن الطريق الممتدة من درب باب أبي الليف بشارع الناصرية إلى باب حارة السقايين تسمى بشارع أبي الليف، وتكون نمرتها حمراء.

البند: ٢٥

إن الجادة الممتدة من شارع الأستاذ الحنفي إلى جادة الناصرية تسمى بدرب القرودي، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٢٦

إن الطريق الممتدة من قنطرة السيدة زينب إلى عطفة عمر شاه، تسمى بشارع الدرب الجديد، والطريق الممتدة من باب عطفة عمر شاه الموصلة إلى شارع الهياتم ودرب القرودي، تسمى بشارع سويقة اللالة. والطريق الممتدة من الشارع المذكور إلى جادة الناصرية، تسمى بشارع الحنفي، وتكون نمر هذا الطريق بالمداد الأحمر. والطريق التي من جادة الحنفي إلى سبيل الخليج تسمى بشارع الهياتم، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٢٧

إن الطريق الممتدة من قنطرة عمر شاه إلى شارع الدرب الجديد تسمى بشارع عمر شاه، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٢٨

إن الطريق الممتدة من جادة درب الجماميز إلى عطفة كور أغلي، تسمى بشق العرسة، ونمرتها تكون سوداء.

البند: ٢٩

إن الطريق التي تمتد من جادة حضرة السيدة زينب إلى عطفة الشيخ السادات تسمى بعطفة كور أغلي، ونمرتها تكون سوداء.

البند: ٣٠

إن الجادة التي تمتد من قنطرة درب الجماميز إلى شارع الحنفي تسمى بشارع خليل طينة، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٣١

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة زينب المارة نحو بيت الشيخ السادات المنتهية إلى بركة الفيل، تسمى بشارع السادات، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٣٢

إن الجادة المبتدئة من أمام مسجد السيدة زينب الممتدة إلى الجهة الغربية من الخليج تسمى بحارة السيدة زينب، ونمرتها تكون سوداء.

البند: ٣٣

إن الطريق الممتدة من جانب قنطرة سنقر إلى عطفة قر علي بجوار الخليج تسمى بشارع الخليج، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٣٤

إن الطريق المبتدئة من الباب المحازي لقنطرة الذي كفر المنتهية إلى شارع عابدين، تسمى بشارع رحبة عابدين، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٣٥

إن الطريق المبتدئة من حارة النصارى المارة من سوق الجمعة الممتدة إلى سويقة السباعين بجادة الناصرية، تسمى بشارع سوق الجمعة، وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

البند: ٣٦

إن الطريق الممتدة من باب حارة النصارى الكائن بشارع سوق الجمعة المتصل بقنطرة سنقر، تسمى حارة النصارى ونمرتها حمراء.

البند: ٣٧

إن الطريق الممتدة من الباب القريب من درب الجماميز إلى شارع سوق الجمعة، تسمى بسوق مسكة، وتكون نمرتها حمراء.

البند: ٣٨

إن الزقاق الممتد من شارع الحنفي إلى سوق الجمعة يسمى بعطفة الفقوسة، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٣٩

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة نفيسة إلى سوق العصر المعادلة لجادة طولون تسمى بشارع درب الحصر، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٤٠

إن الطريق الممتدة من أمام بئر الوطاويط الواصلة إلى باب البركة تسمى بسكة أزبك، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٤١

إن الطريق الممتدة من عمارة حسني باشا المارة على الشيخ نور الظلام الواصلة إلى جادة الصليبة قريبًا من بيت محمود بك تسمى بسكة الشيخ نور الظلام، ونمرتها تكون حمراء.

البند: ٤٢

إن الطريق الممتدة من المحجر أمام بيت المرحوم إبراهيم باشا يكن الواصلة إلى شارع سوق السلاح، تسمى بسكة الكومي، ونمرتها تبدأ من جادة سوق السلاح، وتكتب بالمداد الأسود.

البند: ٤٣

إن الطريق الممتدة من أمام قرة قول باب الوزير إلى سكة الكومي، تسمى بعطفة الكوم الوسخة، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٤٤

إن الطريق المبتدئة من شارع القلعة الممتدة إلى سكة الكومي، تسمى بدرب القزازين، وتكون نمرتها سوداء.

البند: ٤٥

إن الطريق الممتدة من جامع إبراهيم أغا الكائن بشارع القلعة إلى جامع أصلان «أصلم» تسمى بدرب شغلان، وتنمر بالمداد الأحمر.

البند: ٤٦

إن الطريق الممتدة من قرة قول التبانة إلى الدرب المحروق تسمى بشارع النبوية، وتنمر بالمداد الأحمر.

البند: ٤٧

إن الطريق الممتدة من الدرب المحروق إلى باب المحجر، تسمى بالدرب المحروق، وتنمر بالمداد الأحمر.

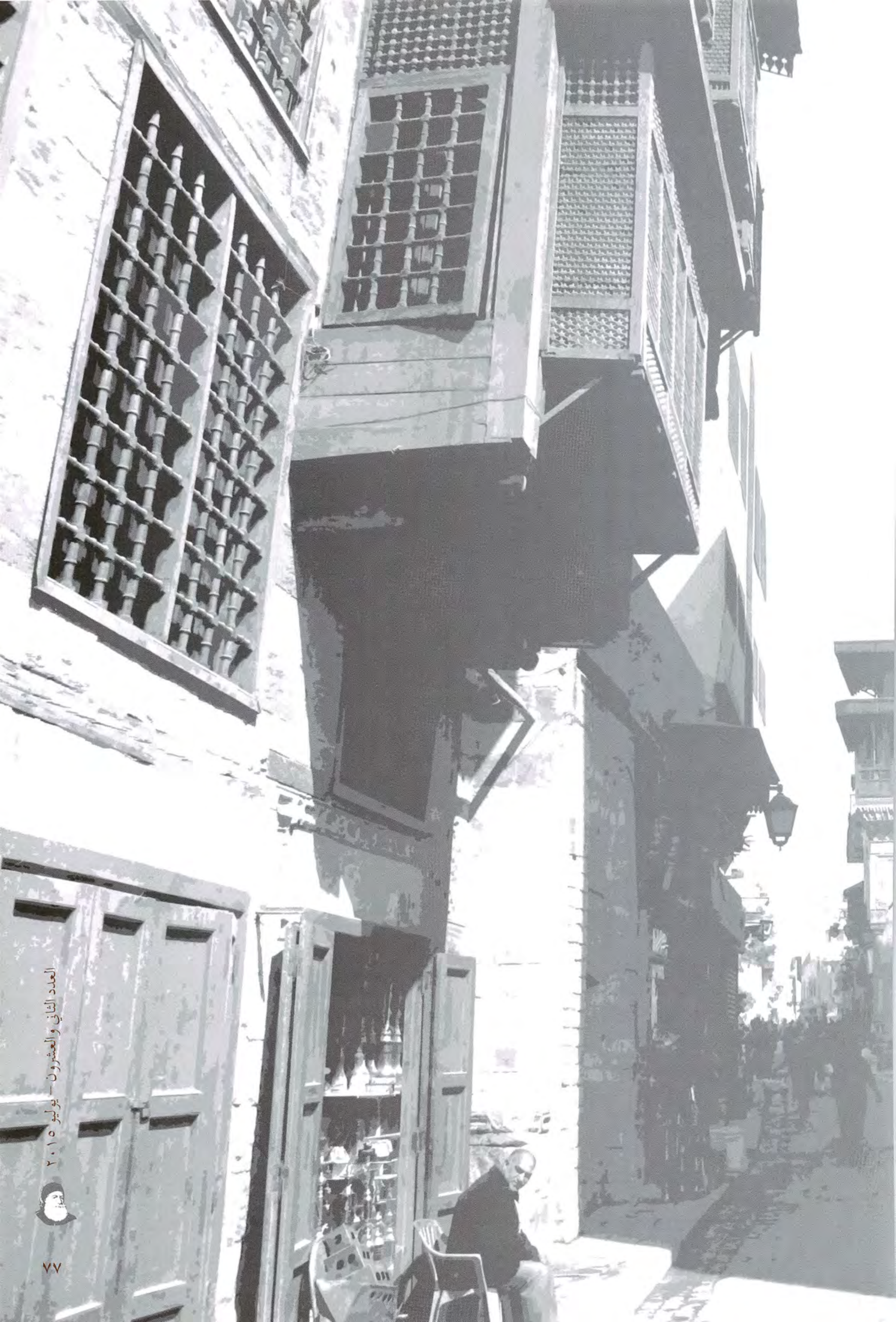
البند: ٤٨

إن الجادة الممتدة من جامع قجماس الكائن بالدرب الأحمر بشارع القلعة إلى الدرب المحروق، تسمى بير المش، وتنمر بالمداد الأسود.

البند: ٤٩

إن الطريق المبتدئة من باب الخلق الممتدة إلى جادة الحمزاوي، تسمى درب سعادة، وتنمر بالمداد الأحمر.

ونشرت الوقائع المصرية في عددها رقم ٨٤ في ٧ شوال ١٢٦٣هـ أن الإرادة السنية تعلقت بتنمير المساكن والدكاكين والأزقة وجميع المحال بمصر والإسكندرية. كما صدر أمره العالي أن يتبع هذا النظام أيضًا في رشيد ودمياط ثم باقي بنادر الوجه البحري كالمنصورة وسمنود وفوة وطنطا وأسيوط وغيرها من البنادر المماثلة لها، ويكون ذلك بمعرفة الضباط الأربعة المكلفين بالتنمير بمصر المحروسة.



أول بعثة تعليمية مصرية إلى فرنسا في عهد محمد علي

آلان سيلفيرا
ترجمة: خلود سعيد

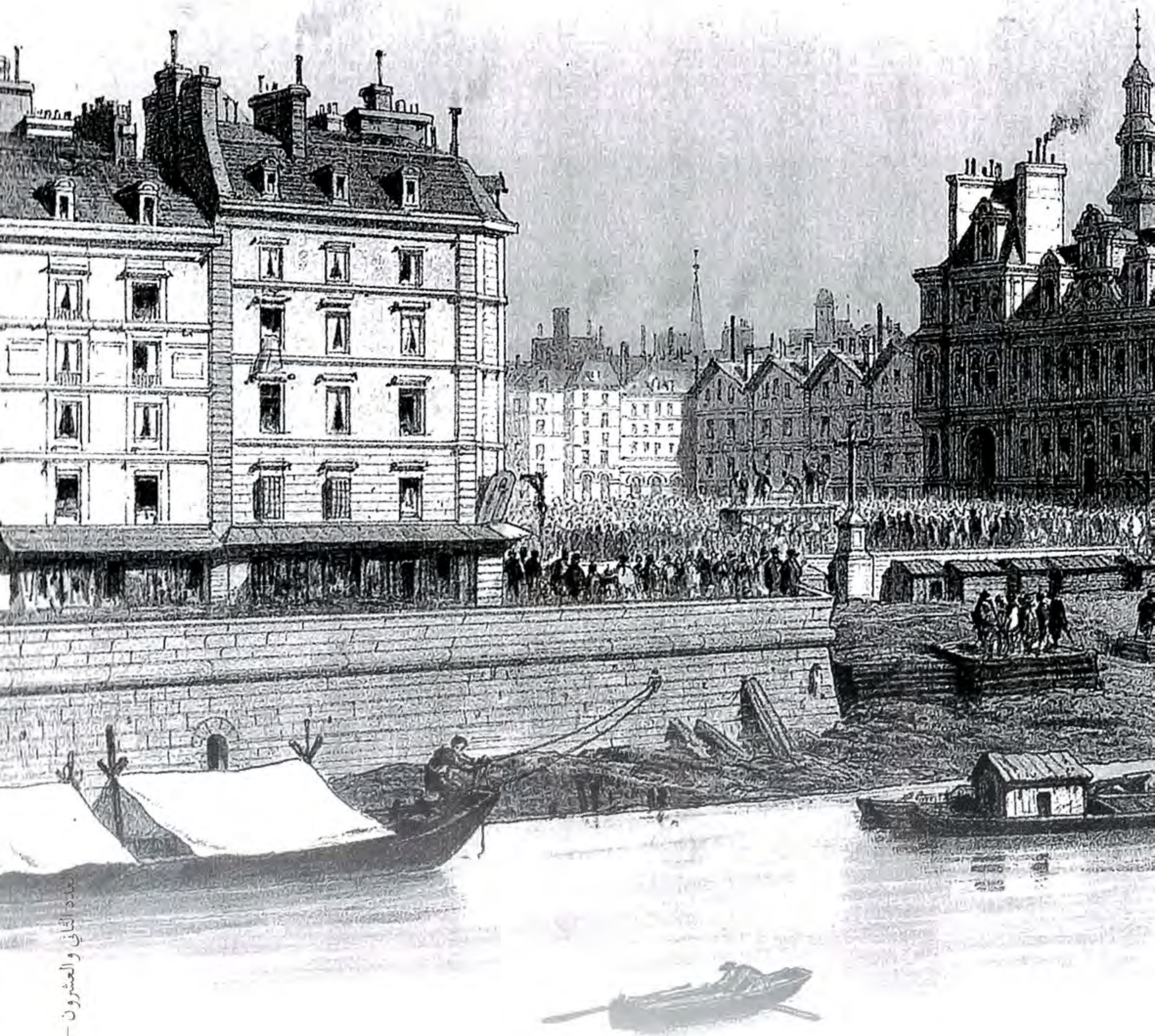


ترجمة مقال"The First Egyptian Student Mission to France under Muhammad Ali" الصادر في: *Middle Eastern Studies*, vol. 16, no. 2, Special Issue on Modern Egypt: Studies in Politics and Society (May, 1980), pp. 1-22.

أضافت المترجمة بعض التوضيحات التي رأتها ضرورية بين قوسين مربعين [ ]، واحتفظت بالمصادر في الهوامش باللغات الأصلية مع ترجمة الملحوظات.

***

دعّمت منح من المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية والجمعية الفلسفية الأمريكية أبحاث هذا المقال.



رست السفينة «لا ترويت»، لصاحبها تشارلز إكس وبقيادة كابتن روبيلارد، في مارس ١٨٢٦ في الإسكندرية. بعدها ذهب روبيلارد، بصحابة ضابطي السفينة الأول والثاني، إلى القاهرة في لقاء رسميٍّ مع محمد علي؛ والي مصر، ثم ذهب الثلاثي الفرنسي في جولة سياحية إلى سقارة بالجيزة. وانتهت الزيارة بتفتيش ثكنات المدفعية الجديدة بأبي زعبل؛ حيث استقبلهم مواطنهم الفريق بوير بعرض عسكريٍّ بديل، ولكنه ذو مصداقية وجدير بالإكبار مُكوَّن من اثنين من أفضل مفارزه [وحداته] العسكرية. ولكن مهمة كابتن روبيلارد لم تكن عسكرية؛ فالأوامر الصادرة له كانت أن يحمل معه إلى فرنسا أول فريق مصري من ٤٤ عضوًا من المدنيين يرسلهم محمد علي إلى فرنسا لاستكمال تعليمهم في باريس. وفي ١٣ إبريل من نفس العام، بدأت «لا ترويت» رحلتها التي تستغرق شهرًا إلى مرسيليا.[١]

وهكذا، ومع هذا الغيث الأول مما سيصبح تيارًا ثابتًا لدفعات من الطلاب المصريين في فرنسا، أخذ محمد علي؛ «مؤسس مصر الحديثة» خطوة أكثر جدة هذه المرة للانفتاح على الغرب. ومثل الولاة العثمانيين الذين سارعوا بتقليد غريمهم بإرسال أعدادٍ أكبر من الطلبة الأتراك إلى فرنسا العام التالي،[٢] كانت دوافع محمد علي مدعومة برغبة لاستقدام الحكمة العملية الفرنسية إلى مصر، ليس فقط لتحسين صورة مصر في أعينهم، ولكن بشكلٍ رئيس لتعزيز سلطاته عن طريق إتقان فنون الحرب. فُسِّرت هذه البعثة المصرية، التي تعتبر جزءًا أصيلاً من أول جهود مصر للتحديث السلطوي بالتوازي مع تقدم حركة الترجمة وعلمنة التعليم وغيرها داخل البلاد، على نحوٍ صحيح بمدفوعيتها من الطموح العسكري؛ وهو المتغير المستقل المسئول عن الهدف العظيم لمحمد علي في ترسيخ استقلاله عن الباب العالي، ثم تحويل الأقاليم العثمانية حول مصر إلى ساحة لتوسعاته العسكرية. ولكن إذا كان الدافع الرئيس من إنشاء «النظام الجديد» [سلسلة من الإصلاحات السياسية والعسكرية في عهد السلطان العثماني سليم الثالث للحاق الغرب] في نسخته المصرية هو اكتشاف ومحاكاة ومضاهاة أسرار القوة العسكرية الأوروبية، فقد أدت الوسائل المستخدمة لتحقيقه إلى غاية أخرى بعيدة تمامًا؛ حيث إن هذه البعثة الطلابية، التي صنعت من رفاعة الطهطاوي باكورة منحنى جديد من الهوية القومية، بلورت نتائج غير مباشرة وغير متوقعة للنية الأصلية للوالي محمد علي. كما أظهرت الجانب الفرنسي من الإرث الطموح للاحتلال البونابارتي؛ تلك المغامرة التي توازت فيها المهمة الحضارية للثورة الفرنسية مع الضرورات القاسية للحملة العسكرية؛ ذلك لأن الطاغية الألباني حين يجد حلفاءَه الفرنسيين مستعدين تمامًا لإشباع حاجاته للمزيد من المهندسين والمستشارين العسكريين كسبيل لاستعادة بعض الهيمنة على مستعمرتهم الضائعة، لن يجد بدًّا من الكثير من الاعتقادات الراسخة أن هذا الدعم التقني يمكن أن يكون أداة لخطة تحول اجتماعي وثقافي مُحكمة. كانت هذه التجربة التعليمية منتجًا ثانويًا في خيال بونابارت الخصب، واعتبرها متحمسوها الفرنسيون بابًا مفتوحًا نحو التجديد الثقافي الذي طالما حلم به إمبراطورهم حتى في منفاه، وتبناها محمد علي لأسبابٍ أقل نبلاً.[٣] وفي هذا الإطار، تُوضِّح دراسة أول بعثة تعليمية إلى أوروبا بشكلٍ ملموس بعض الغموض المحيط بخطوات مصر الأولى المتعثرة نحو التغرب. وربما تجذب نظرة أفحص على هذه البدايات والأودسة الباريسية لركاب «لا ترويت» الانتباه إلى الخيوط الثقافية في نمطي التواصل خلال هذه المرحلة المؤسِّسة من العلاقات المصرية الفرنسية.

ترجع فكرة إرسال شباب من الشرق للتدريب في الخارج إلى ما قبل الغزو الفرنسي، تحديدًا بداية القرن الثامنَ عشرَ وجهود الفرنسيسكان التبشيرية، وبشكلٍ أقل لجهود اليسوعيين بين أقباط الصعيد.[٤] ولكن كل هذه الجهود، التي تبدو متواضعة بالمقارنة بمئات الأطفال الأقباط الذين ارتبطوا بمدارس تبشيرية في أسيوط والأقصر وأسوان مع منتصف القرن الثامن عشر، لم تسفر عن شيء، مثلها مثل محاولة اليسوعيين خلال عقد ثلاثينيات نفس القرن إرسال أطفالٍ أقباط وأرمن إلى مرسيليا ليشبوا على المذهب الكاثوليكي.[٥] أُعيدت المحاولة بعدها بحوالي أربعين عامًا عندما حاولت الجامعة الحبرية بالفاتيكان استدراج بعض الأطفال السوريين المسيحيين الذين شجعهم علي بك الكبير على الهروب من الاضطهاد الديني في بلادهم بالاستقرار في مصر.[٦] ولكن المحاولة أُجهضت أيضًا، رغم إسهام السوريين الذين استقروا في مصر في زيادة أعداد مدارس الفرنسيسكان التي بدأت في الانتشار بالدلتا. نجح ج. هيوارث- دن في تحديد نتيجة جديرة بالملاحظة من هذه المرحلة الأولى من التواصل؛ وهي ظهور أول كتاب مطبوع

(١) France. Archives du Ministère des Affaires Etrangères, "Le Caire", *Correspondance politique 26* (10 March 1826), fol. 278.

(٢) Bernard Napoleon, *The Middle East and the West* (Bloomington: Indiana University Press, 1964): 39.

(٣) Napoléon Ier, *Mémoires pour servir à l'histoire de France sous Napoléon, écrits à Sainte-Hélène*, edited by General Baron Gouraud (Paris, 1823): 210-11.

(٤) J. Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt* (London, 1968): 87-9.

(٥) René Clément, *Les Français en Egypte aux XVIIe et XVIIIe siècles* (Cairo, 1960): 138.

(٦) P. Carali, *Les Syriens en Egypte* (Héliopolis, 1932): 83, 105-106.



للاستخدام في مصر، كتاب صلوات عربي- قبطي أعده رافايل تركي في الجامعة الحبرية بروما في ١٧٣٦. ربما كان تركي؛ القبطي الذي تحول إلى الكاثوليكية، أول مصري يتعلم في أوروبا.(١) ولكن ليس من المستبعد أن يكون قد سبقه قلة ضمن مجموعة «اللغات للشباب»؛ وهم شباب من إسطنبول وغيرها من «مواني الشام» [ترجمة للمصطلح الفرنسي Echelles du Levant، يشير إلى مواني ومدن الإمبراطورية العثمانية بشكل عام وليس «الشام» بمعناه الحالي]، التي تخضع للسيطرة الفرنسية أرسلهم الرهبان الكبوشيون إلى باريس لتدريبهم ليعملوا بالتبشير والترجمة لقنصل مدرسة الأرمن الملحقة بمدرسة لويس لو جراند الملكية. ضمن الستة والثلاثين ترجمانًا الذين تلقوا تعليمهم في مدرسة اللغات للشباب بعد عشرين عامًا من تأسيسها عام ١٧٢٠، قرر واحدٌ على الأقل- يحمل اسم قسطنطين؛ وهو اسم يوناني رغم مولده ونشأته في مصر- العودة إلى الديار بعد وصوله بوقت قصير كما ورد بالسجلات بسبب «ثبط عزيمته لقسوة القواعد»(٢) [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية]. ولكن بعد ١٧٢١ حتى اندماجها في مدرسة اللغات الشرقية عام ١٨٢٦، تغيرت المدرسة التي كان يُتوسم فيها أن تكون أداة تواصل فعال مع أوروبا. أُستبعد الشوام، الذين يُنظر إليهم على أنهم بطيئو الفهم ولا يُعتمد عليهم، وتم استبدالهم بتلاميذ فرنسيين معظمهم مولودون في «مواني الشام» والذين اعتبروا وحدهم قادرين على استكمال التدريب اللغوي الصارم المطلوب للعمل كترجمان في الهيئات الدبلوماسية والقنصلية في الشام.(٣) تخرج في المدرسة، التي جمعت الدراسة بالخبرة العملية، مستشرقون بارزون مثل أميدي جوبير؛ مترجم أعمال الإدريسي والمبعوث الدبلوماسي لنابليون في بلاد فارس، وبيير روفين؛ اللغوي التركي الذي شغل منصب سفير فرنسا في إسطنبول وقت الحملة على مصر. ومن بين مجموعة اللغويين الشباب الذين رافقوا نابليون إلى مصر، برز فانتور دي بارادي؛ المترجم الفوري للجنرال ومترجم كل البيانات إلى العربية، كأفضل نتائج المدرسة.(٤)

لم يَعدْ إحياء الهدف التبشيري الأصلي الذي كان وراء إنشاء مدرسة اللغات إلا بحلول عام ١٧٩٨، ولكن هذه المرة بتعديل من نابليون ليلائم الروح الثورية لهذه المرحلة الجديدة. اتضح هدفه جليًّا في الإجراءات التي اتخذها مباشرةً عقب احتلاله مالطا. واعتقادًا أن «التعليم هو العمود الرئيسي للرفاهة والأمن العام» كما أوجز، أعطى نابليون أوامره، قبيل الإبحار إلى الإسكندرية، بإرسال مجموعة من ستين طفلاً واعدًا بين التاسعة والرابعة عشرة من أغنى عائلات مالطا إلى مرسيليا لينالوا تعليمهم في الكوليج على نفقة أولياء أمورهم.(٥) في مصر، أدرك استحالة تكرار التجربة مع أطفال العائلات الميسورة، بغض النظر عن الهزيمة في أبو قير. ولكن فكرة استخدام التعليم كأداة لنشر المبادئ الثورية بين النخبة من المواطنين لم تغب قط عن خلد نابليون. فتتجه جوهر سياسته، من إنشاء عدة دواوين للبذخ في الاحتفالات الإسلامية والجمهورية، نحو استخدام التعليم- بمعناه الواسع - للنشر والتبشير بالثورة الفرنسية بين المسلمين والأقليات على السواء.(٦) تحقق هذا إلى حدٍّ ما بالدعاية والترويج وسياسة دمج مجندين محليين في وحدات المشاة التي هلكت بفعل آثار المعارك والأمراض والحصار الإنجليزي. فبعد أقل من أسبوعين من انتصار نيلسون، جاءت الأوامر بتجنيد ألفي عبد مملوكي في الجيش الفرنسي. تبعها توسع ما كان نواة لشرطة القاهرة على يد كولونيل بابازوجلو؛ وهو مملوك متمرد من خيوس [باليونان]، إلى فيلق يوناني متكامل ساعد الفرنسيين، بجانب حفنة من فرسان القديس جون الذين تم تجنيدهم في فيلق مالطا [عُرفوا بعدها باسم «فرسان مالطا»]، على إخماد ثورة القاهرة الأولى في أكتوبر ١٧٩٨.(٧) في العام التالي، أرغمت الخسائر الكثيرة في سوريا نابليون على التقدم خطوة محاولاً سد العجز المتزايد في القوة البشرية. وفي ٢٢ يونية ١٧٩٩، أصدر أوامره إلى دوزيه؛ الذي كان على رأس حملة عسكرية في الصعيد، بشراء ثلاثة آلاف عبد أسود من عبد الرحمن؛ سلطان دارفور، على نفقته الخاصة، وبعث له بخطاب تذكير بعدها بأسبوع بأنه «لا داعي لتذكيرك بأهمية هذا الإجراء»(٨) [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية]. بمرور الوقت، نتج عن خلط السود في الوحدات الفرنسية، مثلما حدث في «نصف لواء» كارنو في القارة الأوروبية، ربما النموذج الأوحد لجيش استعماري مختلط الأعراق صممه

(١) J. Heyworth-Dunne, "Printing and Translation under Mohammed Ali of Egypt: The Foundation of Modern Arabic", *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, no. 3 (July 1940): 326.

(٢) Emile Dupont-Ferrier, *Du Collège de Clermont au Lycée Louis-le-Grand, 1563-1920*, vol. 3 (Paris: E. de Boccard, 1921): 419.

(٣) *Ibid*.: 360-398.

(٤) للمزيد عن جوبير، انظر: Général Georges Spillmann, *Napoléon et l'Islam* (Paris: Perrin, 1969): 333-44; Henri Dehérain, *La vie de Pierre Ruffin : Orientaliste et diplomate*, 2 vols. (Paris: P. Geuther, 1929-1930); A. Jaubert, and E.F. Jomard, "Notice sur Venture de Paradis", *Mémoires de la Société de Géographie* 7 (Paris, 1854).

(٥) Napoléon Ier, *Correspondance de Napoléon Ier : Publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III*, vol. 4 (Paris: H. Plon; J. Dumaine, 1870), no. 2669.

(٦) François Charles-Roux, *Bonaparte : Gouverneur d'Egypte* (Paris: Librairie Plon, 1935): 372-374.

(٧) Gabriel Guémard, "Les Auxiliaires de l'armée de Bonaparte en Egypte (1798-1801)", *Bulletin de l'Institut d'Egypte* 9 (1927): 1-17.

(٨) Napoléon Ier, *Correspondance de Napoléon Ier*, vol. 5, no. 470, 490.

نابليون لجمع التدريب العسكري بالتعليم الفرنسي.[١] تشابه هذا مع معسكر أسوان التدريبي الذي أنشأه الكولونيل سيف [المعروف في مصر باسم سليمان باشا الفرنساوي] بعد عقدين، بالرغم من أن إصرار نابليون على التركيز على التعليم الفرنسي لن يتكرر إلا بحلول عام ١٨٢٨ عندما يقرر محمد علي، ولكن بشكلٍ مُعدَّل، ضم بعض السود إلى بعثته التعليمية إلى باريس.

وكان الحدث الأبرز في هذه الفترة إنشاء وحدة عسكرية مصرية مستقلة؛ كتيبة المعلم يعقوب القبطية، إبان الاحتلال الفرنسي وقبل أسابيع من اغتيال كليبر. بدأت الكتيبة كمجموعة غير متجانسة من جامعي الضرائب المشاركين في حملة دوزيه ضد مراد بك في الصعيد، ثم كبرت لتصبح قوة مساعدة قادرة على تنظيم نفسها تضم حوالي ألف فرد مقاتل قرر من تبقى منهم مغادرة مصر مع الجنرال مينو بعد اتفاقية العريش. وقد اختار الفرنسيون من بين أسر هؤلاء «المصريين المنفيين» في مرسيليا المترجمين الفوريين الذين كانوا في استقبال طلاب بعثة محمد علي حين وصلوا إلى فرنسا بعد خمسة وعشرين عامًا.[٢] وكتب الفارس لاسكاريس؛ فارس مالطا السابق الذي انضم إلى الفرنسيين واشتهر بسوء ذكره، أول خطة لاستقلال مصر يقوم عليها حفنة من الأقباط تحت إشراف القنصل الأول.[٣] يمكن إزاحة هذه الخطة جانبًا باعتبارها غريبة ومُجهضة وطائشة وغير متزنة؛ حيث تعكس الجنون الذي يظهر عندما تُزرع الحركة الرومانسية في الشرق. وقد أقر نابليون، بواقعية شديدة، بحدود القوة التي شرع هو نفسه في تنفيذها حين أسرَّ إلى كليبر أنه فقط مع مرور الوقت يمكن للتعليم أن يسد الفجوة التي تفصل بين مصر والغرب.[٤]

وكانت المرة الوحيدة التي لجأ فيها نابليون إلى محاولة إسراع هذا بإرسال أبناء النخبة ليتلقوا تعليمهم في فرنسا؛ مثلما فعل في مالطا، أثناء تعليماته لكليبر حين مغادرته وهو يعطيه زمام أمور جيشه المحاصَر، ونصها: «إذا فقدت من ٥ إلى ٦٠٠ مملوكٍ، فأرسل إلى فرنسا نفس العدد من العرب وشيوخ البلد. بعد سنوات من إقامتهم بيننا سيوهمون بعظمتنا ويتقنون لغتنا ويتشربون حضارتنا ويصبحون أفضل مناصرينا عند عودتهم إلى مصر».[٥]

لم يتمكن كليبر من الانصياع إلى هذه التعليمات، ولا مينو من بعده، ولكن بقيَ أمل تحقيق خطة بونابارت حيًّا على يد اثنين من محاربي الحملة الفرنسية المحنكين، وهما: برناردينو دروفيتي؛ القنصل الفرنسي في مصر، والجغرافي جومار. كان جومار أكثر إصرارًا بين الاثنين، في حين كان دروفيتي البييمونتي المولود في ليفورنو [بإيطاليا] والذي أصبح بوناپارتيًّا متعصبًا، أكثر مرونة وإقناعًا.[٦] نجح دروفيتي، من موقعه تحت الأضواء، في تشتيت نزعة محمد علي باشا الفطرية للتطلع إلى إيطاليا – التي لا تُمثِّل أي تهديد سياسي- وليس فرنسا كمصدر لكوادر أجنبية، في حين ارتبط اسم جومار بالبعثة المصرية في باريس؛ وهي المؤسسة التي صمدت، على الأقل رسميًّا، حتى القرن العشرين.

شغف إيدم فرانسوا جومار بكل ما هو متعلق بمصر أهداه لقب «جومار المصري». كان جومار عضوًا في مجموعة المهندسين والجغرافيين التي ضمها جاكوتين من النخبة وكانت جزءًا من شعبة الآداب والعلوم بالمجمع العلمي المصري. تخرج جومار في المدرسة متعددة التكنولوجيا (إيكول بوليتيكنيك) المرموقة، مثله مثل العديد من السان سيمونيين [أتباع المفكر الفرنسي الكونت كلود هنري دورفروا (سان سيمون) الذي دشَّن مذهبًا اشتراكيًّا يدعو إلى إلغاء الميراث وتدخل الدولة لتنظيم الإنتاج وتوزيع الثروة]، الذين عملوا لاحقًا كمستشاري محمد علي. وأمضى ثلاث سنوات بمصر في مسح طوبوغرافي رائد متجاوزًا الدلتا إلى حدود النوبة، ورسم أول خرائط دقيقة للقاهرة والإسكندرية، وإعداد أول تعداد علمي لسكان البلاد بغض النظر عن التعداد التقريبي السابق لفولني. عند عودته إلى فرنسا، أصبح عضوًا مؤسسًا للجمعية الجغرافية؛ حيث عكف على دعم ونشر الاستكشافات الإفريقية لكاييه وأبادي وغيرهما، كما أسس وكان – حتى وفاته في ١٨٦٢- قومسييرًا لقسم الخرائط بمكتبة فرنسا الوطنية، والذي كان بالأصل مجموعته الخاصة. ولكن شهرته نبعت أساسًا من كونه محرر العمل الضخم وصف مصر، الذي كوفئ عليه عام ١٨١٨ بانتخابه في معهد فرنسا. وعند صدور هذا العمل العظيم، الذي اكتمل أخيرًا عام ١٨٢٨ بعد

(١) J. Christopher Herold, *Bonaparte in Egypt* (New York: Harper & Row, 1962): 212.

(٢) Vincennes. Archives du Ministère de la Guerre, "Réfugiés d'Egypte", *Carton* 17: Dossier Joanny Pharaon; Georges Rigault, *Le Général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Egypte (1799-1801)* (Paris, 1911): 138.

(٣) Georges Douin, ed., *L'Egypte indépendante : Projet de 1801* (Cairo, 1924): 1-16; George Haddad, "A Project for the Independence of Egypt, 1801", *Journal of the American Oriental Society* (April-June 1970): 169-183.

(٤) Napoléon Ier, *Correspondance de Napoléon Ier*, vol. 4, no. 3141.

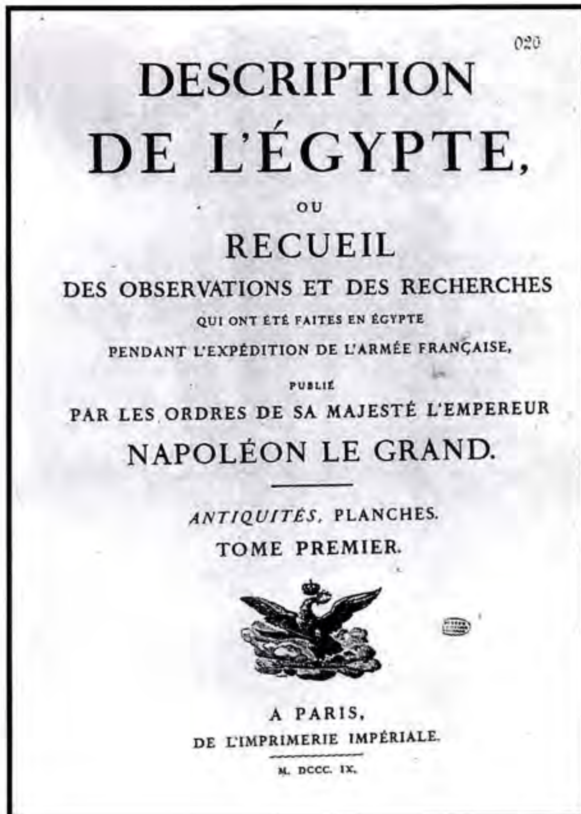
(٥) *Ibid.*, vol. 5, no. 4374.

(٦) C. E. Bosworth, "Henry Salt, Consul in Egypt, 1816-1827, and Pioneer Egyptologist", *Bulletin of the John Rylands University Library of Manchester* 57 (1974-1975): 79.




إيدم فرانسوا جومار


كتاب وصف مصر


020

DESCRIPTION
DE L'ÉGYPTE,
OU
RECUEIL
DES OBSERVATIONS ET DES RECHERCHES
QUI ONT ÉTÉ FAITES EN ÉGYPTE
PENDANT L'EXPÉDITION DE L'ARMÉE FRANÇAISE,
PUBLIÉ
PAR LES ORDRES DE SA MAJESTÉ L'EMPEREUR
NAPOLÉON LE GRAND.

ANTIQUITÉS, PLANCHES.
TOME PREMIER.

A PARIS,
DE L'IMPRIMERIE IMPÉRIALE.
M. DCCC. IX.

حوالي عشرين عامًا من العمل الدؤوب، تأكدت مكانة جومار كخبير فرنسا الأول في ماضي مصر وحاضرها.[١]

دفعه اهتمامه بالتحولات في مصر التي قام بها محمد علي أن يقدم إليه، عام ١٨١١ وعن طريق دروفيتي، «خطة لتحضر مصر من خلال التعليم» كما يصفها.[٢] لا توجد الوثيقة الأصلية، التي تحث الوالي على عدم إضاعة أي وقت لإرسال بعض المختارين ليتلقوا تعليمهم في فرنسا، في أرشيف القلعة، ولا أوراق جومار المودعة في أكاديمية اللغة الفرنسية، ولا ورد ذكرها في تقارير دروفيتي القنصلية، ولا مراسلاته المنشورة والتي بدأت فقط منذ عام ١٨١٩.[٣] ولكن جومار نفسه أجملها في مذكرة سرية مرسلة من خلال كوشليه؛ القنصل الفرنسي، بتاريخ ٢٧ يونية ١٨٣٩، وتهدف إلى إقناع الوالي بترتيب أوراقه وحل المشاكل الداخلية لكسب تعاطف الغرب في خضم رجوع العداوة مع الباب العالي. أفردت المذكرة مساحة كبيرة للتعليم، وانتقدت إنجازات مصر المتواضعة في هذا الإطار. وادّعت أن أحد أهم الأسباب «التي جعلت مصر متخلفة بحوالي جيل عن تكوين نخبتها اللازمة» يمكن أن نعزوه لرفض الوالي لنصائح جومار قبل حوالي خمسة

(١) يعتبر Charles du Bus, "Edme-François Jomard et les origines du Cabinet des cartes (1777-1862)", *Comité des travaux historiques et scientifiques : Bulletin de la Section de géographie* 46 (1931): 1-128 أشمل بيان عن حياة جومار وأعماله. للمزيد من المراجع، انظر: Alain Silvera, "Edme-François Jomard and Egyptian Reforms in 1839", *Middle Eastern Studies* 7, no. 3 (1971): 315; Justin A. McCarthy, "Nineteenth-Century Egyptian Population", *Middle Eastern Studies* 12, no. 3 (October 1976): 1-6. لبعض عدم الدقة في تقديراته لتعداد السكان.

(٢) E.F. Jomard, "Allocution du Président", *Banquet de l'expédition d'Egypte*, 31 mars 1861 (Paris, 1862): 7.

(٣) Giovanni Marro and Roberto Paribeni, *Il Corpo epistolare di Bernardino Drovetti*, vol. 1, Société Royale de Géographie d'Egypte : Publications spéciales (Rome: Istituto Poligrafico dello stato, 1940): 3.

وعشرين عامًا بتأسيس بعثة دائمة للطلاب المصريين في فرنسا. فقد كتب جومار عام ١٨٣٩:

بعد عدة سنوات من الغزو الفرنسي، تصور أحد أعضاء الحملة، والذي وثق في المميزات الأصيلة للمصريين؛ حيث لاحظهم عن قرب وآمن أن البذور التي زرعوها على ضفاف النيل سوف تثمر قريبًا، فكرة دعم التجديد الفكري في البلاد عن طريق حث الأمير على إرسال بعثة طلابية إلى فرنسا تبقى هناك بعض الوقت لتتلقى تعليمًا جامعًا وشاملاً، بغض النظر عن الاختلاف بين الثقافتين. كما أكد على الخطورة الكامنة في الاعتماد على المترجمين في التدريس، والتي سيكون لها تأثيرٌ سلبيٌّ على نقل وغرس المعرفة.

ووفقًا لجومار، رفض الباشا نصيحته هذه في ذلك الوقت بسبب «أن مواطنيه كانوا جهلاء لدرجة لا تُمَكّنهم من الاستفادة من السفر إلى أوروبا». بعد سبع سنوات، وعندما أصدر جومار تعليماته لعثمان نور الدين؛ أول تركي ترسله مصر للدراسة في الخارج، بإقناع الباشا أن يعيد التفكير في الأمر، لم يصل إلى أي شيء كذلك. وكان رد محمد علي على نور الدين عند عودته إلى القاهرة عام ١٨١٧، وفقًا لجومار، «الآن وحيث إنك قد اكتسبت كل هذه المعرفة في الخارج، لماذا لا تبدأ مدرسة هنا وسوف نوفر لك كل الأدوات المطلوبة؟ وحين يصل الطلاب إلى درجة معينة من الإتقان، سوف أرسلهم إلى باريس.»[١]

ولكن حتى حلول عام ١٨٢٦، لم تصل درجة الإتقان إلى المستوى المتوقع. يمكن أن نعزو ذلك إلى طرق إنشاء المدارس الجديدة والتي اتسمت بالتصادفية والاعتباط، ومساوئ نظام المحاضرات الذي فرضه محاضرون أجانب؛ أغلبهم إيطاليون أو متحدثون بالإيطالية، وقدرة الطلاب أنفسهم الذين أكرهوا إلى مؤسسات شبه عسكرية؛ حيث المعرفة المنقولة إليهم عن طريق المترجمين قلما تثير اهتمامهم. في البداية، كان اختيار الطلاب فقط بين المماليك الشراكسة الذين ورثهم الوالي من سابقيه ليتلقوا تدريبًا عسكريًّا بجانب منهج الكُتّاب التقليدي واللغة الفارسية، وذلك في مدرسة أُنشئت داخل جدران القلعة عام ١٨١٦. وبعدها بسنتين أو ثلاث، أنشئت مدرسة بلاط متخصصة؛ دار الهندسة، داخل القلعة أيضًا ولكنها تضم طلابًا من أعراق عثمانية مختلفة: أتراك وجورجيون (كرك) ويونانيون وأرمنيون وأكراد، ولا تضم مصريين. وكانت هذه المدرسة نواة مدرسة ثالثة؛ مدرسة الهندسة، التي تأسست في بولاق في مايو ١٨٢١ بهدف تدريب خبراء مساحة الأرض ليحلوا محل الأقباط. في دراسته الرائدة عن التعليم في مصر، اعتبر ج. هيوارث- دن مدرسة الهندسة هذه باكورة نوع من المدارس صُمِّم أساسًا لتدريب إداريين ليواكبوا احتياجات نظام محمد علي الجديد. تطورت المدرسة وتوسعت تباعًا عقب نقلها إلى القصر العيني في ١٨٢٥ لتصبح مدرسة أبي زعبل الشهيرة عام ١٨٣٦، ويمكن إرجاع بداياتها إلى أول مدرسة للمماليك في القلعة.[٢] ولكن الدلائل تُشير إلى فصل أقل حدة بين المدارس المدنية والعسكرية، على الأقل خلال هذه الفترة المشكلة والفوضوية. وبرغم من أن مماليك القلعة - والذين استُبدل بهم لاحقًا عبيد سود جُندوا من النوبة وسنّار [بالسودان] وفي أضيق الحدود بالفلاحين المصريين- قد شكّلوا معظم متدربي معسكر الكولونيل سيف بأسوان الذي بدأ يعمل بكفاءة من ١٨١٨، فالجدير بالذكر أن الكثير منهم قد وجد طريقه لمدرسة الجهادية الحربية؛ وهي نسخة مُوسعة من مدرسة بولاق التي فتحت أبوابها لأكثر من ٦٠٠ طالب مستجدٍّ في موقعها الجديد بالقصر العيني في يوليو ١٨٢٥، ولكن من الجدير بالإشارة أن القصر العيني بقي مستودعًا عسكريًّا؛ حيث أُنشئ أصلاً كمأوى للجنود من العبيد العابرين الذين اشتراهم الباشا في طريقهم إلى مهماتهم العسكرية.[٣] اختلط هؤلاء بالطلبة الجدد من نفس العرق كسالفيهم في بولاق، ولكنهم يتلقون تعليمًا أعمق بنظام أكثر انضباطًا. وكانت المهمة العملية الأساسية للطلبة والمدرسين على حدٍّ سواء في مدرسة بولاق الأصلية، إجراء مسح تفصيلي لأراضي مصر السفلى، وهو ما استمر بشكل متقطع في القصر العيني. وربما أسهم هذا في خريطة مصر السفلى الصادرة عام ١٨٢٧ لباسكال كوست؛ المعماري وخبير تاريخ الفن الإسلامي، والذي يبرز بصفته المدرس الموهوب الوحيد في مدرسة بولاق.[٤]

كان عثمان نور الدين؛ ابن رئيس سقاة محمد علي وذو السمعة السيئة، هو أول مدير للمدرستين. وبدافع من بوختي؛ القنصل السويدي إيطالي الجنسية، أرسل نور الدين؛ المغامر سريع البديهة، في رحلة إلى إيطاليا من ١٨٠٩ إلى ١٨١٧ لدراسة الهندسة والطباعة والعلوم العسكرية في ليفورنو وميلان وروما، ثم في باريس لمدة أقل من عام؛ حيث احتضنه جومار.[٥] وشكلت مجموعة الكتب المتنوعة التي جمعها خلال رحلته أساس مكتبة بولاق. مالت حياته العاصفة نحو تعتيم المرحلة الأولى لمسيرة مهنية شاردة ضمت تعيينه كأول رئيس أركان لمصر عام ١٨٢٥، ثم بعدها بثلاث سنوات كفريق أول [ترجمة Admiral أدميرال أو أميرال، المأخوذة عن «أمير البحر» بالعربية وتعني قائد

---

(١) اقتباس من Silvera, "Edme-François Jomard": 212 وفيه إعادة طباعة مقتطفات من مذكرة جومار.

(٢) Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education*: 111 وما بعدها.

(٣) *Ibid.*: 117, no. 7.

(٤) *Ibid.*: 108, no. 5; Guyot de Fère, *Notice sur les travaux de M. Coste Pascal-Xavier*, architecte (Amiens, 1862): 2.

(٥) يقول عنه جومار في تقريره السري إلى الباشا «هذا العصفور النادر، تركي موهوب لديه ذوق أصيل للثقافة الغربية»، انظر: Silvera, "Edme-François Jomard": 212.

الأسطول] للأسطول المصري الذي سعى لـ«تغريبه» بتبني الشفرة البحرية الفرنسية التي أحضرها معه من فرنسا، وتُوجت بارتداده نحو تركيا عام ١٨٣٤ نتيجة لإثارته غضب الباشا لإدارته المتساهلة لجزيرة كريت.[1] وكان مخطط رحلته الأوروبية يشير إلى رغبة الوالي الغريزية، بعد توليه السلطة، للتوجه نحو إيطاليا تحديدًا لتدريب كوادر وفنيين بدلاً من استمرار الاعتماد على أجانب غير مؤهلين ولا يمكن الوثوق بهم. فُقدت أسماء الطلاب الآخرين، المقدر عددهم بإجمالي ثمانية وعشرين أُرسلوا إلى الخارج فرادى أو في مجموعات صغيرة حتى عام ١٨١٨، في حريق ١٨٢٠ الذي دمر سجلات القلعة.[2] ولم نعرف غير اسم نيقولا المسابكي؛ الطابع السوري الذي كان مسئولاً عن المطبعة العربية الشهيرة التي أُنشئت داخل مدرسة بولاق حين عودته من ميلان عام ١٨١٩.[3] وحمل موقع المطبعة دلالة كبيرة؛ حيث ارتبطت حركتا الطباعة والترجمة بالحاجة إلى التعليم الفني والتقني.[4] وكان أول كتاب يصدر من المطبعة ذا مغزى أيضًا؛ وهو قاموس إيطالي / عربي جمعه القسيس الملكاني روفائيل دي موناكيس، العلّامة الذي كان مدرسًا للعربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس، وكان «المصري» الوحيد الذي انتُخب في المجمع العلمي المصري.[5] وكانت الإيطالية هي الوسيط الرئيسي للتدريس في كل هذه المدارس؛ حيث كانت لغة التواصل المشترك في الشام. واستمرت الترجمة المتعاقبة، بكل مساوئها التربوية، بوصفها الطريقة المتيسرة الوحيدة لتمكين المدرسين متنوعي الخلفيات والثقافات من أداء مهمتهم، وذلك حتى نجاح مطبعة بولاق في إنتاج كتب دراسية وتوضيحية مناسبة.[6]

(١) G. Durand-Viel, *Les campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim* (Paris: Impr. Nationale, 1935): 1, 431; J.J. Marcel, M. Xavier and Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Egypte*, vol. 2 (Paris: A. J. Dénain et Delamare, 1832): X, 142-43.

(٢) Yacoub Artin, *L'instruction publique en Egypte* (Paris, 1890): 14, Annexe E.

(٣) Heyworth-Dunne, "Printing and Translation": 331.

(٤) Ibrahim Abu-Lughod, *The Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters, Saqi Essentials* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963): 31-32.

(٥) G. B. Brochi, *Giornale delle osservazionifatte ne'viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia*, vol. 1 (Bassano, 1841): 159; Charles Bachatly, "Un membre oriental du premier Institut d'Egypte, Don Raphaël (1759-1831)", *Bulletin de l'Institut d'Egypte* 17 (1934-1935): 237-60.

(٦) Abu-Lughod, *The Arab Rediscovery of Europe: 30-31.*



منطقة أبي زعبل؛ حيث المدارس التي أسسها محمد علي باشا

ولكن النتائج المتواضعة لمدرسة القصر العيني والتي جاءت بعد ثمن باهظ أقنعت الوالي أخيرًا أن يتطلع إلى أوروبا ثانيةً بوصفها أسرعَ وربما أرخص للوصول لهدفه. سارع نور الدين بالاعتراض خوفًا من الإنقاص من وضعه المميز؛ حيث كان «مدرس الفرنسية» الأوحد في مدرسة بولاق، فضلاً عن منصبه كمديرها، كما تذكر سجلات المدرسة.[١] بدا أن بوغوص؛ [بوغوص بك يوسفيان] وزير الخارجية، كان يُفضِّل إرسال الطلاب إلى إيطاليا أو إنجلترا، واستشار صديقه دروفيتي والذي أوضح ولاءه الحقيقي بإقصائه خيار إيطاليا، وذلك في رده بتاريخ ٧ يناير ١٨٢٩، والذي كتب فيه أن جامعات إيطاليا تهفت تحت واطئة الأنظمة الرجعية وأن التعصب الديني يغلب على شعبها الذي يعادي المسلمين، في حين تتميز باريس بالتسامح والكرم تجاه الأجانب ومناخها الصحي ومؤسساتها المتميزة في التعليم العالي. وأكد أن الرأي العام الفرنسي يمكن أن يُظهر «بعض الخير للأتراك» بالرغم من أن «الحرب الآن ضد اليونان»[٢] [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية]. وفي ٢٦ فبراير بعد أسابيع من المكائد بين المنحازين للفرنسيين والمنحازين للإيطاليين، استطاع الجنرال بوير أخيرًا أن يكتب للجنرال بليار في باريس أن معسكر فرنسا قد فاز.[٣] وصدر الأمر لأعضاء البعثة المصرية وعددهم أربعة وأربعون أن يتجمعوا في الإسكندرية للمغادرة.

لا نعرف إلا القليل عن كيفية اختيارهم، إلا إشارة سريعة في إشعارٍ من القنصل الفرنسي إلى البارون دي داماس؛ وزير الخارجية، بتاريخ ٤ إبريل يؤكد أن قرار إرسالهم جميعًا قد صدر بعد جدل كبير. ويذكر ماليفون، وهو من حل محل دروفيتي الذي غادر إلى الإسكندرية ليتعافى من الإجهاد، أن معظمهم ينتمون إلى عائلات ميسورة «يملأها الطموح باعتبارها من المفضلين في هذه المناسبة»[٤] [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية]. كان هذا بالضبط ما حدث مع الطلاب الأربعة الموهوبين من الأرمن الكاثوليك؛ سيكياس أرتين وأخويه خوسرو، وإستيفان [يشير إليه عمر طوسون بـ«اصطيفان»] ويوسف، وجميعهم محميون من مُواطنهم بوغوص الذي يحمل نفس ديانتهم. وجاء اختيار باقي الطلاب تقريبًا، الذين ينتمون إلى الطبقات الحاكمة، بناءً على المحسوبية وليس قدراتهم الفردية. وطبقًا لقائمة ج. هيوارث- دن، التي أعدها من أعمال الأمير عمر طوسون ويعقوب أرتين (ابن سيكياس الأكبر) وعلي مبارك، يجيء تحديد انتماءات الطلاب العرقية أسهل بكثير من تحديد علاقاتهم الأسرية.[٥] يعد المصدر الحديث [استخدم المؤلف لفظ «معاصر»] الوحيد هو «قائمة التسميات» لجومار والذي ضمه كملحق في تقريره الطويل لقياس تقدم الطلاب والصادر في «لو نيفو جورنال آسياتيك» (المجلة الآسيوية الجديدة) عام ١٨٢٨، ولكنه للأسف، اختصارًا، حذف كل المعلومات التي جمعها عن خلفياتهم الأسرية.[٦] كانت البعثة حينها قد تضاءل عددها إلى سبعة وثلاثين عضوًا؛ حيث غادر خمسة من المبعوثين الأصليين من العاصمة إلى الأقاليم للتدريبات العملية، وعاد اثنان من الشيوخ المصريين الخمسة؛ الشيخ محمد الرُّقيّق والشيخ العلوي، بالإضافة إلى وهبة أفندي، إلى الديار واستبدل بهما طالبان مصريان إضافيان عُرفا بالاسم فقط في تقرير جومار. كان العنصر الغالب في المجموعة، والتي كانت غالبيتها - كما يؤكد جومار- مُكوّنة من سلالة نبلاء عائلات القاهرة، بالطبع من الأتراك أو متحدثي التركية. وُلد ستة عشر منهم في القاهرة، ووُلد الثمانية عشر الآخرون في أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية. وينتمي اثنان منهم على الأقل إلى قولة؛ موطن الباشا الأصلي. لاحظ جومار، الذي كانت عنده الفرصة ليتأملهم عن قرب لمدة تقارب العامين، أن من وصل منهم إلى مصر قبل عامه الرابع عشر كان أكثر تقدمًا من الباقين، باستثناء أرتين؛ البارع ومتعدد القدرات والسابق لأوانه والمولود في القسطنطينية عام ١٨٠٠. يدّعي ما لا يقل عن خمسة وعشرين طالبًا أنهم منتسبون إلى مدرسة بولاق أو مروا على مدرسة القصر العيني، ولكن مثلهم مثل الطلاب الخمسة الباقين الذي درسوا في أماكن أخرى أو على يد مدرسين في المنزل، لم يتحصلوا إلا على معرفة أولية بالحساب. كان قليل من الأتراك يتحدثون العربية، وكان بعضهم يعرف القليل من الإيطالية. وباستثناء الأرمن الأربعة، كان جميعهم من المسلمين. ونزولاً على طلب المدرس الأزهري الشيخ حسن العطار، كما هو معروف، ضُم الشيخ رفاعة الطهطاوي إلى البعثة في آخر لحظة ليكون إمامها. كان الطهطاوي في الخامسة والعشرين من عمره حينها وأصغر قليلاً من الباقين الذين كان متوسط أعمارهم السادسة والعشرين، بين عبدي أفندي أحد قادة المجموعة الثلاثة والذي كان في السابعة

(١) Augustin Daniel Belliard, Georges Douin and Pierre-François-Xavier Boyer, *Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly : Correspondance des généraux Belliard et Boyer* (Cairo: Impr. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale pour la Société Royale de Géographie d'Egypte, 1923): 110.

(٢) Giovanni Marro, ed., *La personalita di Bernardino Drovetti: Studiata nel sou archive inedito* (Rome, 1951): 86-7.

(٣) Belliard, Douin and Boyer, *Une mission militaire*: 110.

(٤) France. Archives du Ministère des Affaires Etrangères, "Le Caire", *Correspondance politique* 26 (4 April 1826), fol. 282.
وقد ساعدت العلاقات الأسرية في اختيار الطلاب الأتراك المرسلين إلى باريس أيضًا، انظر:
Richard L. Chambers, "Notes on the Mektebi Osmani in Paris, 1857-1874", *Beginnings of Modernization in the Middle East in the Nineteenth Century*, edited by William R. Polk and Richard L. Chambers (Chicago: University of Chicago Press, 1968): 323.

(٥) Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education*: 163.

(٦) E.F. Jomard, "L'école égyptienne de Paris", *Nouveau journal asiatique* 2 (August 1828): 96-116. بالإضافة إلى معلومات عن أسرهم لا يمكن ضمها في هذا التقرير لكثرتها. ص ١١٣ [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية].

والثلاثين، ومحمد أسعد الذي كان دون الخامسة عشرة ومقررًا له أن يتعلم الطباعة. خُصصت بعض الوظائف الخدمية الأخرى، مثل الطب والصيدلة للمصريين. ولم يكن أيٌّ من الطلاب يعرف أي قدر من فرنسية. وعلى العكس من تأكيد دروفيتي، كان وصول المصريين إلى مرسيليا في ١٥ مايو مرحبًا به في ظل إحياء الميل الإغريقي الذي أثاره قبل شهرين أخبار تكليف محمد علي لليفبور دو سريزي ببناء فرقاطتين [نوع من السفن الحربية السريعة] مصريتين جديدتين في ترسانة المدينة.(١) وهكذا وجد الطلاب أنفسهم عن غير قصد متورطين في قضية دور مصر في حرب استقلال اليونان. أدانتهم الصحف المتطرفة بوصفهم أدوات يستعملها فيليل؛ رئيس الوزراء، في سياسته الخبيثة المحابية لتركيا، ولم ينتقد هذا الاتجاه سوى «الإنسيكلوبيدك ريفو»؛ الإصدار الباريسي الأكاديمي الرصين؛ حيث أكَّد على ضرورة التفريق بين الإبادة المصرية لليونانيين في مورية – وهي السياسة التي ادَّعت الصحيفة أنها فُرضت على الباشا من الدولة العثمانية – من ناحية، وبين «إصرار الأمير على الحكمة واستثماره في النتائج باعتماده» [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية] اختيار فرنسا لإرسال النخبة للسعي وراء التنوير.(٢) ومع انحسار الجدل وانتهاء الحجر الصحي الذي استمر ثمانية عشر يومًا، كرَّس الأفندية شهري يونية ويوليو لإتقان الأبجدية الفرنسية في فندق مستأجر مخصص لدروسهم، وكوفئوا بنزهات أيام الآحاد في شوارع وحدائق المدينة؛ حيث تعرضوا – للمرة الأولى – إلى العادات الغريبة للمدن الغربية؛ الصحف والنساء السافرات والمقاهي، في حين يزورون المعالم السياحية في شارع كانبير. كان أكثر ما أذهل الطهطاوي في هذه البنايات المزدحمة والصاخبة هو العدد الهائل من الناس الذي يمكن حشره في مثل هذه الأماكن الصغيرة. أصيب بالارتباك لرؤيته صورته وصور زملائه وسط صور طبق الأصل من أشخاص آخرين، قبل أن يدرك أن سبب هذا الخداع البصري هو انعكاسات مرايا الحائط، وهو الشيء الذي لم يره قط من قبل.(٣) مثل هذه التجارب المحببة الساذجة والبريئة تتكرر في الفقرات الأولى من تخليص الإبريز في تلخيص باريز وتضع أساس جانب واحد لعمل سوف يسطر بداية تجذير مؤلفه كأول داع لتوجه جديد للوعي الذاتي المصري. كان ضم رجل في مكانة الطهطاوي إلى البعثة حدثًا تصادفيًّا سعيدًا حمل دلالة في المستقبل. لم تستطع الانطباعات الأولى عن هذا العالم العجيب وغير المألوف في الكتاب العظيم تجنب إلقاء الضوء على ظواهر يمكن أن تبدو غريبة أو هامشية مثل استخدام الشوك والسكاكين أو السرير المرفوع عن الأرض أو أجراس الكنائس التي سمعوها لأول مرة عندما رست «لا ترويت» في مسينة [بإيطاليا]. تمثِّل هذه الملاحظات وأخريات على شاكلتها متناثرة في التخليص جزءًا ليس بذي أهمية من الكتاب، ولكنها تُرَكِّز على العوائق الهائلة التي وقفت في طريق الطلاب ذوي القدرات الأقل حين وَطِئَتْ أقدامهم باريس لاستكمال دراستهم.



رفاعة الطهطاوي

(١) Georges Douin. *Les premières frégates de Mohamed Aly (1824-1827)* (Cairo: Impr. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale pour la Société Royale de Géographie d'Egypte, 1926): 7.

(٢) *Revue encyclopédique* 30 (May 1826): 577.

(٣) Caussin de Perceval, trans., "Relation d'un voyage en France par le Cheikh Réfaa", *Nouveau journal asiatique* 11 (June 1833): 231.



ولتسهيل تكيف الطلاب على الظروف الجديدة التي تنتظرهم في العاصمة، قرر جومار ضم خمسة مترجمين فوريين إلى البعثة، اختارهم جميعًا من مستعمرة المعلم يعقوب من «اللاجئين» المصريين وأسرهم والذين كانوا مازالوا يحاولون الاستقرار من خلال إعانة وزارة الحرب منذ استقرارهم في مرسيليا عام ١٨٠٢. وردت أسماؤهم في أرشيف قصر فنسان كالتالي: جان فرعون وميشيل حلبي وعيد بجالي وجوزيف عوض.[١] أما الخامس؛ جوزيف- إيلي أجوب [يشير إليه الباحثون بأسماء مختلفة: يوسف أكوب ويوسف أغوب ويوسف يعقوب، وذكره الطهطاوي باسم يعقوب المصري]، فيستحق ضوءًا أكثر ليس فقط لأنه كان مسئول الاتصال الدائم في البعثة خلال إقامتها في باريس، ولكن أيضًا لأن قصيدته «القيثارة المهشمة» كانت العمل الأدبي الوحيد بقلم مصري والذي رأى الطهطاوي أن يترجمه إلى العربية[٢] [بعنوان «نظم العقود في كسر العود»]. وكان أحد موضوعات هذه المبالغة الرومانسية مديحًا لمحمد علي والتغني بأمجاد ماضي مصر الفرعوني.[٣]

من المستبعد أنه كان لهذه الأبيات، الصادرة عام ١٨٢٤ في أوج الرواج الباريسي لعلم المصريات، أثر مباشر على مشاعر الطهطاوي الوطنية، ولكنها بلا شك حققت هدف كاتبها؛ حيث ورد اسمه في بلاط الباشا وحصل أجوب على منصب مساعد جومار براتب شهري سخي يصل إلى ألف فرنك، وذلك بعد ترجمة القصيدة إلى التركية على يد برغوص.[٤]

ولد أجوب في القاهرة عام ١٧٩٥ لأب أرمني وأم سورية، وانتمى لتلك المجموعة من شوام مصر الذين أدوا، في أعقاب الحملة الفرنسية، دورًا لا يمكن تجاهله كوسطاء ثقافيين بين وطنهم الأصلي ووطن المهجر. ضمت المجموعة أيضًا روفائيل دي موناكيس؛ مدرس العربية لشامبليون في مدرسة اللغات الشرقية، وإلياس بقطر؛ القبطي الذي خلفه في المنصب ومُعِد قاموس عربي عامي- فرنسي استكمله بعد وفاته كوسان دي برسفال، والسوري بازيل فخر؛ القنصل الفرنسي في دمياط الذي كان المحرك الحقيقي لحركة الترجمة المصرية طبقًا لكاتب سيرته أوريان، وجوني فرعون- ربما الأكثر موهبة في هذه المجموعة-؛ أستاذ اللاتينية ومؤلف أول كتاب نحو جزائري والذي أنهى مسيرته بمنصب كبير مترجمي البعثة الفرنسية بالجزائر. وقد أسهموا جميعًا، ولو بقدرٍ متواضع، في دعم العلاقات المصرية الفرنسية في الدوائر الأكاديمية المغلقة التي كانوا يتحركون داخلها.[٥] ولكن أجوب تميز عن الباقين لكونه - أولاً وأخيرًا - كاتبًا أخذ على عاتقه تجسيد صورة غاية في الرومانسية عن مصر، القديمة والحديثة، من خلال أعماله الأدبية التي كان لها شأن رفيع في صالونات باريس الأدبية التي كان يتردد عليها، وخاصةً صالون مدام دوفرينوي الذي بدأ فيه مسيرته الأدبية في عشرينيات القرن التاسع عشر. احتفى بيرانجيه ونوديه ولامارتين بأجوب لجذوره الشرقية التي بدت ساحرة، ووجد بين أدباء ومثقفي باريس معجبين كثيرين، خاصةً لقصائده العاطفية والمتكلفة مثل «ملحمة لمصر» التي نظمها بنفس الأسلوب المزخرف الذي استخدمه في مقدمة كتاب تاريخ مصر في عهد محمد علي لفيلكس مانجان الصادر في ١٨٢٣. على المدى الطويل، كانت ترجمة أجوب الماهرة للمواويل؛ الأغاني الشعبية التي كان يسمعها في صباه تُغنى بصوت المصريين المنفيين في مرسيليا، هي ما أظهر جانبًا أكثر صدقًا عن مصر للقراء الفرنسيين، وألهمت واحدًا على الأقل هو جوستاف فلوبير أن يكتب العمل الأصيل الوحيد عن رحلته إلى مصر فلوبير في مصر[٦] [ترجمة العنوان الأصلي بالفرنسية «أغنية بائعة الهوى»، ويعد هذا الكتاب حجر الأساس للاستشراق كمدخل نقدي كما ابتدعه إدوارد سعيد في كتابه الهام الذي يحمل نفس الاسم]. كما أبرزت المواويل قدرته النادرة على ترجمة العامية المصرية إلى شعر فرنسي موقوف وموزون. كوفئ أجوب لمساعدته جومار على مراجعة هجاء الكلمات العربية بحروف لاتينية [Transliteration] في كتابه وصف مصر بتعيينه كمحاضر لغة عربية نصف الوقت في مدرسة

(١) Vincennes. Archives du Ministère de la Guerre, "Réfugiés d'Egypte".

(٢) *Gazette de France* (24 August 1827); *Revue encyclopédique* 36 (October 1827): 208-209.

(٣) Joseph Agoub, *La Lyre brisée* (Paris, 1827): 6.

(٤) Marro and Paribeni, *Il Corpo epistolare*: 12-13; S. Zavatti, "Lettere inedite di Bernardino Drovetti console francese in Egitto", *Oriente Moderno* 45 (November-December 1965): 878-88.

(٥) عن بازيل فخر، انظر: Jean-François Champollion and L. de la Brière, *Champollion inconnu : Lettres inédites* (Paris, 1897): 59; Bachatly, "Un membre oriental du premier Institut d'Egypte"; E.F. Jomard, "Notice sur Ellious Bochtor", *Revue encyclopédique* 22 (October 1821): 543-552; Anouar Louca, "Ellious Bochtor : Sa vie, son œuvre", *Cahiers d'histoire égyptienne* 5, fascs. 5, 6 (December 1953): 309-20; Auriant, "Un précurseur du Docteur J.C. Mardrus", *Le Monde nouveau* (1-15 September 1923): 176-181; Auriant, *Aventuriers et originaux* (Paris, 1933): 70-104. وبخصوص فرعون، انظر: Henri Massé, "Les études arabes en Algérie (1830-1930)", *Revue africaine* 74 (1933): 210-11.

(٦) Jean-Marie Carré, *Voyageurs et écrivains français en Egypte*, vol. 2 (Cairo, 1952): 116.

حديقة لوكسمبرج الفرنسية – الحي اللاتيني

اللغات الشرقية بعد وفاة إلياس بقطر عام ١٨٢١. كان أجوب أجوفَ وسطحيًّا، ولم تصل إسهاماته الأكاديمية إلى مستوى بقطر أو روفائيل دي موناكيس، ولكن جومار قدَّر له قيامه بالأعمال الإدارية للبعثة وإشرافه على الأنشطة اليومية والتأكد من حالة الطلاب المشمولين برعايته.(١)

عند وصولهم إلى باريس، نزل الطلاب أولاً في فندق في شارع كليشي، ثم في فندق لا جوش في ١٥ شارع ريجار ليس بعيدًا عن حديقة لوكسمبورج في الحي اللاتيني، وهو الفندق الذي استأجره جومار خصيصًا للبعثة والذي سيصبح إقامتهم الدائمة(٢).

(١) M. de Pongerville, "Notice", *Mélanges de littérature orientale et française*, Joseph Agoub (Paris, 1835): 3-7; Bibliothèque nationale de France, *Catalogue général des manuscrits français : Nouvelles acquisitions françaises*, 3580. fols (n.p., n.d.): 98- 103; 163-176.

(٢) Charles Mismer, *Souvenirs du monde musulman*, 3rd ed. (Paris: Hachette, 1892): 289; Jacques Tagher, "Les Locaux qui abritèrent la première mission scolaire à Paris existent encore", *Cahiers d'historie égyptienne* 2 (1950): 333-336.



شارع كليشي حيث يقع أول فندق نزلت به البعثة المصرية بباريس

ET MÉTROPOLITAIN



PARIS MONUMENTA

CLICHY
COURBEVOIE
LEVALLOIS-PERRET
PUTEAUX
NEUILLY
SURESNES
BOIS DE BOULOGNE
BOULOGNE
SÈVRES
ISSY
VANVES
MALAKOFF
MEUDON
CLAMART
MONTROUGE
SEINE FL.
Rond-Point de la Défense
Porte Maillot
Arc de Triomphe
Parc Monceau
Avenue des Champs-Élysées
Palais et Jardins du Trocadéro
Tour Eiffel
Champ de Mars
Quai Albert Ier
Les Invalides
École Militaire
Institut Pasteur
Fort d'Issy
Déposé – Reproduction interdite.



كانت استعدادات الطلاب غير ملائمة بالمرة، لدرجة أن جومار لم يكن لديه خيارٌ غير إعادة النظر في خطة الدراسة الأصلية وتأجيل التخصص حتى يملك الطلاب معرفة أساسية باللغة الفرنسية. ونتج عن هذا تأخير برنامجه الموضوع بعناية لمدة لا تقل عن عام، بيد أنه بالإضافة إلى الفرنسية، تعلم الطلاب مبادئ الرسم والخط العربي والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا يوميًا على يد أساتذة من الليسيه ومحاضرين عسكريين. ولأن كل الدروس كانت بالفرنسية لم يعد هناك حاجة للمترجمين الفوريين، فعادوا جميعًا إلى مرسيليا بعد عدة أشهر فقط في باريس ما عدا أجوب. وطبقًا للطهطاوي؛ وهو الطالب الوحيد الذي ترك سجلاً لهذه التجربة، كان البرنامج صارمًا يتكون من تدريبات متواصلة على النحو والمحادثة الفرنسية، يتخللها موادُّ أخرى عادةً بدون توقف من السابعة صباحًا حتى السادسة مساءً مع استراحة غداء قصيرة.[1] ولكن التقدم كان بطيئًا، بل أبطأ مما توقعه جومار؛ غالبًا لأن الطلاب كانوا يعودون إلى لغتهم الأم حين يختلون بأنفسهم.[2] وبعد أداء المجموعة المخيب للآمال في امتحان شامل بنهاية عامهم الأول في يوليو ١٨٢٧، تقرر تغيير الوضع بتقسيم الطلاب مجموعات أصغر وتوزيعهم على نزل قريبة ومنازل مدرسيهم؛ حيث - كما كان مأمولاً - يمكنهم تحسين إتقانهم للغة مع اختلاطهم بأقرانهم الفرنسيين الذين يستعدون لامتحان القبول في المدارس العليا. فحل أرتين وشقيقه خوسرو ومظهر؛ أكثر المجتهدين في الفريق التركي، ضيوفًا على منزل جوبوه؛ مؤسس مدرسة شابتال، في حين أقام الطهطاوي وآخرون مع ليميرسيه؛ سكرتير جومار الخاص وخليفته كمدير للبعثة بعد وفاته عام ١٨٦٢.[3] ومع ذلك، استمرت المحاضرات النظامية في الفندق بشارع ريجار، الذي أصبح أيضًا مركزًا اجتماعيًا لأعضاء البعثة وأحيانًا مكان إقامة لليلة. كان الانضباط صارمًا ويتبع نظامًا شبه عسكري يفرضه ثلاثة من قيادات المجموعة بالتوالي؛ عبدي ومختار وحسن، وثلاثتهم من الأتراك بمراقبة جومار الذي كان يشرف على الأنشطة حتى أدق تفاصيلها.[4] كانت الميزانية مسئولية عبدي، ولكن جومار هو من كان يملي عليه المصروف الذي يستحقه كل طالب،[5] ويقوم بترتيبات زيارات الخميس والأحد للمسارح والمتاحف، ويجمع ملخصًا للأحداث الجارية بعنوان تقويم عام ١٢٤٤ هجريًا مع الحرص على حذف أي إشارة لحرب استقلال اليونان.[6]

في باريس، نادرًا ما أثَّرت الحرب على الرأي العام تجاه هؤلاء الواصلين الجدد، على عكس مرسيليا. ولم يدخر جومار جهدًا لوضعهم في بؤرة الاهتمام؛ حيث يصدر نشرات صحفية متواصلة حول تقدمهم العلمي، ويمدحهم بوصفهم سفراء النيات الحسنة - «الطليعة» كما جاء في أحد أحاديثه الصحفية - لما سوف يكون قريبًا نخبة مصر المستغربة.[7] كما أعرب الجنرال بيليار عن وجهة نظر مماثلة في إحدى المآدب المقامة على شرفهم؛ حيث وصفهم بأنهم حراس مستقبل بلدهم.[8] ولكن هذه النبرة الاحتفائية قلت كثيرًا خارج الأوساط الأكاديمية؛ ولم تستطع الصحافة الشعبية مقاومة إغراء التركيز على الجوانب الهزلية في أول لقاء بين الطلاب والغرب. وسرعان ما أصبح هؤلاء، بملابسهم وطرابيشهم التقليدية وهم يسيرون في طوابير من متحف إلى آخر، أضحوكة الجرائد الساخرة التي صورتهم كشرقيين تائهين مثل «البدائي النبيل» المبهور بأضواء المدينة الغربية. فأعادت «لا باندور»، على سبيل المثال بأدق التفاصيل، تصوير المحاولات اليائسة لأحد الطلاب لمقاربة كل النساء السافرات بحريمه في دمياط أثناء نزهة في الباليه رويال، وفي استرجاع لموضوعات متعلقة بتركيا والإمبراطورية العثمانية كما تبلور في مسرحية البرجوازي النبيل، جعلهم أحد كُتاب الاستعراضات المسرحية شخوصًا رئيسية في أوبرا كوميدية عُرضت لفترة طويلة على مسرح الفودفيل.[9]

زاد الفضول العام حول المصريين في باريس في ١٨٢٧، وأسهم فيه وصول زرافة مصرية إلى حديقة النباتات كهدية شخصية من محمد علي إلى الملك،[10] مما ألهم شاعرين من مرسيليا؛ وهما بارتيلمي وميري، لتصويرهم كأبطال كوميديين للمسرحية الشعرية لا باكرياد أو حرب الجزائر. تُصور هذه الملحة الشعرية الساخرة، المكتوبة بالمربع الشعري الموقوف، الطلاب كضحايا أبرياء لمؤامرة دولية؛ حيث أرسلهم الوالي إلى فرنسا ردًا على استغاثة باي [حاكم] الجزائر لمساعدته على استعادة ثروة سرقها ناثان بكري؛ مختلس يهودي جزائري، وكان يبذرها في باريس. مع توالي المفارقات، يخدع اليهودي الماكر هؤلاء الطلاب الخُرْقَ

(١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، أو الديوان النفيس بإيوان باريس (القاهرة: دار التقدم، ١٩٠٥): ١٤٧-١٥٠.

(٢) *Revue encyclopédique* 32 (October 1826): 837.

(٣) Gabriel Guémard, *Les réformes en Egypte d'Ali-Bey El Kébir à Méhémet Ali*, 1760-1848 (Cairo: Impr. P. Barbey, 1936): 302.

(٤) الطهطاوي، تخليص الإبريز: ٢٠-٢١، ١٥٠.

(٥) هذا بالإضافة إلى مرتبات الطلاب المحددة طبقًا لمعيار ثابت من القاهرة، والتي تتراوح من ٥٠٠٠ قرش لعبدي إلى ١٠٠ قرش للمصريين. وكان مرتب الطهطاوي ٢٥٠ قرشًا، انظر: Heyworth Dunne, *An Introduction to the History of Education*: 159-163.

(٦) Auriant, "Histoire du Cheikh Refaah", *Les Cahiers d'Occident* 49, no. 10 (10 September 1930): 147.

(٧) *Le Moniteur universel* (13 August 1826).

(٨) خطاب من بيليار إلى بوير بتاريخ ٤ أغسطس ١٨٢٤، انظر: Belliard, Douin and Boyer, *Une mission militaire*: 132.

(٩) «لا باندور» ٢٢ و٢٦ أغسطس ١٨٢٦. كان عنوان الأوبرا *La Girafe, ou une journée au Jardin du Roi* ومن تأليف م. ثوبان.

(١٠) *Revue encyclopédique* 35 (July 1827): 258-61; Hans Haug, "La girafe de Charles X : Son influence sur l'art populaire et la mode", *Revue des arts et traditions populaires* (1934): 119-130; Georges Dardaud, "L'extraordinaire aventure de la girafe du pacha d'Egypte", *Revue des conférences françaises en Orient* 15, no. 1 (January 1951): 3-11.


LA GIRAFFE,
VISITÉE PAR LES SAUVAGES INDIENS AU JARDIN DU ROI A PARIS.

وينجح في استغلالهم لإثارة حفيظة حكومة فرنسا وإعلان الحرب على الجزائر لتدخلها في شئونها الداخلية. كان بكري، «هيلين طروادة حرب الجزائر» كما يسميه الكاتبان، شخصية حقيقية. ثبت لاحقًا أن هذه الحبكة المسلية، بكل عبثها وجمعها الحقيقة بالخيال، تتنبأ بالمستقبل؛ حيث إنه بعد ثلاث سنوات استخدمت حكومة بوليناك هذه الحادثة كذريعة مناسبة لغزو الجزائر.[1] وبالنسبة للتأثير الوقتي المباشر، أدى نجاح المسرحية إلى إعادة الضوء مرة ثانية على الطلاب الحقيقيين، مما مهد الطريق إلى الدعاية الكبيرة التي أفردها جومار إلى امتحانهم الشفوي النهائي الذي عُقِد في القاعة الرئيسية لمدرسة اللغات الشرقية بشارع ليل في ٢٨ فبراير و١ مارس ١٨٢٨.

أدت دعوة مجموعة من الشخصيات رفيعة المقام للحضور إلى التأكيد على جدية المناسبة، ومنهم بعض أبرز مستشرقي فرنسا؛ جوبير وبيانكي وجارسان دي تاسي، وأعضاء أكاديمية اللغة الفرنسية الجنرال بيليارد وكوستاز وآخرون من خبراء حملة بونابرت، بالإضافة إلى السير سيدني سميث بصحابة القنصل البريطاني ديفيد مورير في لفتة تدل على الأهمية الدولية للحدث. وترأس لجنة المتحنين

(١) H. Barthélemy and Joseph Méry, *La Bacriade ou la guerre d'Alger* : *Poème héroï-comique en cinq chants* (Paris: A. Dupont, 1827); Charles-André Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine, vol. 1, La conquête et les débuts de la colonisation* (1827-1871) (Paris, 1964): 21-28.





كونت دي شابرول [جاسبار دي شابرول]، أحد قدامى المحاربين في الحملة على فرنسا والمسهم في وصف مصر، والذي أصبح عمدة إقليم السين. سبق الامتحان الشفوي بأسبوع امتحانٌ تحريريٌّ من جزأين: اختبار لمدة ساعة في التعبير بالفرنسية، وآخر لمدة ساعة وربع يشمل الحساب والجبر والهندسة والرسم. يظهر من سجلات جومار، التي ضمَّن فيها أسئلة الرياضيات الخمسة، أن المتوقع من الطلاب كان قليلاً ولا يتعدى الحساب الأساسي.[1] كان أداء بعضهم على الأقل في اختبار المقال بالفرنسية أكثر بهرًا؛ حيث كان مطلوبًا منهم كتابة خطاب إلى أهلهم في مصر يصفون فيه أكثر ما أعجبهم خلال عامي إقامتهم في باريس. وكان أفضلهم، وهو الخطاب الوحيد الذي ضمه جومار في تقريره، بقلم مظهر واتضح فيه إتقانه للتعابير والمصطلحات الفرنسية مع حس فكاهي ساخر. وقد استفاد مظهر الذي حصل أيضًا على المركز الأول في الهندسة، من الدروس التي تلقاها في مدرسة بوربون خلال السنة السابقة مع الأربعة الأرمن حين حل سادسًا بين سبعين طالبًا.[2] استكمل مظهر مسيرته كمهندس حربي ساعد موجل على بناء سد الدلتا وفنار الإسكندرية، وترقى ليصبح ناظر وزارة الأشغال العمومية قبل وفاته عام ١٨٧٢، مما أكد نظرية جومار حين اعتبره هو وبيومي أكثر تركيين واعدين في المجموعة. أظهر تركي آخر؛ خليل محمود، ذائقة أدبية عالية في الجزء الشفهي من الامتحان في رأي جومار. ويعد خليل مثالاً للطلاب الذين لم يتم توظيفهم جيدًا حين عودتهم إلى مصر؛ حيث كان يكسب قوته من عمله كمرشد سياحي، وقدَّره ماكسيم دو كامب؛ رفيق فلوبير في رحلته إلى مصر عام ١٨٤٩، واستغله كمصدر قيم لفصول الكتاب المعنية بثقافة مصر.[3] لم يكن أداء المصريين مثل أداء أقرانهم الأتراك في الامتحان، ولكن جومار حرص على ذكر أنه بناءً على المراكز الأولى والثانية، كان المصريون متأخرين بخطوة صغيرة عن الأتراك المولودين في مصر، مثل مظهر وبيومي. وكان أقل مستوى للطلاب الأتراك المولودين خارج مصر. الغريب أن الطهطاوي لم يحصل على أي مركز؛ بل تلقى بعض السخرية لأدائه غير المتقن في الاختبار الشفوي، لكنه يُمدح لترجمته الماهرة لأطروحة عن علم المعادن وتقويم جومار.[4]

بعد حفل التخرج الذي أقيم يوم ٤ يوليو في شارع ريجار، أعلن جومار عن وصول مجموعة جديدة من الطلاب، هذه المرة «إثيوبيون» ليتدربوا على المساعدة على استكشاف أعالي النيل. قدم دروفيتي الفكرة أولاً في ١٨١١ حين بُهر بالذكاء الفطري للعبيد السود العاملين بمصانع محمد علي، واقترح أن يُرسل بعضهم إلى فرنسا في سن مبكرة لتلقي تعليم جيد حتى يسهموا «في نشر الحضارة في قلب إفريقيا» على حدِّ قوله. ولكن كان عليه الانتظار حتى ١٨٢٧ لإقناع الوالي بالموافقة على هذه الخطة. وفي العام التالي، أعلم أعضاء الجمعية الجغرافية أن دروفيتي قد أطلق سراح ستة عبيد من إفريقيا تتراوح أعمارهم من التاسعة إلى الثانية عشرة ليتعلموا في باريس على نفقة الفرنسيين، وأنهم قد تمكنوا بالفعل من التحدث بالفرنسية بعد عدة أشهر فقط من وجودهم في العاصمة. جاء معظم هؤلاء من كردفان، وسكنوا في نزل في الضواحي بالرغم من كونهم أعضاء في البعثة المصرية تقنيًّا. لم يرد أي ذكر لهم في سجل الطهطاوي، ويبدو أن جومار كان حريصًا على فصلهم عن بقية الطلاب المشمولين برعايته. كل المصادر المعاصرة لتلك الفترة تقر بتمكنهم من الفرنسية، كما تقرر تقدمهم المذهل في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي. في إبريل ١٨٣٢، أخذ محمد علي على عاتقه مصروفات بقائهم. وكان أحدهم قد توفي بالسل حينها، وبقيَ الآخرون في باريس حتى يناير ١٨٣٦ حين تم استدعاء كل أعضاء البعثة الأولى إلى القاهرة فجأة. لا يوجد أي أثر لهم بعد هذا التاريخ، ولذا لا يمكننا تحديد إلى أي مدى نجح هؤلاء الشباب في تحقيق آمال دروفيتي.[5]

كانت البعثة المصرية في هذه الأثناء قد وصلت إلى مرحلتها النهائية؛ حيث انقسم الطلاب إلى خمس عشرة مجموعة وسُمح لهم أخيرًا باستكمال دراساتهم المتخصصة من إبريل. يؤكد جومار أنهم كانوا أحرارًا في اختيار تخصصاتهم، ولكن بيير هامونت؛ أحد أبرز نقاد نظام محمد علي يعارض هذا ويدَّعي أن جومار وحده كان المسئول عن القرارات، وهو ما يبدو أقرب للصحة.[6] مزج النظام المعتمد بين مجموعات دراسية وحضور دورات تعليمية مختارة في عدد من الكليات، كان بعضها يدرسه أساتذة مخضرمون مثل لاكور للعلوم العسكرية، وماكاريل للقانون الإداري، وأوليفيه للهندسة وعلم المدفعية، وجوثيه دي شوبري للكيمياء. بحلول الخريف، كان طالبان على الأقل؛ مظهر ومختار، مؤهلين جيدًا للقبول في المدرسة متعددة التكنولوجيا (إيكول بوليتيكنيك) والمدرسة الوطنية العليا للمناجم بالترتيب. وشهد العام التالي قبول طالبين مصريين كمنتظمين في كلية الطب. ويشير جومار إلى اختيار ثلاثة من الأرمن

(١) كان السؤال الخامس والأصعب هو «اضطر اثنان وأربعون رجلاً في عرض البحر أن يتقاسموا الماء لمدة ١٥ يومًا على أساس نصف لتر يوميًّا لكل رجل. احسب نصيب كل منهم إذا بقيت السفينة في عرض البحر لمدة واحد وعشرين يومًا». لكن جومار يضيف أن وقت الأسئلة كان محدودًا Jomard 98.

(٢) Jomard: 102-3, 105.

(٣) Maxime Du Camp, *Souvenirs littéraires*, vol. 2 (Paris, 1892): 472-473.

(٤) Jomard: 100, 104.

(٥) M. Pacho, "Essai sur la civilisation de l'intérieur de l'Afrique, d'après un projet de M. Drovetti, consul général de France en Egypte", *Bulletin de la Société de Géographie* 12, no. 54 (October 1827): 137-142; Pacho, "Sur un projet de M. Drovetti, consul général de France en Egypte, pour préparer la civilisation de l'intérieur de l'Afrique", *Revue encyclopédique* 37 (February 1828): 344-348; *Le Moniteur universel* (26 May 1830); Edme-François Jomard, "Education des jeunes éthiopiens envoyés en France : Extrait d'un rapport présenté à la Société d'Enseignement élémentaire, par une Commission spéciale, composée de MM. Bally, Coutelle et Jomard", *Revue encyclopédique* 46 (June 1830) : 806-809. وانظر أيضًا: Jomard to D'Abbadie, Bibliothèque Nationale, MS, *Nouvelles acquisitions françaises* 22430 fols (30 March 1841): 268-271.

(٦) Jomard: 105; Pierre N. Hamont, *L'Egypte sous Méhémet Aly*, vol. 2 (Paris: Leauty et Lecvonte, 1843): 192.

لدراسة القانون والدبلوماسية، بالإضافة إلى عبدي والجورجي سليم أفندي.[١] وفي عام ١٨٢٩، كانت مجموعة من أربعة طلاب، منهم الأرمني يوسف أفندي، قد أنهت دورة تعليمية في الفيزياء وعلم النبات وأرسلوا إلى المزرعة التجريبية الشهيرة في روفيل، التي أصبحت لاحقًا نموذجًا لمدرسة الزراعة التي أنشأها إبراهيم باشا في نبروه [بالدقهلية]؛ حيث طوَّر يوسف أفندي نوعًا من ِمندرين البرتقال؛ اليوسفي، ما زال يحمل اسمه حتى اليوم.[٢] وأرسلت مجموعة أخرى من خمسة طلاب، يوصفون بأنهم مهندسون بحريون، إلى المدرسة العسكرية في بريست حيث تدربوا، ما عدا طالبًا واحدًا، ليصبحوا بناة سفن. لا يمكن اعتبار معظم الباقين طلابًا بالمعنى المتعارف عليه؛ فقد تبعثروا، ومعهم الطلاب الجدد ومعظمهم من المصريين الذين وصلوا إلى فرنسا بأعداد متزايدة بعد ١٨٢٩، في المدارس الفنية والورش داخل باريس وخارجها ليتعلموا حرفًا مثل سبك المعادن ونسج الحرير وعلم الفلزات (التعدين) والصباغة والطباعة والحفر والنقش. أما الطهطاوي فقد اختاره جومار ليصبح مترجمًا، وهي المهمة التي شرع فيها بجدية في حين زملاؤه يستكملون دراساتهم التقنية. وبالإضافة إلى قراءة الكثير من الأدب الفرنسي الكلاسيكي والحديث، كما هو مُسجَّل في يومياته التي ستصبح أساس التخليص، تمكن الطهطاوي من استكمال ترجمة أربعة أعمال على الأقل قبل نهاية رحلته في باريس؛ هي مبادئ الحقوق السياسية وأصول الحقوق الطبيعية لبورلاماكي، وقلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر لديبنج، ومختارات جومار من جغرافية ملطبرون أو الجغرافيا العمومية، طبع ثلاثة منها تباعًا في مطبعة بولاق.[٣] وعندما خضع للاختبار في نوفمبر ١٨٣١ في امتحان نهائي أمام نخبة من المستشرقين، أثبت الطهطاوي أن إيمان جومار به كان في محله.[٤]

بمرور الوقت، بدأ عدد لا بأس به من أول مجموعة من الطلاب المصريين بالعودة إلى مصر. وغادر الطهطاوي نفسه بنهاية العام، ولحق به حفنة أخرى مع تفجر ثورة يوليو [ثورة ١٨٣٠]. ولكن طبقًا لبعض التقديرات، بقيَ أعضاء البعثة الطلابية الأولى في فرنسا لخمس أو ست سنوات في المتوسط.[٥] شجعت نتائج البعثة محمد علي، وأقنعه جومار بتأسيس البعثة على أرضية أكثر ديمومة وزيادة أعدادها بقادمين جدد أفرادًا ومجموعات خلال السنوات التالية. وقدّرت بعض الدراسات أنه كان مسجلاً في البعثة ١١٥ طالبًا في ذروتها عام ١٨٣٣.[٦] كانت بعض هذه المجموعات تضم حرفيين من أنصاف المتعلمين تجنبوا باريس بالكلية، مثل المجموعة المكونة من ستة طلاب أُرسلوا في أغسطس ١٨٢٨ العام التالي لمعركة نافارين، إلى ترسانة تولون لدراسة الإنشاءات البحرية. ولكن غالبية من درسوا بالعاصمة كانوا ذوي قدرات عالية، معظمهم خريجون جدد من القصر العيني التي كانت حينها تعمل بكامل طاقتها بالفعل. تدرب هؤلاء على الهندسة ومواد أخرى مُكملة في مدرسة باريس؛ حيث تم تكييف المناهج تدريجيًّا لتلائم احتياجات طلاب جدد ذوي خلفيات أقوى من نظرائهم من مجموعة ١٨٢٦.

تستحق البعثة الطبية بقيادة كلوت بك عام ١٨٣٠ إشارة خاصة، لا سيما أنها هدفت لتوضيح أن مصر - بمدرستها للطب بأبي زعبل التي كانت تعمل منذ ١٨٢٧ - قادرة على الوقوف على قدميها في هذا المجال، ولتنهي نظام المحاضرات المزدوج الذي كان سائدًا في المدرسة بتدريب أعضائها الاثني عشر ليحلوا محل المحاضرين الأوروبيين عند عودتهم. كان جميع أعضاء هذه البعثة الطبية من المصريين، ماعدا طالبًا واحدًا، وعينوا جميعًا من الأزهر واختيروا بين أفضل العشرين الذين أنهوا السنوات الخمس الدراسية بأبي زعبل. جاء أداؤهم في الاختبار الذي عُقد بإشراف أعضاء من مدرسة الطب بباريس ليبرأ كلوت بك من مزاعم الدكتور باريست وباقي المعارضين الفرنسيين، ولكن أغلب الطلاب رأوا ضرورة مد بقائهم في باريس ليتأهلوا لدرجة الطب التي تشترط رسالة علمية بالفرنسية. ومن الجدير بالملاحظة أن ثلاثة من هؤلاء الطلبة تزوجوا نساء فرنسيات، وهو أول حدث مُسجَّل لزيجات مختلطة من هذا النوع.[٧]

كان نجاح بعثة كلوت بك هو أوج التاريخ المبكر للبعثة المصرية، مما دفع محمد علي للتعبير عن إعجابه بإرساله هدية لجومار عبارة عن مُسْعَط (علبة سعوط؛ ما ينشق في الأنف من دقيق التبغ) يصاحبه خطاب امتنان وتقدير.[٨] كان الجغرافي القدير قد رفض أي مقابل لخدماته، وأرجع عرضًا سخيًّا بمرتب عشرة آلاف فرنك سنويًّا في

(١) Jomard: 109-10.

(٢) Heyworth-Dunne: 151, no. 9.

(٣) T.X. Bianchi, "Catalogue des livres arabes, persans et turcs imprimés à Boulac en Egypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays", *Nouveau journal asiatique* 11 (1843): 24-60.

(٤) "L'examen final du Cheykh Refah", *Revue encyclopédique* 48 (November 1831): 521-23.

(٥) Eusèbe de Salles, *Pérégrinations en Orient ou Voyage pittoresque, historique et politique en Egypte, Nubie, Syrie, Turquie, Grèce en 1837-1839*, vol. 1 (Paris, 1840): 40.

(٦) Anouar Louca, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX^e siècle*, Etudes de littérature étrangère et comparée 61 (Paris: Didier, 1970): 46.

(٧) A.-B. Clot-Bey, *Compte rendu des travaux de l'École de médecine d'Abou-Zabel (Egypte), et de l'examen général des élèves pour les 1^re, 2^e, 3^e, 4^e et 5^e années de sa fondation 1242-1243 (1827-1828), 1243-1244 (1828-1829), 1244-1245 (1829-1830), 1245-1246 (1830-1831), 1246-1247 (1831-1832): suivi de l'exposé de la conduite et des travaux de l'auteur lui-même en Egypte, depuis 1240 à 1243 (hégyre) 1823 à 1832, et de diverses pièces relatives à son voyage en France (Paris: D.* Cavellin, 1833): 219-30; Clot-Bey, *Aperçu général sur l'Egypte* (Paris: Fortin; Masson, 1840): 11, 414. ولآراء مخالفة عن مستوى الطلاب، انظر: Hamont, *L'Egypte sous Méhémet-Aly*, vol. 2: 107. بالرغم من أن فخر كلوت بك بالطلاب تأكد بأدائهم في الاختبار أمام أعضاء هيئة تدريس أوتيل ديو في مارسيليا، والتي زاروها في طريقهم إلى باريس، انظر: *Le sémaphore de Marseille* (3 October 1832); *Le Messager de Marseille* (24 October 1832).

(٨) نشر الخطاب الكونت يوليس بوسيللي؛ حفيد جومار، انظر: E.F. Jomard, *Revue d'Egypte* 4 (January-April 1897): 72-78.

خطاب نُشر بكثافة عام ١٨٢٨، معلنًا أن دوافعه غيرية وإيثارية تمامًا وتُمثّل رغبة أصيلة من جانب فرنسا لتضييق الفجوة التي تفصل مصر عن الغرب. لكن خطاب جومار، بكل بلاغته عن أثر الحملة الفرنسية ومهمة فرنسا الحضارية، كان مقصودًا لتذكير الوالي بمسئولياته؛ فقد حذره بوضوح أن الهدف الأسمى لكل هذه الجهود التعليمية لن يتحقق «إلا إذا أُطلقت يد الطلاب عند عودتهم لنشر مبادئ العدالة والنظام التي تم إهمالها، للأسف، في هذه البلاد التعيسة».[١]

وبغض النظر عن هذه الآمال الوهمية، ربما يكون ملائمًا دراسة إلى أي مدى استطاع هؤلاء الطلاب ممن تلقوا تدريبًا أوروبيًّا تحقيق الطموح الأقل مبالغة لمحمد علي؛ فمن وجهة نظر الباشا، بالتأكيد لم يكن الهدف الرئيس للبعثة تشجيع اختراق أفكار غربية بين رعيته، ولكن صنع نواة من الحاشية المخلصة والمختارة بعناية تكون قادرة على الإسهام بفاعلية أكثر في تنفيذ طموحه بتحويل البلاد لتضاهي الغرب. صُمِّمت البعثة أساسًا لتكون الأداة الرئيسية لتحقيق الهدف بأسرع وقت ممكن؛ حيث نُظر إليها منذ نشأتها كجزء لا يتجزأ من برنامجه المتطرف لإصلاح التعليم. على المدى الطويل، كان من المنتظر من الطلاب أن يمدوا مصر بالمهندسين والفنيين والمدرسين الضروريين لوضع حجر الأساس لنظام إداري حديث مُسخَّر لآلة الوالي العسكرية.[٢] ولكن الحاجة الأمس كانت المساعدة على ترجمة النصوص الأوروبية العسكرية وكل ما يتعلق بها من موضوعات، وتزايدت أهميتها بانتشار المدارس المستغربة الثانوية والمتخصصة. وكان هدفها أيضًا إعفاء خزانته من الأعباء المادية للاعتماد حصريًّا على المحاضرين الأوروبيين المستقدمين للخدمة. وطبقًا ليعقوب أرتين، تحقق ذلك بطريقة اعتباطية وتعسفية؛ ولكن ربما تكون روايته لكيفية محاصرة الطلاب العائدين خلال أول ثلاثة أشهر لهم في القاهرة داخل جدران القلعة حتى ينهي كل منهم ترجمة دقيقة إلى التركية لكتاب من تخصصه ملفقة.[٣] تُعزز أدلة قدمها كُتَّاب آخرون نقطة أرتين الخلافية بأن كثيرًا من الطلاب قد تعرضوا لاستغلال قاسٍ ومُنِعوا من فرصة للعمل في تخصصاتهم.[٤]

فيؤكد بيير هامونت؛ أحد المصادر المعاصرة للفترة والمعارض لنظام محمد علي، وجهة النظر القائلة بأن الوالي فشل في توظيف مواهب العائدين؛ حيث تم تعيين مختار وأحمد، اللذين درسا العلوم العسكرية، في الخدمات المدنية، والمهندس البحري محمود؛ الذي تدرب في بريست وتولون، في وزارة الخزانة العامة، وإستيفان؛ الذي تخصص في العلوم السياسية والدبلوماسية، أولاً كمسئول المخازن والقرطاسية في وزارة التعليم قبل أن يثبت نفسه عندما خلف سكياس أرتين كوزير للخارجية حين فر الأخير من البلاد بعد اغتيال عباس، وأصبح بيومي؛ مهندس الطاقة المائية مدرس كيمياء، أما أمين؛ المصري الذي تدرب على سبك المعادن، فكان مسئولاً عن أحد مصانع الباشا الجديدة للبودرة.[٥] حتى الطهطاوي؛ أبرز أعضاء البعثة، لم يستطع الإفلات من هذه المهمات الغريبة والعشوائية، وشغل مناصب تابعة في مدرسة الطب بأبي زعبل ومدرسة المدفعية بطرة قبل أن يُعين أخيرًا عام ١٨٣٧ مديرًا لمدرسة الألسن التي أنشاها الباشا باقتراح منه.[٦] ويمكن اقتباس أمثلة صادمة أكثر لسوء توظيف بعض أعضاء هذه البعثة والبعثات اللاحقة من تجارب الرحالة الأوروبيين. فيُسجِّل ماكسيم دو كامب – على سبيل المثال– دهشته عندما اكتشف أن مُجلِّد الكتب البسيط الذي التقاه في الموسكي كان طالبًا سابقًا في البوليتكنيك. ويروي الفنان بريس دافين مصادفته لاثنين آخرين يعملان كصانع أحذية وجواهرجي لكسب قوتهما، أمضى أحدهما خمس سنوات لدراسة نسج الحرير في ليون.[٧]

ومع ذلك، وبالرغم من كل الارتجالات المتعجلة وعدم الكفاءة التي ميزت خطوات مصر الأولى نحو التحديث، فلا يمكن إقصاء هذه التجربة التعليمية الرائدة باعتبارها بلا جدوى على الإطلاق. لا يمكن إنكار أن معظم الطلاب وصلوا إلى باريس بدون إعداد جيد وفي سن متأخرة لا تسمح لهم إلا بتلقي معرفة أولية بالمواد التي فُرضت عليهم. وقد اعترف جومار نفسه بأنه، بالإضافة إلى عدم معرفتهم بالفرنسية، كانت سنهم وعدم تلقيهم قدرًا كافيًا وصلبًا من التعليم قبل وصولهم إلى فرنسا، عوائق عظيمة وقفت في طريق تحقيق أهداف البعثة.[٨] ووجد أغلبهم صعوبات في التكيف مع ظروفهم الجديدة؛ حيث حوصروا في زيهم

(١) *Le Moniteur universel* (12 March 1828); *Revue encyclopédique* 37 (March 1828): 843-5.

(٢) كشف فكتور شولهير؛ مُرَوِّج مناهضة العبودية، إصلاحات الباشا التعليمية بصفتها ما هي إلا واجهة مدفوعة فقط بطموحه العسكري. «لم تكن المدارس بالنسبة لمحمد علي إلا آلات للحرب؛ لقد نبذ اليوم دور المعتدي وفقد الأمل في انتزاع عرش السلطان. لم يعد بحاجة إلى السلاح؛ فهو بحاجة إلى مدارس.» [ترجمة من النص الأصلي بالفرنسية]، انظر: M. Victor Schoelcher, *L'Egypte en 1845* (Paris, 1846): 63; A. L. Tibawi, *Islamic Education: Its Tradition and Modernization into the Arab National Systems* (London: Luzac, 1972): 55.

(٣) Artin, *L'instruction publique*: 73.

(٤) على سبيل المثال، انظر: Paul Merruau, *L'Égypte contemporaine (1840- 1857) De Méhémet-Ali à Said Pacha* (Paris: Didier, 1858): 88; J.H. Gisquet, *L'Égypte, les Turcs et les Arabes*, vol. 2 (Paris: Amyot, 1848): 84.

(٥) Hamont, *L'Egypte sous Méhémet-Aly*: 11, 192-195.

(٦) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، مج. ٣، عصر محمد علي (القاهرة، ١٩٣٠): ٤١٤.

(٧) Du Camp, *Souvenirs littéraires*, vol. 1: 545-546; E. Prisse d'Avennes, "Politique et administration de l'Egypte moderne", *Nouvelles acquisitions françaises 20422* (n.p., n.d.), fol. 84.

(٨) خطاب من جومار إلى أرتين بتاريخ أكتوبر ١٨٤٤، مُقتبس في Gaston Wiet, "Quatre lettres inédites de Mohammed Ali", *La Revue du Caire* (October 1944): 37.

التقليدي واتبعت حياتهم نظامًا عسكريًّا صارمًا، وبدا أنهم لم يحتفظوا بالكثير بما له قيمة مستدامة من تجربتهم خارج البلاد. ولكن البعض الآخر؛ الأكثر موهبة وجرأة من رفقائهم، نجحوا في الحصول على بعض الاستفادة الحقيقية من تجربتهم الأولى في الغرب. بسبب نشأتهم المسيحية، وجد الأرمن أنفسهم - بلا شك - في الوضع الأفضل للتكيف والحصول على أكبر استفادة من إقامتهم في باريس. ولكن كان هناك أمثلة بارزة لأعضاء أتراك آخرين، بغض النظر عن خلفياتهم، مثل مظهر وبيومي ومحرمجي، الذين لم يدخروا جهدًا للتفوق في دراستهم وأظهروا تذوقًا وإعجابًا أصيلاً بالثقافة الغربية حاولوا بدورهم نقلها لزملائهم في الديار. الجدير بالذكر أن ثلاثتهم نجحوا في التخرج من البوليتكنيك واحتفى بهم أوجست كونت ورشح مظهر لتلميذه جون ستيوارت ميل عند زيارته التالية للندن.[١] عند عودتهم إلى مصر كان هؤلاء الطلاب أقل عددًا من أن يحدثوا أي تأثير لحظي، ولكنهم نجحوا في نهاية المطاف في التغلب على عدوانية البيروقراطية وساعدوا بعضًا من مستشاري محمد علي من الفرنسيين المستنيرين في إصلاح البلاد على النمط الغربي.

كان الأرمن بالتحديد، باعتبارهم جزءًا من دوائر الباشا المغلقة، من كوفئوا بالمناصب الهامة؛ فعُين أرتين واستيفان – بالترتيب - كوزيري خارجية بعد وفاة بوغوص؛ الأرمني بدوره، في حين تدرج خوسرو ليصبح السكرتير الأول لمحمد علي وعباس الأول من بعده. ألح مستشارو محمد علي السان سيمونين، خاصةً لامبرت بك والدكتور بيرون، عليه بالاستفادة من الأتراك الذين حصلوا بعدها على مناصب حكومية مرموقة؛ فأصبح عبدي ومختار وزيري تعليم، ومظهر وزيرًا للأشغال العامة، ومحمود نامي وزيرًا للمالية، وحسن الإسكندراني وزيرًا للبحرية بعد أن شغل منصب مدير ترسانة الإسكندرية. أما بالنسبة للمصريين فكان الطهطاوي بالطبع أبرز نتاج هذا المجهود التعليمي؛ حيث كان هو وحده من بين أعضاء البعثة من استطاع استيعاب الثقافة الغربية. وكان من نتائج تأثيره أيضًا أن البعثات اللاحقة إلى فرنسا ودول أوروبية أخرى ضمت عناصر أكبر من المصريين أصبحوا هجينًا من حضارتين متناقضتين بعد تعرضهم للأفكار الغربية، وأسهموا بوضوح في الحياة الفكرية والسياسية في مصر الحديثة في السنوات اللاحقة.

(١) Auguste Comte, *Lettres d'Auguste Comte à John Stuart Mill (1841-1846)* (Paris: E. Leroux, 1877): 123-124, 169, 177; Francis E. Mineka, ed., *The Earlier Letters of John Stuart Mill (1812-1848)*, vol. 2 (Toronto, 1963): 592, 617.

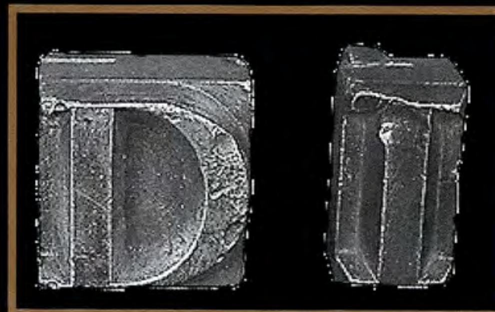


مطبعة بولاق

ودورها الحضاري

الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو





كانت أول مطبعة معروفة في مصر بعد دخولها تحت الحكم العثماني قد أقيمت على أيدي اليهود. وقام غرشوم بن أليعازر الذي ينحدر من عائلة عملت بالطباعة على مدى أربعة أجيال بطبع كتابين في القاهرة عام ١٥٥٧م تحت عنوان رفعت هاتلمود وبيترون هلمات، وذلك بآلات الطباعة التي جلبها من إسطنبول؛ واستمر يمارس نشاطه في الطباعة بعد ذلك حتى عام ١٥٦٢م. وعلى الرغم من إشارات بوجود كتب مختلفة طبعت في مصر، فإنه لا توجد معلومات قاطعة حول المطابع التي أقيمت بعد المطبعة اليهودية الثانية التي أسسها إبراهام بن موشيه ياطوم عام ١٧٤٠م أو الكتب التي طبعت فيها. وقد طبع في مطبعة إبراهام بن موشيه كتاب بعنوان حوق لي يتسرائيل.

أما الطباعة بالأحرف العربية فالكل يجمع على أنها بدأت بالمطبعة التي جلبها نابليون بونابرت مع الحملة الفرنسية ١٧٩٨م. وكان أول من أقام المطبعة هناك رجلان جاءا مع الحملة هما الطباع المحترف جوزيف مارك عمانويل أوريل (ولد عام ١٧٧٥م)، والمستشرق الفرنسي جان جوزيف مارسيل (ولد عام ١٧٧٦م) الذي طبع نصوصًا باللغات الشرقية. وكان أول نص طبع بالأحرف العربية في مصر هو ذلك الإعلان المؤرخ في ٢١ – ٢٢ يونية ١٧٩٨م، والذي طبعه جان جوزيف مارسيل في المطبعة المحمولة على ظهر السفينة أورينت التي كانت في مقدمة الحملة البحرية التي حملت نابليون وجيشه إلى غزو مصر. وهذا الإعلان العربي العبارة هو ما كتب باسم نابليون خطابًا إلى الشعب المصري، ودعاية للاحتلال الفرنسي. وكانت المطبعة الأولى التي أقامها في الإسكندرية جان جوزيف مارسيل ومارست نشاطها في مصر خلال السنوات الثلاث لاحتلال الفرنسيين هي المطبعة المعروفة بـ Imprimerie orientale et française، ولم تلبث تلك المطبعة أن انتقلت إلى القاهرة بعد فترة وجيزة (يناير ١٧٩٩م). وأصبح اسمها مطبعة القاهرة الوطنية Imprimerie nationale du Caire، وكان يعمل فيها مديران وثلاثة مصححين وثمانية عشر طباعًا. أما المطبعة الثانية في القاهرة فهي المطبعة التي كان يمتلكها جوزيف عمانويل مارك أوريل وعرفت باسمه، وقد قام الفرنسيون بطباعة ما يزيد عن عشرين كتابًا في تلك المطابع، وكان أغلبها في الشئون الإدارية والعسكرية بالفرنسية والإيطالية واليونانية والتركية والعربية.

والكتب التي تحتوي نصوصًا تركية من بينها:

J.J. Marcel, Alphabet arabe, turc et persan à l'usage de l'imprimerie orientale et française – الإسكندرية، المطبعة الفرنسية الشرقية ١٧٩٨م. ويتكون هذا الكتاب من جداول توضح حروف الأبجديات العربية والتركية والفارسية المستخدمة في المطبعة.

فرانچه سرگرده لرندن قلهبر اسميله مشهور سرگرده نك قاتلى اولان سليمان نام حلبى حقنده وقوع بولان فحص وتفتيش وحكم شرعى حاوى اوراقك مجمعيدر – القاهرة، مطبعة الجمهور الفرنساوي، ١٢١٤هـ/ ١٨٠٠م.

مجمع التحريرات المتعلقة
إلى ماجري باعلام
ومحاكمة سليمان الحلبي
قاتل ساري عسكر
العام كلهبر

بمصر القاهرة
بمطبعة الجمهور الفرنساوي
في سنة ٨ من اقامة الجمهور

فرانچه سرگرده لرندن
قلهبر
اسميله مشهور سرگرده نك
قاتلى اولان سليمان نام حلبى حقنده
وقوع بولان فحص وتفتيش وحكم شرعى
حاوى اوراقك مجمعيدر

مصر قاهره‌ده
فرانچه جمهورنك باصمه سنده‌در
فرانچه جمهوريتك سكز سنه سنده‌در

RECUEIL DES PIECES

RELATIVES

A LA PROCÉDURE ET AU JUGEMENT

DE

SOLEYMAN EL-HHALEBY,

ASSASSIN

DU GÉNÉRAL EN CHEF

KLEBER.

AU KAIRE,

DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

AN VIII DE LA RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

LIGATURES.

VALEUR.	FORME.	POSITION.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
[illegible]	[illegible]	Finales ou libres.
Tch-y	[illegible]	Finales ou libres.
Tch-y	[illegible]	Finale liée.
[illegible]	[illegible]	Finales ou liées.
[illegible]	[illegible]	Finales ou liées.

VALEUR.	FORME.	POSITION.
[illegible]	[illegible]	Finale non liée.

DE GUIEF.

VALEUR.	FORME.	POSITION.
G-a	گ	[illegible]
G-a	گ	[illegible]

DE SAGHIR-NOUN.

VALEUR.	FORME.	POSITION.
Ga-a	ݣ	[illegible]
Ga-a	ݣ	[illegible]

CHIFFRES.

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	٠
1	2	3	4	5	6	7	8	9	0

J. J. M.

FIN

A ALEXANDRIE, de l'Imprimerie orientale et française.

ALPHABET

ARABE,

TURK ET PERSAN,

A L'USAGE

DE L'IMPRIMERIE ORIENTALE ET FRANÇAISE.

AN VI



وهذا الكتاب يروي مصرع جان بابتست كليبر (١٧٥٣-١٨٠٠م) قائد الحملة الفرنسية بعد مغادرة نابليون مصر على يدي شاب يدعى سليمان الحلبي في القاهرة، ثم محاكمة ذلك الشاب بعد ذلك، والكتاب بالتركية والعربية والفرنسية. ويقع القسم التركي في ١٢٨ صفحة، والقسم العربي في ٨٥ صفحة، أما الفرنسي فيقع في ٤٧ صفحة. وتدلنا خاتمة الكتاب على أنهم طبعوا منه ٥٠٠ نسخة. وهو يعد بغير شك أول كتاب تم طبعه في مصر باللغة التركية.

كما قامت تلك المطابع أيضًا بطباعة جريدتين فرنسيتين. وكانت جريدة بريد مصر Courrier de l'Égypte هي أولى الصحف التي نشرت في مصر، وبدأت طباعتها في مطبعة مارك أوريل في ٢٩ أغسطس ١٧٩٨م، فأصدرت منها ثلاثين عددًا، ثم طبعت بعد ذلك في المطبعة الوطنية وتوقفت عن العدد ١١٦. أما جريدة العقد المصري La Décade égyptienne التي صدر عددها الأول في أول أكتوبر ١٧٩٨م فكانت تصدر مرة كل عشرة أيام. بل وفكر الفرنسيون في إصدار جريدة عربية باسم التنبيه، ولكن موضوع صدورها بالفعل أو عدم صدورها أمر مازال محلاً للجدل. وعندما اضطر الجيش الفرنسي للجلاء عن مصر في عام ١٨٠١م لم يترك شيئًا قط مما يتعلق بالمطبعة.

مكانة الطباعة في حملة التحديث التي بدأها محمد علي باشا

لقد بدأت إقامة المطبعة في مصر وتطورت باعتبارها عنصرًا من حملة النهضة المتشعبة الجوانب التي خاضها الوالي محمد علي باشا لتأسيس جيش قوي على الطراز الأوروبي. وعلى الرغم من أن استعمال المطبعة لم يكن منحصرًا في الأغراض العسكرية وحدها، وشكل المصدر الأساسي للخدمات التعليمية والثقافية المتشعبة، فإن فكرة تلبية احتياجات التعليم العسكري في الأساس هي التي شكلت نقطة البداية لإقامة المطبعة.

كان محمد علي يقوم من ناحية بجهوده من أجل تقوية مصر في المجال العسكري، وشرع من ناحية أخرى في إنجاز العديد من التجديدات في مجالات التعليم والزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد. وكان محمد علي يعي العصر الذي يعيشه، ويدرك أهمية التطورات العلمية والتقنية الحادثة في أوروبا، ويعرف حملات التجديد التي بدأ تطبيقها في إسطنبول عاصمة الدولة؛ فشرع هو الآخر في خطوات التحديث في مصر. ولما شعر بحاجته إلى فريق من الخبراء المتخصصين لإحداث التجديدات التي يريد تحقيقها بادر باستدعاء الخبراء من إسطنبول وأوروبا. كما أرسل - إلى جانب ذلك - عددًا من المبعوثين إلى أوروبا ابتداءً من عام ١٨٠٩م؛ حتى يتخصصوا هناك في مجالات بعينها. ولما عاد هؤلاء الطلاب إلى مصر كانت الاستفادة واسعة من معارفهم وتجاربهم. وكان محمد علي يدرك أهمية التربية والتعليم فلم ينتظر عودة الطلاب المبعوثين إلى أوروبا؛ إذ شرع بمساعدة الخبراء القادمين في إقامة المدارس التي تمارس التعليم على الطريقة الغربية اعتبارًا من عام ١٨١٦م.

وكان محمد علي يشعر بمدى النقص في الكتب والمصادر، ويدرك أهمية الترجمة في التغلب على ذلك، فكان هدفه من مدرسة الألسن التي أقامها تخريج الطلاب القادرين على الترجمة من اللغات الأوروبية، واستطاع بذلك أن يترجم الكتب التي استحضرها من أوروبا.

ونشهد في مقدمة كتاب بعنوان تاريخ إيطاليا الذي طبع بالتركية في الإسكندرية عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م عبارة كتبت لأجل محمد علي، وهي من الطرافة؛ إذ تدلنا على أن حركات التجديد التي خاضها محمد علي إنما ظهرت نتيجة لفكر منظم؛ إذ تقول: «فقد تفضل أولاً ببذل الهمة لتنظيم وتجهيز العساكر المعَلَّمة المدربة على الأصول الأوروبية، وصرف ما في مكنته ثانيًا لإحداث وإنشاء معامل المدافع والبنادق والبارود وإنشاء المصانع؛ حتى تقوم بتصنيع ما يلزم من أدوات حربية لازمة للعساكر المذكورة؛ وبذل الغالي والنفيس ثالثًا؛ من أجل طبع كتب التعليم وكتب القوانين، وطبع ونشر الكتب النفيسة في فنون الحرب التي هي فرض لأجل تعليم العساكر بحسب الوقت....». وبالنظر إلى العبارة التي توضح المعالم البارزة في حركة التجديد التي بدأها الباشا ومكانة المطبعة في هذا النظام الفكري يتبين لنا أن الهدف الأساسي من التجديد والقوة الدافعة له هو إقامة جيش حديث مدرب على طريقة الجيوش الأوروبية. ولا بد لإقامة ذلك الجيش من إنشاء المصانع التي تنتج ما يلزمه من مهمات وسلاح وعتاد عسكريين ثم وجود الكتب التي تساعد على تعليم الجيش وتدريبه وتوفير المعارف الضرورية للجوانب الأخرى في حركة التحديث، ثم إقامة المطبعة التي تزود كل شخص بالقوانين واللوائح والأنظمة اللازمة للإدارة العسكرية والمدنية، فكل ذلك ضروري في خطط تشكيل ذلك الجيش الحديث. وفي عام ١٨١٥م لما فشلت محاولات محمد علي باشا لإقامة جيش نظامي باسم النظام الجديد، فكر في تشكيل جيش من السودانيين ومماليكه المخلصين، وقام في نفس الوقت بإرسال شخص سوري يدعى نيقولا المسابكي برفقة ثلاثة شبان آخرين إلى مدينة ميلانو في إيطاليا ليتلقوا تعليمهم هناك؛ من أجل تكوين الفريق الفني الذي سيعنى بأمور المطبعة التي يزمع إقامتها. فلما عاد المسابكي ورفاقه إلى مصر بعد أن درسوا فن الطباعة تم وضعهم تحت إمرة عثمان نور الدين (سقا باشي زاده) أحد رجال الباشا المعتمدين؛ ليشكلوا جميعًا — مع ماكينات الطباعة الثلاث التي أتوا بها من إيطاليا والحروف العربية واللاتينية التي صُبَّت هناك — النواة الأولى لمطبعة بولاق.

إذًا فقد تأسست تلك المطبعة بيد الحكومة في مصر بعد مضي ما يقرب من مائة عام على قيام المطبعة العثمانية الأولى التي أسسها إبراهيم متفرقة في إسطنبول عام ١٧٢٧م، وهي تتميز بجانب مهم في قدرتها على الاستمرار وتشكيلها للتقاليد المطبعية في مصر. فالفرنسيون على الرغم من إقامتهم للمطابع في مصر أثناء الاحتلال فإنها لم تبق طويلاً، وبالتالي لم تترك أثرًا باقيًا؛ إذ كانت تعمل في حدود ضيقة وبالشكل الذي يخدم قوات الاحتلال.

ولم يقتصر الأمر في عهد محمد علي على إقامة مطبعة بولاق وحدها، بل أقيمت إلى جانبها مطابع رسمية أخرى بلغ عددها ثماني مطابع، لكنها لم تبلغ ما بلغته مطبعة بولاق في القدرة على البقاء والاستمرار وفي أهمية الكتب التي طبعتها. وقد لوحظ أن مطبعتين فقط من تلك المطابع كانتا تقومان بطبع الكتب التركية، وهما مطبعة ديوان الجهادية في القاهرة ومطبعة سراي الإسكندرية في الإسكندرية.

وكما ذكرنا سالفًا أن إقامة محمد علي للمطبعة كانت مما خطط له كجزء من خطة التحديث، فكان من الطبيعي أن يكون مكان المطبعة المزمع إقامتها في نفس المكان مع أفرع الصنايع الأخرى التي يقيمها ويضعها تحت إشرافه. ومن ثم كانت مدينة بولاق الصناعية الواقعة على شاطئ النيل في شمال غرب القاهرة – حيث توجد الأنشطة الصناعية المختلفة مثل مصانع القطن والكتان والجوخ ومصبغة القماش والمسبك والترسانة ومصنع الورق – هي المكان الطبيعي لإقامة تلك المطبعة. فكانت بولاق – التي تضم أيضًا المهندسخانة – هي أنسب الأماكن لإقامتها وضمان استمرار تقدمها. وستتحول بولاق كذلك إلى جزء من اسم تلك المطبعة التي ستعرف بأسماء مختلفة لمدة من الزمن، وسيصبح اسم مطبعة بولاق واحدًا من الأسماء اللامعة في تاريخ الطباعة بالأحرف العربية.

تأسيس مطبعة بولاق

كان لاختلاف التاريخ الذي شيد فيه مبنى مطبعة بولاق مع تاريخ تركيب آلات الطباعة وتاريخ بداية نشاط الطبع وتاريخ أول كتاب طبع فيها أن تباينت الآراء حول تاريخ واحد لإقامة المطبعة. ولهذا يجب علينا أن نتناول تلك الأمور على انفراد. فقد اختلف الرأي حول أول مكان داخل بولاق وأقيمت فيه المطبعة وفي أي تاريخ.

وتوجد أبيات الشعر التركية التالية في نقش كتابي مثبت فوق الباب الرئيسي للمبنى الذي شيد لأجل مطبعة بولاق نصه:

حالا خديو مصر محمد علي وزير	أول نامدار دولت ودين صاحب المنح
آثار بيحسابنه ضم ايلدي دخي	يايپردي اشبو مطبعه بر بويله پر فرح
هاتف سعيده سويلدي تاريخ تامنى	دار الطباعة در هنرك مصدر أصح



النص التأسيسي الخاص بمطبعة بولاق

ويفهم من الشطر الثاني في البيت الثالث أن إنشاء المطبعة اكتمل في تاريخ ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩-١٨٢٠م بحساب الجمل.

وقد جاء في الصفحة الأخيرة من كتاب وصايا عسكرية (وصايا نامهء سفريه) الذي توصلنا إلى أنه أول كتاب طبع في المطبعة وخرج منها في عام ١٢٣٨هـ/ منتصف شهر ديسمبر ١٨٢٢م، أنه «طبع في دار الطباعة التي أنشئت في بولاق ميناء مصر المحروسة».

وكان السوري نيقولا مسابكي الذي أرسله محمد علي باشا إلى إيطاليا عام ١٨١٥م ليدرس هناك فن الطباعة؛ هو المسئول عن شراء آلات الطباعة وتركيبها وصيانتها وإصلاحها، والمسئول كذلك عن تدريب عمال الطباعة، وهو الذي قام بتشغيل المطبعة. وقد تم تركيب ماكينات الطباعة التي اشتراها من إيطاليا خلال الأول من سبتمبر ١٨٢١م والأول من يناير ١٨٢٢م، وجرى صب حروف المطبعة العربية والتركية واليونانية والإيطالية في ميلانو، بينما تم شراء الأحبار والورق والمواد الأخرى اللازمة من ليغورن وتريستا.

وكان محمد علي يتابع عن كثب عمل المطبعة وما تطبعه من كتب منذ البداية بواسطة عثمان نور الدين ناظر مهندسخانة مصر تركي الأصل الذي عينه الباشا مفتشًا على المطبعة (٤ نوفمبر ١٨٢١- يوليو ١٨٢٤م).

وقد ظلت المطبعة تعمل هناك مدة من الزمن، ثم لم تلبث أن انتقلت إلى موضع آخر عام ١٨٢٩م بالقرب من الترسانة، ولما تضاعفت أعمالها تم شراء خمس ماكينات طباعة أخرى عام ١٨٣١م حتى ارتفع عدد الماكينات إلى ثمانٍ.

ولا توجد لدينا معلومات وإحصائيات مفصلة حول عدد العاملين في المطبعة إبان قيامها والفترة القصيرة التي أعقبت ذلك، وكان الرحالة الإيطالي بروشي الذي زار المطبعة في ديسمبر ١٨٢٢م هو الذي قدم أولى المعلومات عنها، فأشار أثناء الزيارة إلى أنها تعمل منذ أربعة أشهر، ويعمل فيها ١٢ منضدًا من الأتراك ومنضد واحد لكلٍ من اللغة الإيطالية واللغة اليونانية. ولعله يقصد بالعدد الأكبر من الأتراك لمن يقومون بالتنضيد العربي والتركي. وبعد ذلك ارتفع عدد العاملين في المطبعة فبلغ ٤٠ عاملاً في عام ١٨٢٥م. أما خلال عامي ١٨٣٠ – ١٨٤٠م وهي أكثر مراحلها عطاءً، فقد ارتفع العدد إلى ٢٠٠ عامل. ويذكر أبو الفتوح رضوان في جدول أعده للرواتب الشهرية لعام ١٨٤٤م أنه كان يعمل في المطبعة معاون وباشكاتب وباش مصحح وكتبة ومصححون للتركية والعربية والفارسية ومنضدون وخطاطون وصناع جداول ومجلدون وغير ذلك من الوظائف التي تبلغ ٢٨ وظيفة مختلفة وتجمع ١٣٦ شخصًا. وبعد عهد محمد علي باشا تضاءلت الأهمية التي كانت تحظى بها المطبعة، فبينما كان عدد العاملين في عام ١٨٤٨م يبلغ ١٦٩ عاملاً، انخفض في عهد عباس باشا (١٨٤٨- ١٨٥٤م) إلى ١٠٣ عمال.

طباعة الكتاب التركي في مطبعة بولاق

إن طباعة الكتب التركية في مصر وهي لغة الأقلية من الناحية الاجتماعية إنما هو أمر لا يتم – حتى وإن كان من الناحية الفنية – إلا حسب خطة موضوعة وباتخاذ تدابير ذات أمد طويل. وقد تحقق ذلك بفضل السياسات العملية التي جرى عليها محمد علي باشا وأسلوبه في المتابعة عن كثب، حتى أمكن في خلال فترة قصيرة أن تبلغ الكتب التركية المطبوعة في بولاق درجة يمكنها أن تضارع إسطنبول من ناحية الكم والجودة على حدٍّ سواء.

جامعو الحروف والمصححون

شعر محمد علي باشا بحاجته قبل كل شيء إلى منضدين أو مصففين وموظفي تجميع حروف يعرفون التركية، وإلى مصححين يمكنهم مراجعة ما تم تنضيده؛ حتى يمكن إنتاج الكتاب التركي في مطبعة بولاق. وتدلنا المعلومات التي توصلنا إليها أنه وجد له – كما وجد لكثير من المشكلات التي تجابهه – حلولاً عملية واقتصادية؛ فقد تم تنشئة المنضدين المصريين؛ ليتولوا عملية التنضيد التي تتطلب جهدًا مكثفًا، أما لعملية التصحيح فقد استعان بالأتراك المدربين المقيمين في مصر. ويزودنا الرحالة الإيطالي بروشي بمعلومات عن هذا؛ إذ يقول: «قام الباشا قبل ست سنوات من تأسيس المطبعة باختيار مجموعة من الطلاب الذين يدرسون في الأزهر من المصريين، وأتاح لهم إمكانية تعلم القراءة والكتابة العربية والتركية بدرجة جيدة. وهؤلاء كانوا من حيث الأساس معدودين من العلماء؛ نظرًا لتنشئتهم الدينية، ولكنهم عملوا في المطبعة منضددين». ويفهم من تلك العبارة أن مهام التنضيد العربي والتركي كانت تسير معًا. ونلاحظ في جدول الرواتب الشهرية لعام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م أنه لم تكن هناك تفرقة بين التنضيد العربي والتنضيد التركي فيما بين المنضددين على الرغم من وجود كادر متميز لأجل مصححي اللغة التركية، وهذا مما يدعم تلك الفكرة.

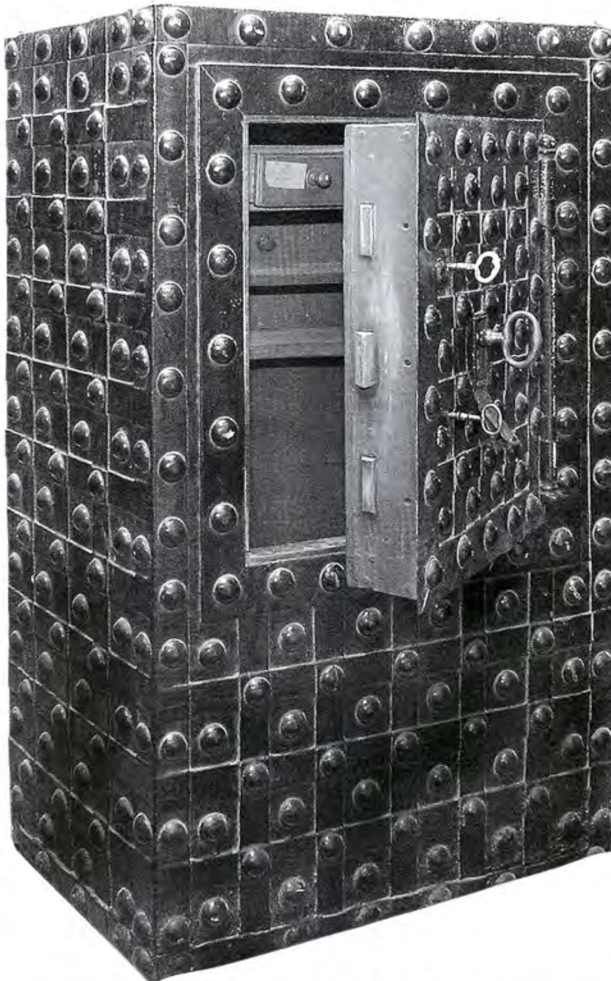
إذًا كانت العادة أن يجري اختيار مصححي العربية العاملين في المطبعة من بين علماء الأزهر، بينما يكون اختيار مصححي التركية من بين الأتراك ذوي المهن المختلفة. والغالب أن تذكر في الصفحة الأخيرة من الكتاب المطبوع أسماء المصححين مع المعلومات الأخرى المتعلقة بالطبع. وتدلنا إحدى قوائم الرواتب الشهرية لعام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م أيضًا أن المطبعة في ذلك التاريخ





كانت تضم اثنين من المصححين، ويعرف أقدمهما باسم باش مصحح، وقد عثرنا أثناء الدراسة في الكتب المطبوعة في بولاق على ثلاثة عشر اسمًا لمصححين للغة التركية ومجموعة الكتب التي قاموا بتصحيحها.

وكان حسين حسني أفندي الذي ارتقى من وظيفة مصحح إلى وظيفة ناظر المطبعة، يحتل مكانة متميزة بين مصححي اللغة التركية. قد بدأ حسين حسني أفندي عمله مساعدًا لمصحح التركية نحو عام ١٨٣٠م ومقابلاً أي مراجعًا في جريدة الوقائع المصرية، ثم عمل مصححًا لفترة وجيء به بعد ذلك ناظرًا للمطبعة مرتين؛ الأولى (١٨٦٥- ١٨٨٠م)، والثانية (١٨٨٢- ١٨٨٦م)، ثم ترك علمه مع حصوله على رتبة الباشوية.



خزينة الحروف والأختام بمطبعة بولاق وترجع إلى عصر محمد علي باشا



الحروف المستخدمة في مطبعة بولاق

طباعة الكتب لحساب الملتزمين

بدأت عملية طباعة الكتب في مطبعة بولاق لحساب الملتزمين ابتداءً من عام ١٨٣٠م. والملاحظ على هؤلاء الملتزمين أنهم كانوا من باعة وتجار الكتب المخطوطة والمطبوعة ممن يعملون في الغالب داخل سوق الصحافيين المجاورة للجامع الأزهر. وكان قصد هؤلاء الصحافيين من طباعة الكتب لحسابهم في مطبعة بولاق هو تنويع تجارتهم وتحقيق ربح أكثر. وتدلنا المعلومات التي تحتويها القوائم الخاصة بمطبعة بولاق - وهي القوائم الرسمية لمطبوعاتها - على أن كل من شاء طباعة كتاب تركي أو عربي لحسابه كان ملزمًا بسداد نفقاته (من ورق وأحبار وغير ذلك فضلاً عن أجور المصححين والعاملين)، ثم يؤدي للميري نسبة العُشر في الربح، وبعدها يُسمح له بطباعة الكتاب. كما يذكر أيضًا أنهم كانوا يتمتعون بتيسيرات في سداد المبالغ، ومهلة من الوقت؛ حتى يسددوها. ونرى في الفهرس المؤرخ في ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م بعد ذكر أعداد النسخ من الكتب المختلفة المطبوعة وأسعارها في مطبعة بولاق؛ قائمة لأسماء كتب عربية وتركية في موضوعات عسكرية وتاريخية ورحلات وحقوق وبيطرة وصناعة وهندسة وغيره؛ جاء تحت عنوان (في بيان كتب انتهت ترجمتها ولم تبدأ طباعتها، ولكن من يريد ذلك فإن هناك رخصة لطباعته لحسابه)، مما يعني أن المطبعة كانت تدعو الملتزمين الراغبين في طباعة الكتب لحسابهم أن يتقدموا إليها. وتدلنا نوعية الكتب التي يختارها الملتزمون على أنها كانت المفضلة لديهم من الناحية التجارية، وذلك في الوقت نفسه إشارة مهمة على أن الكتب كانت تباع خارج مصر أيضًا.

وقد استطعنا في ضوء المصادر التي أتيحت لنا أن نحصر أسماء أربعة وعشرين ملتزمًا ممن كانوا يطبعون الكتب التركية لحسابهم فيما بين عام ١٢٥٥- ١٣٠٠هـ وعام ١٨٣٩- ١٨٨٤م في مطبعة بولاق. وكان أغلبها في الدين الإسلامي والأدب - خاصة دواوين الشعر - والتاريخ. وهناك من تلك الكتب اثنا عشر ديوانًا شعريًا بالتركية. وترد أسماء الملتزمين غالبًا في الصفحة الأخيرة من الكتاب مع المعلومات الأخرى المتعلقة بالطباعة.

الحروف المستخدمة في الطباعة

كان نيقولا مسابكي المسئول عن مطبعة بولاق إبان تأسيسها قد أتى معه بالحروف العربية والتركية التي صُبَّت خصيصًا له، والحروف الإيطالية واليونانية التي اشتراها جاهزة أثناء وجوده في ميلانو، واستخدمت تلك الحروف في طباعة الكتب الأولى التي خرجت من المطبعة. وكانت الحروف العربية والتركية المطبوعة بخط النسخ بثلاثة مقاسات مختلفة؛ إذ يستخدم الأكبر منها للعناوين، والحجم المتوسط للمتن، بينما يستخدم الأصغر للحواشي والهوامش، وتخلو جميعها من علامات التشكيل. غير أن تلك الحروف المصبوبة في إيطاليا على الأسلوب الأوروبي كانت لا تنسجم مع الحس الجمالي ولا مع الذوق السائد بين القراء في تلقيهم للكتب المخطوطة وعادات القراءة، فلم تحظ بالاستحسان. واتجهت الأنظار إلى إسطنبول لإعداد قوالب جديدة تناسب ذوق الخط الذي جرى عليه الناس احتذاءً بالكتب المطبوعة هناك. وقد كان محمد علي باشا يتعقب باهتمام جميع الأحداث الواقعة في إسطنبول، ويحتذي بها في توجيه خططه للتحديق في مصر، فلم يكن راضيًا عن جودة الطباعة في مطبعة بولاق وتدني درجتها عما في إسطنبول ومخالفة الحروف للذوق العثماني المعروف، فطلب هو نفسه أن يتم تغييرها، وأصدر أمره بذلك في وثيقة حملت تاريخ ٤ نوفمبر ١٨٢١م. وقد ورد في الوثيقة أن رجلاً هنديًا ظهر أنه موجود في مصر آنذاك، وأنه يجيد الخط، ويعرف بعض اللغات، ثم يطلب في الأمر تعيينه مدرسًا للفارسية وقيامه بتعليم الخط للعاملين إلى جانب سقًّا زاده عثمان أفندي. ومما يلفت الأنظار في ذلك الأمر أيضًا عبارة «العاملين إلى جانب عثمان أفندي» دون ذكر المطبعة مباشرة. فهي تدلنا على أن مطبعة بولاق كانت في طور التكوين، وتدلنا أيضًا على مدى عناية الباشا بها ومتابعة سيرها منذ اليوم الأول. ويبدو من ذلك الأمر الصادر قبل تاريخ طباعة أول كتاب في المطبعة (ديسمبر ١٨٢٢م) أنها قامت بطباعة أشياء على سبيل التجربة، ولعلها تكون طبعت أوراقًا ومستندات رسمية مما تحتاجه الدوائر الرسمية. كما يفهم من مشاهدات بروشي الرحالة الإيطالي أن المطبعة قامت في أول عهدها بطباعة بعض النصوص الإدارية والحقوقية كاللوائح والقواعد وغير ذلك مما تحتاجه الإدارة ولم تصلنا نماذج منها.

وكان ذلك الرجل الذي ورد في المصادر المصرية باسم سنكلاخ الهندي قد كُلِّف بكتابة حروف النسخ والتعليق للمطبعة، والإشراف على صب تلك الحروف، فقام أولاً بكتابة حروف النسخ في أواخر عام ١٨٢٣م، ثم أعقب ذلك بكتابة حروف التعليف في أواخر عام ١٨٣٢م التي كانت تتطلب وقتًا أطول وعملاً أكثر تشعبًا ثم جرى إعداد قوالبها وصبها.

وكان أول كتاب طبع بحروف النسخ الجديدة هو كتاب تركي باسم رسالة الألغام عام ١٨٢٤م، وأعجب محمد علي باشا بجودته ووصفه بأنه بديع الخط والطباعة. ومن أبرز الأمثلة التي توضح كيف كان محمد علي مشغولاً بموضوع اللحاق بمستوى الطباعة الإسطنبولية، وكيف يتابع عن كثب ما كان يطبع من كتب؛ هو طلبه أن تعاد في بولاق من جديد طباعة ترجمة القاموس المحيط للفيروز أبادي التي وضعها المترجم عاصم (ت ١٨١٨م)، وطبعت في إسطنبول ثلاثة مجلدات (١٨١٤- ١٨١٧م). ولكي يخرج

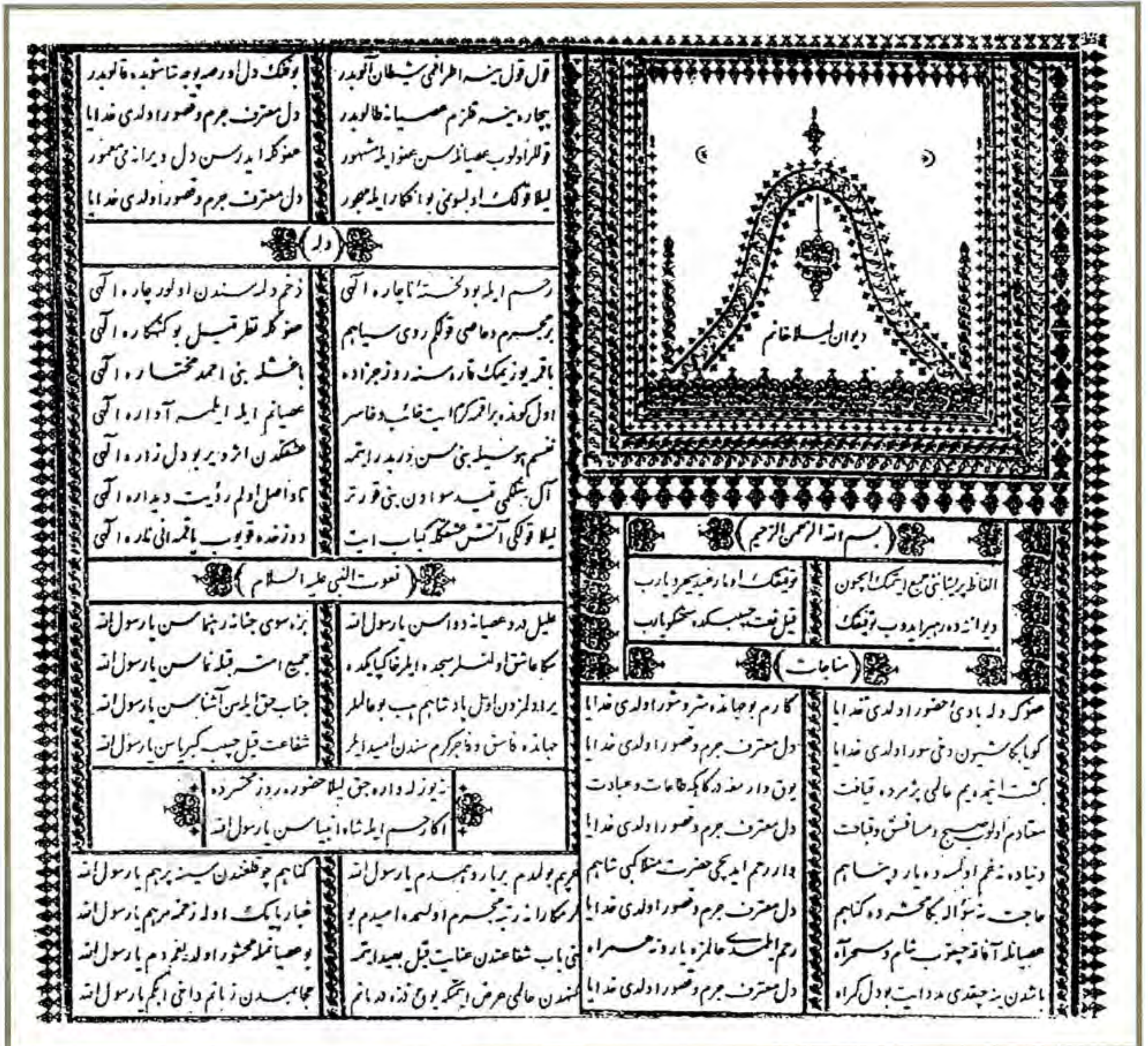
ذلك الكتاب بما يوافق طباعة إسطنبول ويظهر بذلك المستوى، أمر الباشا من رجاله المقربين كتخدا لاظوغلي محمد بك وإبراهيم أدهم بك بالتوجه إلى المطبعة؛ لفحص جودة الحروف وإصدار التعليمات اللازمة. كما أن نشر الأخبار المتعلقة بذلك الكتاب بعد ذلك في جريدة الوقائع المصرية إنما هو أمر ذو مغزى يكشف عن مدى اهتمام الباشا.

وكان إعداد قوالب أحرف التعليق وصب الحروف نفسها قد استغرق وقتًا طويلاً مثلما حدث عند كتابتها أيضًا، فلم يكن تجهيزها للاستخدام في الطبع أمرًا هينًا. فلما ظهرت تلك الحروف كانت مفخرة لمطبعة بولاق وسببًا في ذيوع شهرتها، وكان أول كتاب طبع بها كتاب *گلستان* ١٨٣٣- ١٨٣٤م لسعدي الشيرازي. وقد حازت الطباعة إعجاب الباشا ورجاله المحيطين به، بل ولقيت اهتمامًا وتقديرًا لدى أوساط المستشرقين المعنيين بوجه خاص بالعالم العثماني والثقافة الإسلامية.

وعلى هذا النحو تقدمت طباعة بولاق بتلك الحروف الجديدة عن طباعة إسطنبول وفاقتها في الجودة، ولسوف تحظى بشهرة واسعة وخاصة دواوين الشعر التركية التي بدأت بطباعتها اعتبارًا من عام ١٨٣٦م وتصبح محلاً لاهتمام كبير في تركيا العثمانية وبين المتحدثين بالتركية.

ويخبرنا القسم الأخير في قائمة لمطبعة بولاق تحمل تاريخ ١٨٤٤م أن حروف التعليق الجيدة قد تم صبها وأن ديوان ليلى هان هو أول ما طبع بها، كما يذكر أن هذه الحروف الجديدة تفوق حروف التعليق القديمة. وهذا يدلنا على أن حروف التعليق التي جرى استخدامها عام ١٨٣٣م قد تم استبدالها بحروف تعليق جديدة، وبدأ استخدامها ابتداءً من عام ١٨٤٤م، وقد كانت حروف التعليف يغلب استخدامها في طبع دواوين الشعر، وكان ذلك عاملاً مهمًّا في رواج تلك الدواوين خارج القاهرة والمدن الأخرى كإسطنبول.

ديوان ليلى هانم- طبع بمطبعة بولاق ١٨٤٤م


ديوان ليلا خانم
بسم الله الرحمن الرحيم
مناجات
نعوت النبي عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

حمد بی پایان اول خالق کون ومکان ورازق انس وجان حضرتلرینه
شایاندرکه ولقد کرمنا بنی آدم کلام حکمت احتوائی ماصدقنجه
نوع بنی آدم جمیع اشیایه غالب وحکمران وهمت الرجال تقلع الجبال
مؤداسنجه شواهق وجبالی قلع وپریشان قلمق قدرتنی الطاف
آلهیه سندن احسان بیورمشدر وغایت صلاة وسلام ونهایت
تحایای خواص وعوام اول باعث احداث مکین ومکان وسبب
آسایش وارایش زمین وزمان نفعسازساحه شرف مساحه هدایت
رفعطراز شجرهٔ ثمرهٔ رسالت اعلام زن برج قلاع حکمت هدم امکن
کهنه بناء کفر وظلمت علیه افضل التحیات واکمل الزکیات افندمز
حضرتلرینه اولسونکه نور نظم ورمینت صدورلری زینتده دهلیز
دیوانخانهٔ اسلام واندا ختهٔ خزائن لغام شرك ولئام ایلمشدر ودخی
آل واصحاب کرام ذوی الاحترام حضراتی اوزرلرینه اولسونکه
وجاهدوا فی سبیل الله نص قاطعی مقتضاسنجه تحصیل رضای باری
وتکمیل ناموس شریعت حضرت پیغمبری ضمننده نفوس نفیس
مانوس نظیفلرین فدا وافنا بیورمشلردر اصحابی کالنجوم

صفحتان من أول كتاب يطبع في المطبعة بأحرف النسخ الجديدة وكان بعنوان «تلخيص الأشكال في معرفة ترفيع الأثقال في فن لغم» – طبع بمطبعة بولاق ١٨٢٤م

سابره دن بالمطالعه مقتضى اولان بعض فوائد وبر اسلوب فن مذكور
خاطر فقيره طلوع ايدن نكات وفرائد ضم وارداف وفن لغمه دائر
قواعد كليه نك طرق اسهلاريني تبيين وتعريف وافاده مرامده مغلطه
الفاظى ترك ايله تدوين وتأليف ايدوب فن مذكورى آسان وجهله
اربابنه تفهيم ضمننده لسان تركى اوزره ترقيم اولنمسى فى نفس الامر
منافع عظيمه يى حاوى وفوائد جسيمه يى محتوى اولمغله متوكلا على
الله ومتوسلا الى روح رسول الله اشبوا وراق پريشانى ترتيب
وتنظيمه تشمير ساعد اقدام وباعنايت واعانت حضرت ملك العلام
رسيده حد اتمام اولوب مامولدركه شايان پيشگاه انظار ومسرح
لمحات اعتبار بيوران ارباب فضل وعرفان واصحاب تذكر واذعان
حضراتنك مطلع اولدقلرى سقطات وكسور وغلطات وقصورى
اذيال عفو ايله مستور بيوروب مترجم پرتقصيرى دعاء بالخير ايله
مذكور بيورملرى وابستهٔ طبع مروتنبعلريدر والله الموفق الى
سبيل الرشاد واليه المرجع والمعاد وبعد معلوم اوله كه اشبو رساله
بر مقدمه واون درت باب اوزرينه ترتيب وتنظيم ومعرفت ترفيع
اثقالده تلخيص الاشكال امثله تمييز وتوسيم قلنمشدر

* مقدمه *

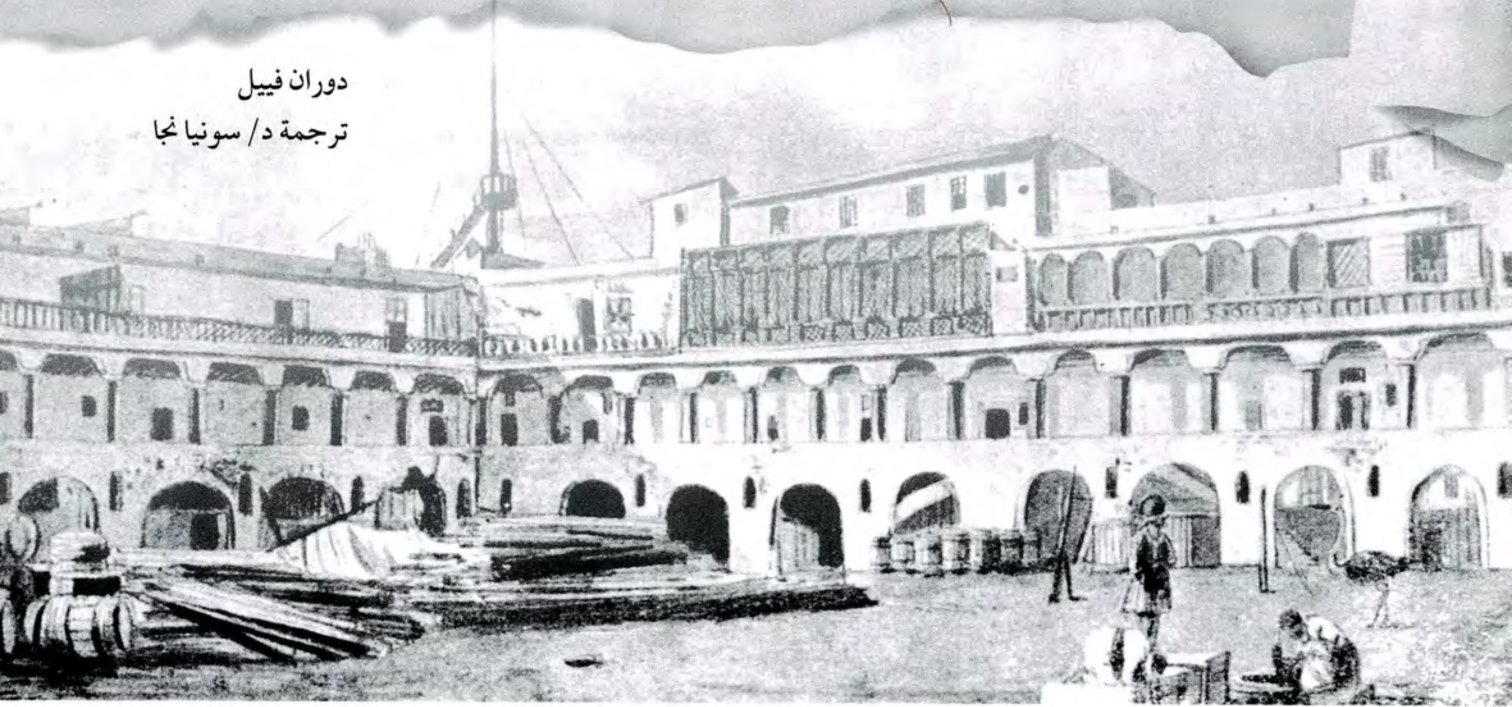
لغم تسميه اولنان شيئك تعريف وغايتى وبعض اصطلاحات واساميسى
بياننده در پس امدى لغم ديدكلرى زير زمينده حفر اولنان برانجه
بولدركه قلعه اطرافنده واقع خندق كبير شولرى تحتنه اعمال وتهيئه
ومرقوم انجه يولك نهايتندن بر مقدار يمين ويساره وبر مقدار
ايارويه وجه مرقومدن جزئى طارجه اولمق اوزره حفر وهر بر نهايتنه
مكعب شكلنده بر محل دخى حفر وانشا وشكل مرقوم درونته



ترسانة الإسكندرية

حلم الباشا الذي حققه دي سريزي

دوران فييل
ترجمة د/ سونيا نجا



في الخامس عشر من سبتمبر ١٧٨٩م، ولد في أبفيل Abbeville لويس شارل لوفافر دي سريزي Louis Charles Lefebvre de Cerisy الذي سيصبح لاحقًا أهم معاوني محمد علي في مشروعه لزيادة قوة مصر البحرية بعد عامين من الدراسة في المدرسة العليا للهندسة[1]. التحق لويس دي سريزي عام ١٨٠٩م بالمدرسة العليا للهندسة البحرية في بريست Brest ، وفي السابع من أغسطس ١٨١١م اختير للخدمة في كتيبة العمال العسكريين بتولون Toulon برتبة ملازم أول.

(١) استرشد لويس بأبيه نيقولا لوفافرد سريزي Nicolas Lefebvre de Cerisy الذي كان عمدة لمدينة أبفيل Abbeville في الفترة الممتدة من ١٨٠٠م إلى ١٨١٦م. بدأ دراسته في المدرسة القروية بمسقط رأسه ثم التحق بالمدرسة المركزية بمدينة كاين Caen التي أعدته لامتحانات المدرسة العليا للهندسة.



وفي الفترة الممتدة من ١٨٠٠م إلى ١٨١٦م بدأ دراسته في المدرسة القروية بمسقط رأسه، ثم التحق بالمدرسة المركزية بمدينة كاين Caen التي أعدته لامتحانات المدرسة العليا للهندسة. وقد كانت هذه الكتيبة مكونة من عمال، معظمهم من الأجانب القادمين من جنوة Gênes وليفورنو Livourne وأنفرس Anvers، وقد تعلم السيد دي سريزي فيها في بداية حياته الوظيفية كيفية إدارة وقيادة مجموعة مستخدمين يبدو أن مسلكهم لم يكن يتسم بالسلاسة. في مطلع شهر يوليو ١٨١٢م سافر دي سريزي إلى تريستي Trieste، وانتقل منها عام ١٨١٣م إلى سفيتا فيشيا Civitavecchia الميناء البحري للدائرة السابعة التابعة لمقاطعة جنوة Gênes ليدير هناك الإنشاءات البحرية. حالت عمليات قرصنة إنجليزية دون وصوله إلى هناك وانقطعت عنه كل سبل الاتصالات البرية مما اضطره للهرب على رأس مجموعة من الفرنسيين كانت بصحبته مستوليًا عنوة على سفينة من نابولي.

بعد هذه السنوات غير المستقرة بقي السيد دي سريزي في عام ١٨٢٢م ملتحقًا بإدارة الإنشاءات البحرية في تولون Toulon. في هذا التاريخ أرسله السيد كليرمون تونير M. de Clermont-Tonnerre؛ وزير البحرية إلى إنجلترا لدراسة ترسانات البحرية البريطانية. وفور عودته من هذه البعثة استدعاه مدير الإنشاءات البحرية إلى تولون Toulon.


دي سريزي

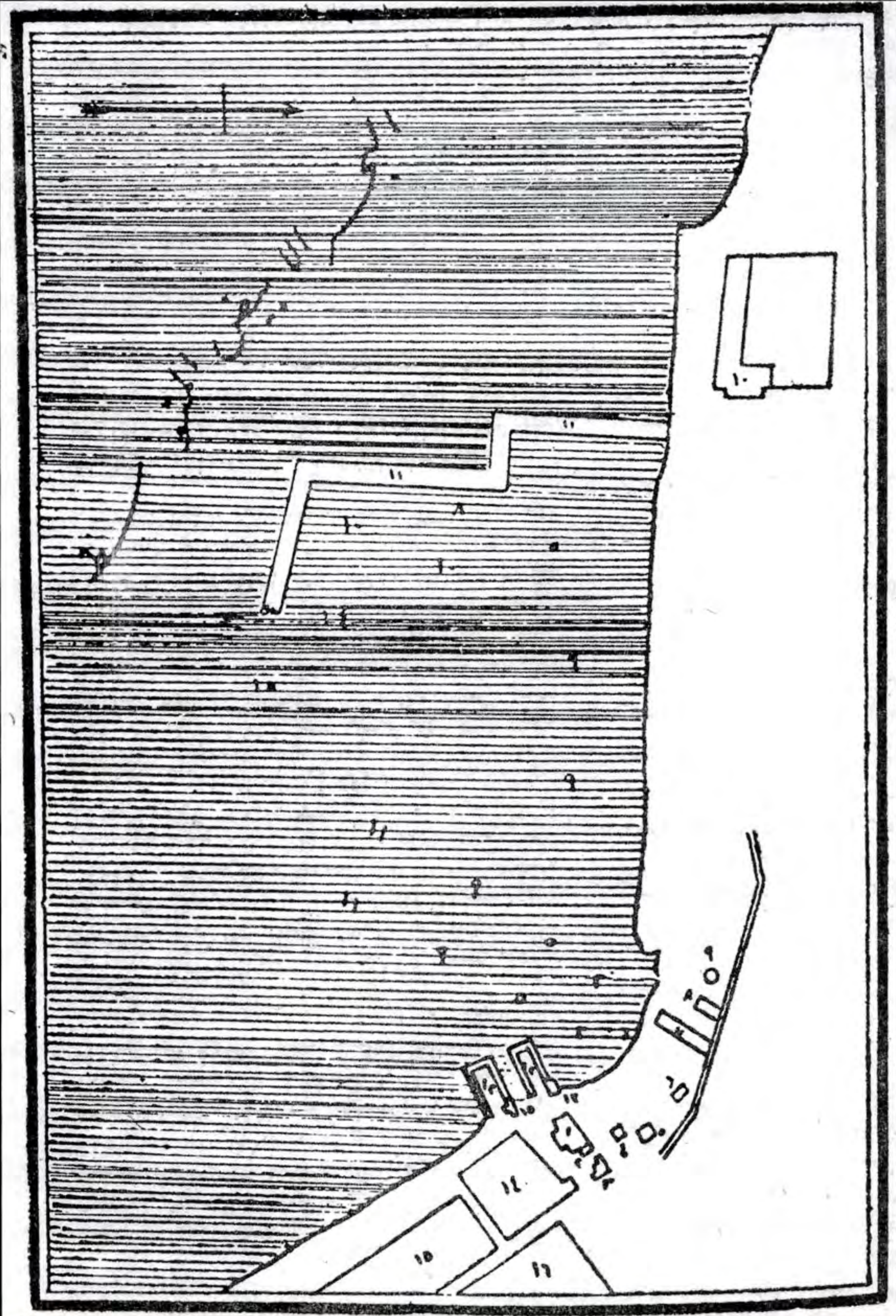
في ٧ يوليو ١٨٢٥م، أعلم وزير البحرية السلطات البحرية أن جلالة الملك قد وافق على صناعة ثلاث سفن في مرسيليا Marseille لأمر والي مصر. وقد أردف الوزير أن «غرض الملك هو أن تيسر إدارة البحرية كل ما يخصها ويتعلق بعملية التصنيع المشار اليها مع تجنب كل ما يضفي على تدخلها مظهرًا أو سمة رسمية». وكان ميناء تولون Toulon ، مخولاً أن يمنح مهندسًا في البحرية إجازة مفتوحة ليدير في مارسيليا Marseille عمليات بناء السفن المشار إليها، وقد كلف المهندس دي سريزي بهذه المهمة.

كان يدير بنجاح عملية بناء أوائل الفرقاطات التي طلبها محمد علي[1] حين ذكرت في ١٥ إبريل ١٨٢٨م ورقة أعدها مجلس الملك لحكومة شارل العاشر Charles X أن السيد دي ليفرون M. de Livron ؛ ممثل محمد علي في فرنسا قد طلب من عدة أشهر خلت إلحاق مهندسين فرنسيين للالتحاق بخدمته، أحدهما للإنشاءات البحرية وثانيهما للأشغال المائية. وقد أضافت المذكرة أن المهندس الذي أشرف في مارسيليا Marseille على الإنشاءات البحرية لحساب الوالي قد يقبل قضاء بضع سنوات في مصر إذا ما حصل على إذن حكومة الملك، وتلقى في ذات الوقت تأكيدًا بأنه سيحتفظ في فرنسا برتبته وأقدميته وكل ما حصل عليه من حقوق اكتسبها من انتمائه إلى سلاح ضابط الهندسة البحرية. وبالفعل منحت حكومة شارل العاشر Charles X الإذن المطلوب اتساقًا مع المسلك الذي اختارته لنفسها في تعليماتها الصادرة في ١٨ ديسمبر ١٨٢٧م إلى السيد دروفيتي M. Drovetti؛ القنصل العام لفرنسا في مصر. ورد في هذه التعليمات: «ستعلمون الوالي أنه سيجد دومًا من جانبنا ذات المسارعة لتقديم التسهيلات اللازمة لزيادة الإنشاءات البحرية لإرساء وتطوير النظام والاحتراف الأوروبي بين قواته وفي قولة واحدة مواصلة عملية التجديد ونشر الرفاهية التي سبق أن بدأها في مصر».

في ٢٨ نوفمبر ١٨٢٨م وقع دي سريزي عقدًا يتعهد فيه بخدمة الوالي، وبموجب هذا العقد ذي الأحد عشر بندًا، وافق السيد دي سريزي أن يمضي في خدمة الوالي ثلاث سنوات متوالية تبدأ من تاريخ صعوده على متن السفينة المتجهة إلى مصر.

وعد المهندس وتعهد بتكريس كل معارفه واستخدام كل قدراته لتحقيق ما ينوي الباشا تحقيقه في كافة النواحي وتنفيذ أوامره الخاصة ببناء السفن الحربية وغير الحربية. كما تعهد بتأسيس مدرسة لتصنيع وصيانة السفن وتنظيم ورش تعليمية لهذا الغرض.

(١) خلال فترة إنجاز هذه المؤلف كُتب اسم الوالي محمد علي على النحو التالي Mohammed Aly غير أن الكاتب قد رأى أنه لزامًا عليه في الاستشهادات الاحتفاظ بطريقة كتابة الاسم المتبناة من قبل ممثلي الحكومات الأجنبية في مصر؛ وهي Mehmet Ali.



ترسانة الاسكندرية القديمة(١)

١ — الجمرك
٢ — قهوة عمومية
٣ — دكان
٤ — مسجد
٥ — ورشة
٦ — ارضية لانشاء السفن
٧ — مظلة من الخشب لآلات الحدادة
٨ — مظلة من الخشب لصناعة البراميل
٩ — مسجد
١٠ — مخازن ومكان الزجاج
١١ — الرصيف القديم
١٢ — رصيف من الخشب للنزول فى السفن
١٣ — مكاتب مستخدمى الجمارك
١٤ — مخازن الحكومة
١٥ — مخازن خصوصية
١٦ — جزء من مدينة الاسكندرية

شكل (٥) **دليل تفصيلي لتصميم ترسانة الاسكندرية الجديدة**

(١) مدخل الترسانة وسيكون بعد انتهاء العمل في نمرة ٢٤ (٢) قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء السفن عليها (٣) قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة (٤) ورشة من الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها (٥) ورش الساريات والقلوع (٦) ورش البكرات والخراطة (٧) مكان أدوات السفن وأطقمها (٨) محل ابرام الحبال ، وبالدور الاول مكاتب الادارة ومدارس مختلفة (٩) ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الاثقال (١٠) ورشة الآت البحرية والمعادن والصفيح والرصاص والنجارة (١١) المخزن العمومي (١٢) الادارة الهندسية (١٣) ادارة الميناء (١٤) ورش الحدادة الكبرى (١٥) معمل المزاليج والبرادة (١٦) المسبك (١٧) ورشة حدادة الاحواض (١٨) ورش اشغال ترميم السفن في الاحواض (١٩) ورش نجارة العمارات والثقب والجلفنة (٢٠) موضع الحوضين ((٢) مكان اذابة الزفت والقطران (٢٢) ليمان (٢ ٣) ثكنة (٢٤) صحن المدخل الاصلي (٢٥) آلات ابرام الحبال (٢٦) المخازن (٢٧) مساكن المديرين والضباط وموظفي الترسانة (٢٨) ورش المعادن للمدفعية (٢٩) ورش الخشب للمدفعية (٣٠) مخزن وادارة المدفعية (٣١) مخازن خاصة بالسفن التي ينزع سلاحها (٣٢) مستودعات لاخشاب بناء السفن (٣٤ (ترسانة الزوارق والسفن (٣٥) مكان ترميم الفائض من السفن (٣٦) حراس الميناء (٣٧) فرقة العرس (٣٨) مخزن الحكومة ومطبعنا الحجر والحروف والمكاتب (٣٩) جزء من المدينة بسكنه بعض المستخدمين (٤٠) جزء من المدينة والحوانيت (٤١) الرصيف المحيط . ملحوظة : عمق المـاء بالاقدام الفرنسية(١)

(١) كلوت بك — لمحة عامة صفحة ٣٦٧ .



أما أهم بنود العقد فهي:

- يتقاضى المهندس كراتب ثابت مبلغ ثلاثة آلاف وستمائة بندقية ذهبية[1].
- حدد البند الخامس من العقد بوضوح وضع السيد دي سريزي الوظيفي باعتبار الهندسة البحرية متميزة ومنفصلة تمامًا عن السلطة العسكرية التي لا تتبعها بأية حال من الأحوال فإن السيد دي سريزي ككبير المهندسين لن يتلقى أوامر ببناء سفن حربية أو غير حربية إلا من وزير الباشا أو من كبار رجال الدولة المكلفين بهذه الأوامر مما يعني أنه لن يكون بأية حال أثناء تنفيذه للأشغال المكلف بها تحت إمرة مهندس أو بناء سفن من البحرية من أبناء البلد أو أجنبي عنها.
- من ناحية أخرى ينص البند السادس من العقد على وجود تفتيش فوري ضمانًا لأمثل تنفيذ للأشغال وأعمال البناء التي يكون السيد دي سريزي قد تقدم بتصميماتها أو بخطة تصنيعها. وسيوفَّر له مترجم فوري ملم في حدود الإمكان بالمصطلحات والمفردات البحرية.

فور توقيع المعاهدة؛ قام السيد دي سريزي بإعداد العدة للسفر، وكتب يقول في ٩ فبراير ١٨٢٩ وهو بميناء مارسيليا[2] Marseille: «يا لها من حيرة يستشعرها من يبتعث في مهمة مثل مهمتي! فوظيفة كبير المهندسين التي سأشغلها تتطلب تجهيزات عدة. فينبغي أن يكون لي منزل فخم لاستقبال أناس كثيرين.... يا لها من مهام جسيمة لرجل لا يميل بطبيعته للعظمة».

بعد هذا التاريخ بعدة أيام، استقل دي سريزى سفينة ذات ثلاثة صوارٍ يطلق عليها البجعة Le Cygne؛ كان قد بناها في العام السابق على سفره لواحد من أصدقائه يدعى هنري دي فريسينيه Henry de Fraissinet (كان مالكها وقبطانها) أبحرت به إلى الإسكندرية.

تصميم ترسانة الإسكندرية

من خلال سطور رسالة كتبها السيد دي سريزي M. de Cerisy علمنا أنه شرع من فيره في العمل:

«الباشا وابنه إبراهيم ليسا بالإسكندرية مما يعني أن كبار رجالات الدولة بها لا يجرؤون على أخذ المبادرة في شيء. كل شيء يتم بالمراسلة وفي تركيا يتطلب الأمر الكثير من الصبر. أحظى بتقدير كبير وأعتقد أنني خلال مدة وجيزة سأنال ثقة كبيرة. قمت بوضع الخطوط الأولى لمشروع بناء سفينتين غير أنه يبدو لي أن إفهام العمال الأتراك مدلول الرسوم الهندسية أمرٌ غير يسير. كل شيء في هذه البلاد في حاجة إلى التأسيس. أعتقد أن الأمر سيتطلب مني سنوات طويلة لتنفيذ أي شيء».

كان أول ما انشغل به السيد دي سريزي هو تحديد أماكن مواقع العمل لبناء السفن. كانت الإسكندرية آنذاك لا تملك ترسانة على شاطئ ملؤه الرمال لا يجاوز عمق المياه على بعد مائتي متر منه؛ المترين. كان هناك عربي يدعى الحاج عمر أثنى عليه دي سريزي، واستراح في التعامل معه، يقوم ببناء طراد من خشب التنوب وسفينة ذات مواصفات غير واضحة المعالم. وكان على السيد دي سريزي استكمالها محولاً إياها إلى فرقاطة مزودة بستين مدفعًا أبحرت للمرة الأولى في مطلع شهر فبراير ١٨٣٠م.

كانت مدينة الإسكندرية مشيدة فوق شبه جزيرة ممتدة في البحر الأبيض المتوسط. لجأ دي سريزي لعمليات سبر غور المياه في شرق وغرب المدينة. من الناحية الشرقية وتحديدًا على حافة هذا الخليج الذي يشكل اليوم الميناء الجديد وكان في الماضي ميناء البطالمة القديم، وبين المسبار مناطق قليلة العمق استحال معها التفكير في تأسيس مواقع عمل لعمليات بناء السفن فيها. وكان مدخل الخليج يمثل قدرًا كبيرًا من المخاطر حتى إن الأمر كان يتطلب أشغالاً هائلة حتى يسمح بدخول طرادات صغيرة الحجم في الجهة الغربية. كان الشاطئ الذي يبني عليه الحاج عمر قواربه محميًّا من الأمواج والأنواء، كما أنه كان من السهل حمايته دفاعيًّا؛ غير أن المسبار أوضح مدى ضحالة المياه مما يحول دون إبحار أية سفن منه. وفي منطقة أكثر بعدًا في اتجاه الغرب كان هناك شاطئ يطلق عليه (شاطئ الناسك) أو المربط Marabout؛

(١) قيمة تداول البندقي الذهبي آنذاك: خمسة فرنكات وثلاثون سنتًا.

(٢) وصلت رسائل السيد دي سريزي M. de Cerisy التي ننشرها في هذا الكتاب إلى أيدينا بفضل مؤسسة أبفيل الثقافية Société d'Emulation d'Abbeville التي تلتقتها بدورها من أحد أعضائها، و هو البارون دو هيدوفيل Le baron de Hédouville هذه الرسائل كانت موجهة إلى أحد قاطني قرية أبفيل Abbeville ويدعي السيد بوكوزان M. Beaucousin.



حيث يتميز بالعمق المطلوب غير أنه لم يكن بمنأى عن البحر أو محميًّا منه. وكان هذا يعني أنه للدفاع عن الترسانة وحمايتها من هجمات العدو، فإنه ينبغي عمل نظام حماية مستقل. وقد شكل هذا الموقع الخيار الثاني الذي اقترحه السيد دي سريزي على الوالي للاختيار. وكانت عمليات سبر الغور قد بينت أن القاع من الطين اللين، وأنه لا سبيل للعثور على صخور إلا بعد ما تجاوز الثلاثين قدمًا عمقًا. من هنا ظهرت إمكانية استخدام ماكينات للحفر حتى يصبح عمق المكان مناسبًا لإبحار السفن.

بعد شهرين من العمل المتواصل استطاع السيد دي سريزي وتحديدًا في ٩ يونية ١٨٢٩م؛ تقديم تصميم كامل للترسانة إلى الباشا وسرعان ما تمت الموافقة عليه. والحقيقة أن سرعة اتخاذ القرار لم تكن من أقل الامتيازات التي يقدمها بلد جديد؛ مثل مصر في هذا التوقيت لما يبذله دي سريزي من نشاط. بعد ساعة واحدة من الموافقة على التصميم شرع ألفا عامل في حفر أساسات أولى المنشآت.

إذا لم نتوقف إلا أمام الخيوط العريضة في هذا التصميم فإننا نجد فيه أربعة أحواض بناء سفن. من الغريب أن محمد علي الذي أولى لاحقًا أسطوله أهمية عسكرية كبرى لم يبادر في البداية إلى بناء شيء آخر في مصر غير الفرقاطات اعتقادًا منه أن الممرات البحرية في الإسكندرية ما كانت لتسمح بحركة سفن أكبر حجمًا. الحقيقة أن السيد دي سريزي هو الذي جعله يرجع عما كان يرتئيه، وبيّن له عمليًّا أنه إذا كانت مناورات السفن في ميناء الإسكندرية تستدعي حرصًا شديدًا فإنها إلى حدٍّ ما ممكنة حتى وإن كان ينبغي للسفن أثناء دخولها وخروجها التخلص والتخفف مما تحمله من مدفعية.

استتبع قبول الوالي للفكرة توالي مراحل تصميم ترسانة الإسكندرية، الذي أدهش عظمة كل معاصريه بشكل منطقي. إلى جانب الأحواض المخصصة لبناء السفن الضخمة شيَّد السيد دي سريزي ثلاثة أحواض لبناء الفرقاطات والسفن الأقل حجمًا. كما أنشأ إلى الشمال قليلاً على الأرض المتماسكة وبطول رصيف؛ ورش التصرية والقلوع والبكرات وتجهيزات السفن الداخلية. وإلى الخلف قليلاً أقام هذه الحبالة الشهيرة التي تفوق حبالة تولون Toulon طولاً والتي رأى أنها ستحظى بإعجاب الزائرين. وإلى شمالها كانت أماكن سكن مديري وموظفي الترسانة وبجوارها عشرة هناجر لوضع خشب البناء. وفي المركز وخلف أحواض بناء السفن وضع السيد دي سريزي الورش المنوط بها صناعة المداخن وصناعة البراميل، بالإضافة إلى ورش السباكة والمخزن العام. أما في الجنوب فقد أقام المصاهر والمسابك.

كانت إدارة المدفعية وورشها توجد في أرض سهلة ترابها مركوم، تقع شمال الترسانة، أما الأرض السهلة الجنوبية فقد كانت مخصصة لبناء حوضين لجلفطة وترميم هياكل السفن. أما آخر منشآت الترسانة فهو رصيف مسور يصل بين أرض سهلة وأخرى بفتحة واحدة بغرض عزل حوض الترسانة عن باقي الميناء.

تدريب العاملين

ظهرت أمام السيد دي سريزي مشكلة أكبر وأكثر أهمية من بناء الترسانة وهي تدريب وتكوين فريق من العاملين قادر على تنفيذ خططه وتصميماته. ففي الأول من يوليو ١٨٢٩م، كتب السيد ميموه M. Mimaut القنصل العام لفرنسا بالإسكندرية إلى قسمه قائلاً:

«تم تعيين السيد دي سريزي في وظيفة المدير العام للإنشاءات البحرية، وقد بث وجود السيد دي سريزي النشاط والحيوية في أعمال ترسانة الإسكندرية، وأضفى الكثير من التحسينات عليها. غير أنه يئس من تحقيق النتائج التي عقد العزم بينه وبين نفسه على الوصول إليها ما لم ينجح في التزود بمعلمين وعمال أساسيين أكثر مهارة من أولئك الذين تعج بهم مواقعه؛ عمال قادرين على فهم ما يبتغيه. قدم المهندس إلى معالي الوالي قائمة بمن يرغب بالإذن له باستقدامهم من تولون Toulon والذين اعتقد أنه اتفق معهم على المجيء. نقل الباشا هذا الخطاب إلى السيد دي ليفرون M. de Livron، ورجاني تأييد فحواه. جدير بالملاحظة أنه قد رؤي في عقد الذين كان يزمع إلحاقهم بالعمل وضع شرط عودتهم إلى فرنسا في ذات توقيت عودة السيد دي سريزي إليها».

كان دي سريزي يطلب ثلاثة رؤساء عمال في النجارة المسلحة، هم: ريبول Reboul، ومييج Mige، وينسولنج Yensoleng، ومعلم ثقب (نوفو Nouveau) ورئيس عمال بوصلات (هيوج Hugues)، بالإضافة إلى عشرة نجارين مسلحين من الفئة الأولى يعرفون كيفية التخطيط في قاعة المعيرة وستة عمال مهرة في الثقب. وفي انتظار قدومهم سيق ألفا رجل من مختلف المحافظات المصرية بناءً على أمر الوالي إلى الإسكندرية؛ لكي يصبحوا عمالاً في البحرية لدى دخولهم إلى الترسانة. تم تنظيمهم عسكريًّا في فرق متخصصين في النجارة المسلحة والثقب والجلفطة والنجارة والصهر والحبالة والتعامل مع البكرات. وقد بادر السيد دي سريزي الذي كان يجيد التعامل مع آلات عديدة ومتباينة إلى تولي مهمة تعليمهم وتهيئتهم بمهنهم الجديدة.

في السادس والعشرين من يوليو ١٨٢٩م ،كتب دي سريزي يقول:

«لم يحدث في الكون أن انشغل مهندس مثلما انشغلت من فترة. كل الملوك والأمراء وكبار المسئولين في مصر حاضرين هنا الآن، وهناك مشروعات كبرى. كل فرد منهم يتوجه إلي بالحديث. أقوم بتنظيم كل عمال الترسانة المزمع إنشاؤها. قمت بعمل كل

التصميمات ووضع المشروعات الخاصة بالطرود والمخازن والورش المختلفة والهناجر وماكينات الترسانة. بدأت بالحبالة ووضعت ماكينات للكحت والتنظيف في حالة حركة لضخ مزيد من المياه في الميناء. عوَّمنا طرادًا يحمل أربعة وعشرين مدفعًا، وخلال الأسابيع القليلة القادمة ستلحق به فرقاطة وصيادتان وناقلة حمولتها ستمائة برميل. سأبدأ خلال مدة وجيزة في بناء سفينة حربية مزودة بست وتسعين فوهة نيران من العيار (ثلاثين). وضعت التنظيم الإداري للبحرية بأكملها وقد ترجم إلى اللغة التركية حتي يتمكن كل رئيس قسم من تنفيذه. أقدم تحريريًّا كل الصفقات اللازمة لشراء مستلزماتنا، ولا أخفيك بهذه المناسبة إنني في صراع وحرب مع كل المحتالين الذين يضيقون بما أحظى به. يقول لي الجميع إنني مخطئ في بذل هذا الكم الكبير من الجهد، ولكن كيف السبيل إلى غير ذلك وأنا استشعر صداقة الباشا محمد علي، وابنه إبراهيم، والقائد العام عثمان بك، ووزير المالية والتجارة بوغوص بك. هذا يرضي كبريائي ويقلل من إحساسي بالتعب والإرهاق. أقضي كل يوم ساعات طويلة في مقابلات مع الباشا وابنه إبراهيم وأستطيع الجزم بأن كل ما تقوله الصحف عنهما محض افتراء. لمحمد علي وجه صبوح صادق واضح وهو يرغب في حيازة كل ما يراه خارج بلاده. فهو حين يرى على سبيل المثال سفينة أجنبية يرسل في استدعائي لزيارته وإذا ما حدثته عن جديد يثير اهتمامه يبدي من فوره رغبة في أن يكون لديه ما يماثله. كان منذ عدة أيام يسألني عن إمكانية بناء سفينة له في ثلاثة أشهر. فأجبته أننا في تولون Toulon نستغرق عامين عادة لمثل هذا الغرض. وفوجئت به بالأمس يقول لي: «أسرع بالانتهاء من هذه الصيادة البسيطة فأنا أريد أن أقوم بالتنزه على متنها». كان يتخيل إمكانية ذلك في خلال أيام، في حين إنه كان أمامنا ما لا يقل عن ستة أشهر حتى يمكنها الإبحار. والأوروبيون المستقرون بالإسكندرية كثر ... غير أن الدسائس والمكائد والثرثرة تحول دون تحقيق أي خير بينهم ... ويمكن الحكم بنفسك على ذلك بقراءة المقالات المنشورة عن مصر في جريدة التجارة لو جورنال دي كومرس Le Journal du Commerce. لم أكن قد أمضيت عدة أيام في مصر حين انبرت الأقلام تكتب الأكاذيب وتلفق الحكايات عني... لذا أنبهك لوجوب عدم تصديق كلمة واحدة مما يقولون».

في ذات التاريخ كتب العميد البحري الفرنسي روزامل Rosamel قائد الأسطول الفرنسي إلى وزير البحرية يقول: «قدم السيد المهندس الفرنسي دي سريزي إلى إبراهيم تصميم بناء ترسانة وقد تمت الموافقة عليه وسنقوم باتخاذ اللازم نحو تنفيذه. وقد بدأ العمل بالفعل في بناء حوضين كبيرين، وتتجه نية الباشا إلى أن يقوم فيهما ببناء سفينتين حربيتين، على متن كل واحدة منهما ثمانون مدفعًا في أقل وقت ممكن. هاتان السفينتان لن يمكن تسليحهما بالكامل إلا في منطقة أبي قير؛ بسبب قلة عمق الممرات في الإسكندرية وعدم ارتفاع المياه فيها لأكثر من ثلاثة أقدام. الواقع أن نشاط ومعرفة السيد دي سريزي محل إعجاب الباشا الذي يكن له احترامًا ويعامله بكل تقدير».

مواد ومستلزمات البناء

اضطر السيد دي سريزي أثناء إدارته لكافة الأشغال إلى أن يهتم عن طريق بوغوص بك بجلب كل المواد الأولية اللازمة لإنشاءاته من الخارج. فالواقع أن موارد مصر كانت بالنسبة له متواضعة. كان هناك مصنع صغير لأشرعة القلوع القطنية في رشيد يمكنه الإيفاء باحتياجات الفرقاطات والسفن ذات الرتبة الأقل. أما الأشرعة الخاصة بالسفن الحربية الكبيرة فكان يتوجب التوجه لإنجلترا لجلبها عن طريق شرطة برتجز Briggs المكلفة في لندن بكافة صفقات الوالي.

كان في القاهري مسبك هام يقوم بتوريد صفائح دعم ذات جودة عالية، وجدير بالذكر أن كل ترسيخ السفن الحربية كان من النحاس، ومصدر الشطر الأكبر منه برونز المدافع التي خلفها في مصر الجيشان الفرنسي والإنجليزي.

كانت عملية التوريد الأكثر إلحاحًا هي توريد الأخشاب اللازمة للبناء، وقد رؤي أن الغابات الأقرب إلى مصر هي غابات كرامانيا Caramanie والغابات الواقعة على ضفاف البحر الأسود، غير أن القيام بعمل طلبيات بهذا القدر الكبير من هذه الأقاليم تحت سمع وبصر تركيا قد يثير القلق ويشعل الغيرة في الصدور وفقًا لما أسره محمد علي لقنصل فرنسا: «إنهم يحسدونني على تجارتي وجنودي وسفني لماذا لا يحذون حذوي؟ فأنا أريد بحرية وأريدها لي وحدي».

تم عمل طلبيات لليفورنو Livourne؛ حيث كان يقيم شقيق بوغوص بك، ولإنجلترا. أما بالنسبة لأخشاب الصواري فقد طلب الوالي من الحكومة الفرنسية في مطلع مارس ١٨٣٠م سحبها من تولون Toulon، وتعهد بسداد قيمتها نقدًا لدى وصول الشحنة إلى الإسكندرية. وصل عدد القطع المطلوبة إلى ٧٧٩ قطعة وهو ما كان يعادل ثلث مخزون تولون Toulon اللازم للصواري. وفي الحقيقة إن قبول البحرية الفرنسية التنازل عن هذه الصواري التي اختزنتها منذ عام ١٨١٦م كان يعني إنفاقها ضعف قيمتها الحيازة ما يساويها مرة أخرى، كما أن ندرة الصواري الجيدة كانت تزداد يومًا بعد يوم في غابات الشمال.

لم تتمكن البحرية الفرنسية من عمل شيء إلا التوسط لتحديد الشركات التجارية في باريس القادرة على جلب هذه الصواري من بلدان البلطيق وكندا، ولم تفتر كل هذه الصعوبات من حماس وعزم السيد دي سريزي الذي كان يحفزه الوالي على بذل المزيد من الجهد.

كتب دي سريزي في ٥٢ يونية ٠٣٨١م، يقول:

«يحتفظ الباشا وابنه إبراهيم لي بتقدير كبير، وهما في ذات الوقت لا يغفلان عني ولو للحظة واحدة، والحقيقة أنني أجد نفسي مضطرًا للشجار أو لاختلاق أكاذيب محبوكة لكي أحظى ببعض الوقت للأكل والنوم. فلا وجه للمقارنة بين حكام هذه الدول وحكامنا. فهم يقومون على كل شيء ولا يمكنهم الحفاظ على بقائهم إلا ببذل نشاط كبير وإعمال أذهانهم. من هنا يمكن القول إنه كلما ارتفعت مكانة شخص تطلب الأمر منه بذل المزيد من الجهد؛ فالقائد الذي لا يرى في ضباطه إلا آلات منفذة؛ حقيقية يخلو من الذكاء وعليه الإلمام بأدق التفاصيل والاهتمام بها. فبالنسبة لي أجدني في آن واحد مديرًا عامًّا للترسانة، ومديرًا للإنشاءات، ومديرًا للمدفعية، ومديرًا للأشغال، ومديرًا للإدارة، ورئيس عمال في كل المهن على تباينها، ومساعدًا مبتدئًا في كل الأحوال، وبجانب ذلك كله يرغب الباشا في بقائي في صحبته ليلاً؛ حيث يقع قصره على بعد فرسخ تقريبًا من بيتي، وكثيرًا ما أقطع هذا الطريق في منتصف الليل ممتطيًا حصاني ومتدثرًا بمعطف عربي أبيض فضفاض. يتقدم مشروع الترسانة بخطى سريعة فمصنع الحبالة يوشك على الانتهاء. أما ورش السبك والمسامير والأقفال فهي في أوج نشاطها، والمصهر يسيل منذ عدة أيام، وورش الأدوات البحرية والأبراج الخشبية والمعدنية بدأت في الانتظام، واستقرت في إدارتي. وبدأت السفن الأربع التي قمت بتنفيذها وأعني هنا الفرقاطة والطراد والقلعية والصيادة في الإبحار. وشرعت في بناء ثلاث سفن حربية مزودة كلٌّ منها بمائة مدفع وسفينة سعتها أربعة وسبعون مدفعًا، بالإضافة إلى فرقاطة وطراد وناقلة. وهناك أسطول مكون من أربع فرقاطات وخمسة طرادات وثمان قلعيات وصيادتين مبحر في المياه المحيطة بشكل دائم وهو يكبدني مشقة كبيرة بالتلفيات التي يتعرض لها دومًا. ست ماكينات حفر تقوم حاليًّا بتعميق حوض المرفأ. على الجوانب كلها تقام حاليًّا أرصفة وهو ما يبشر بإمكانية اكتمال ترسانتي تمامًا خلال عام. وَلَدَيَّ في المتوسط نحو ألفي عامل بحري يزداد عليهم ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي لعمليات نقل الأرض والأخشاب حول ما يطلق عليه (برج بابل) من فرط تعدد اللغات والأجناس؛ فهناك فرنسيون، وإنجليز، وإيطاليون، ومالطيون، وعرب، وأتراك، وأرمن، وأقباط، وعرب من الصحراء، يعملون معًا ويتفاهمون بقدر استطاعتهم».

التنظيم الداخلي للترسانة

تأثر تنظيم الترسانة في مجمله بالسيد كيرجريست M. de Kergrist؛ قبطان السفينة الخافرة الفرنسية لاكونستانس La Constance التي بقيت خلال النصف الثاني من عام ١٨٢٩م والنصف الأول من عام ١٨٣٠م بالإسكندرية بناءً على طلب إبراهيم باشا. فقد طلب إبراهيم باشا من السيد كيرجريست رجاءً بكتابة تقرير عن حالة البحرية المصرية قبل رحيله في مايو ١٨٣٠م. وقد ترجم هذا التقرير وعرض على محمد علي الذي أمر بإرساله إلى عثمان باشا؛ اللواء بالبحرية؛ ليكون أساسًا لإرساء دعائم البحرية.



محمد علي يتفقد العمل بترسانة الإسكندرية

وأرسل التقرير بعد ذلك إلى السيد دي سريزي للعلم. وكان رد دي سريزي أنه يؤيد تمامًا كل التدابير التي عرضت عليه.

أما فيما يتعلق بالترسانة فقد تمنى السيد دي كيرجريست أن يعين ضابطًا بحريًا يألف الخدمة وتفاصيل الموانئ؛ ليدير أعمال تجهيز السفن وإعداد عتادها. أمل السيد دي كيرجريست كذلك أن يعهد بإدارة المدفعية إلى إمرة ضابط سبق له حمل مسئولية تسليح السفن والتزود بالأسلحة والعتاد وتعليم العمال والحراقين صانعي الأسهم النارية. وكتب يقول إنه يمكن الاكتفاء بثلاث إدارات لضمان خدمة منتظمة ويومية، هي: إدارة البناء والإنشاء وأعمال الترسانة، وإدارة الميناء، وإدارة المدفعية. ورأى أنه أمر أساسي أن يتولى السيد دي سريزي الإدارة العليا والتفتيش على كل هذه المنشآت. كما أردف أنه من الضروري لصالح خدمة معاليه - الباشا - أن تكون هناك وحدة إرادة وإنجاز: «بدا لي أن إمدادات سفن معاليه كافية غير أنها تتطلب شيئًا من الثبات والتحديد إيجابيًا ضمانًا للنظام وسلامة النواحي المحاسبية مما يقود إلى توفير في النفقات. ويمكنني القول إن السيد دي سريزي يتولى أمر الإمدادات بمعرفة ودراية في كافة مناحي الخدمة».

ثقة الوالي في السيد دي سريزي

وفقًا لمشروع السيد دي كيرجريست M. de Kergrist كان الأمر برمته يرتكز على السيد دي سريزي الذي تشجعه ثقة الوالي فيه. دعم وزاد هذه الثقة في بداية سبتمبر ١٨٢٩م وصول الفرقاطة ليجيبسيان L'Egyptienne التي تم بناؤها في مارسيليا لحساب محمد علي تحت إشراف السيد دي سريزي. كانت الفرقاطة قد أتمت أول إبحار لها وعلى متنها طاقمها يرفرف فوقها علم فرنسا. وقد كتب قنصل فرنسا معلقًا على هذا الحدث قائلاً: « كنا ننظر إليها نظرتنا لأكمل شيء يُرى من هذا النوع والحقيقة أنها هنا كما هي في فرنسا؛ محل إعجاب».

تنامت ثقة الوالي أكثر وأكثر لدى علمه في ٥ فبراير ١٨٣٠م عن طريق نشرة المبراق أن السيد دي سريزي قد عوم بنجاح الفرقاطة ذات الستين مدفعًا التي كانت قد بدأ العمل بها قبل قدومه إلى الإسكندرية، ونتيجة لكونها فرقاطة لم يكن هو من وافق عليها بينما استُكمل العمل فيها تحت إشرافه وإدارته فقط. تطلب تعويمها أعمالاً مهمة ذلك أنه على بُعد تجاوز المائة قدم من حوض بنائها لم يكن السيد دي سريزي قد وجد إلا عمقًا قدره ستة أقدام.

ما إن علم محمد علي بالخبر حتي أمر برفع الستائر التي تشير إلى وجوده في مؤتمر. كتب قنصل فرنسا واصفًا إياه: «ونهض ليتبادل الأحاديث يمينًا ويسارًا وهو يذرع القاعة ويجوب أرجاءها، وشارك في نقاش حاد تدافعت فيه الأفكار والمشروعات في ذهنه، مما جعله يستعرض ما أقام به وما ينجزه وما يرمح القيام به، وصولاً إلى تكوين قوة بحرية مهيبة وتطرق النقاش إلى مسألة السفن الحربية التي قتلت بحثًا».

عملية تعويم أول سفينة حربية

كانت مسألة السفن الحربية الكبرى، التي سنتطرق لاحقًا لأهميتها السياسية تقلق بشكل كبير كل الدبلوماسية الأوروبية. والحقيقة أن قنصل فرنسا لم يحجم عن انتقاد البرنامج البحري لمحمد علي من الناحية التقنية. كتب في ٢٦ يونية ١٨٣٠م إلى إدارته يقول: «الحقيقة أن المبالغ الطائلة المنفقة على البحرية يمكن أن ترشد وتوجه بطريقة أفضل، يدفعني لهذا القول أسباب عدة؛ أولاً: أن المضي في بناء أربع سفن حربية كبرى قد اعترضه نقصان الإمدادات من الصواري والأخشاب التي لم يتم مسبقًا التأكد من توفرها، مما قد يؤخر مع نقصان المياه عملية تعويمها لفترة طويلة. ثانيًا: أنه بمبالغ أقل كثيرًا كان من الممكن بدلاً من هذه السفن الحربية العملاقة التي قد لا تكون ذات منفعة حقيقية؛ الحصول على فرقاطات وعدد كبير من السفن الخفيفة الأكثر ملاءمة لوضع مصر السياسي والجغرافي».

لم يحُل ذلك دون استمرار محمد علي في سياسة بناء السفن، ويمكنني القول إنه قد تحققت له فائدة من هذا الأمر حتى قبل تعويم هذه السفن في شهر أغسطس ١٨٣٠م، وصل إلى الإسكندرية برتو أفندي Pertew effendi؛ مبعوث الباب العالي على متن طراد تركي. وقد كتب السيد ميموه M. Mimaut عن هذا الخبر لباريس يقول: «وضع الطراد الذي أتى بالرئيس السابق برتو أفندي Pertew effendi تحت ملاحظة دقيقة، وبالتالي وجهت إليه انتقادات عدة. الحقيقة أن العارفين بترسانة الإسكندرية قد أصبحوا غير سلسي التعامل منذ أن اعتمدوا على الفرنسيين، وأن البناء الفرنسي للسفن هو الوحيد المعروف بها. وجد هؤلاء الطراد سيئ التجهيز صواريه موضوعة بشكل غير جيد وغير معتنى به إجمالاً، ولكنه إلى حدٍّ ما مقبول كسفينة من القسطنطينية، وقد اقترح الوالي أن تصطحب المبعوث التركي في رحلة عودته بعض السفن من الأسطول المصري؛ ليُريَ العاصمة العثمانية عينات من إمكانيات ترسانة وبحرية مصر».

خلال المدة السابقة على عودة برتو أفندي Pertew effendi قام محمد علي - لإعطائه فكرة عن الترسانة - بدعوته ليشهد وضع العارضة الرئيسية على طول قاع ثالث السفن الحربية الضخمة والتي تحمل اسم La ville d'Alexandrie، صحب هذه العملية التي تمت في ٥ أغسطس ١٨٣٠م حفل ديني حضره الوالي ووزير الباب العالي وجلسا جنبًا إلى جنب. وفي ختام الحفل تمت التضحية بجاموستين ضخمتين أجهز عليهما العمال بما يقارب من ألف طعنة بعد أن كادوا يفقدون حياتهم بسبب هياجهما. وفي نفس التوقيت كانت هناك سفينة ٧٤ مسماة بأبي قير معدة للتركيب غير أن

الحوض الحجري الذي كان مخصصًا لإتمام العملية لم يكن قد تم الانتهاء من إعداده. هذا لم يمنع أن العمل كان مستمرًا في تجميع مزدوجات السفينة الرابعة ذات المائة مدفع التي تحمل اسم (دمياط Damiette) رغم عدم البدء حتى في عمل الحوض المخصص لها.

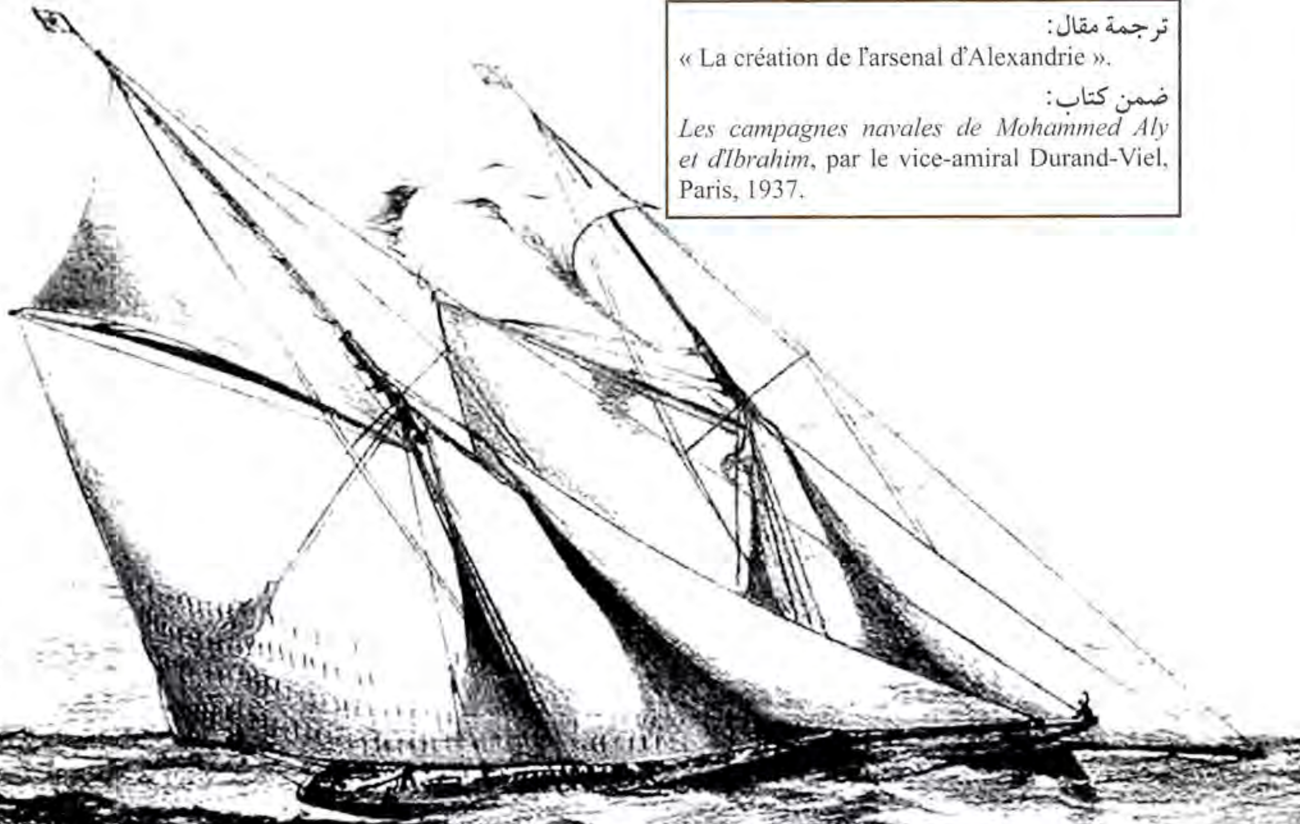
في ٣١ أكتوبر ١٨٣٠م كان بوسع قنصل فرنسا كتابة السطور التالية:

«لا تتوقف الحمية في البناء والنشاط السائد في الترسانة عن التزايد يومًا بعد يوم. هناك حاليًا في موقع العمل سفينة ٧٤، وثلاث أخريات سعة المائة، اثنتان منها مستعدتان للتعويم. كما أن هناك سفينة سعة مائة وثلاثين ستوضع مكانهما وقد تم طلب الأخشاب اللازمة لهذه الأخيرة ولخمس سفن أخرى سعة ١٠٠ وهي تصل تباعًا كل يوم. والحقيقة أن الوالي لا يحتاج إلا لبضع سنوات حتى يكون لديه عشرون سفينة حربية ضخمة يفترض أن هناك هدفًا لمثل هذا التسليح حتى لا يوصف بالجنوني».

لنا أن نتخيل في ضوء هذه الظروف كيف كان وقع تعويم أول سفينة قادرة على حمل مائة مدفع على أرض إفريقيا. الحقيقة أن بناء هذه السفينة التي أطلق عليها اسم «المحلة الكبرى» والتي تحمل رقم ٥ – كانت السفن المصرية مرقمة بترتيب بنائها – نوعًا من الجسارة العبقرية: كانت العارضة الرئيسية التي توضع على طول القعر قد وضعت بها قبل أن يكتمل الذي كانت ستوضع عليه. وقد تم رفع قفص المقدمة حين تم التمكن من تجميع القطعة الأخيرة من العارضة بباقي جسم السفينة. وقد تم تعويمها في ٣ يناير ١٨٣١م.

وكتب دي سريزي أن: «الأهمية التي كان الباشا يعقدها على بناء السفن ترجع إما إلى قوته الشخصية وإما إلى الحقبة التاريخية. أما العقبات التي كان عليَّ تجاوزها والفخاخ المنصوبة من قبلِ الحاسدين والماكرين والدساسين من كل البلاد والأنظار الموجهة إلى من كافة أمم أوروبا فقد كانت كلها لإخجالي وإخافتي. ولكني تمكنت من تجاوز كل شيء وخرجت منتصرًا فارضًا الصمت والخرس على أعدائي، مجبرًا إياهم لتهنئتي والإشادة بي. ولم يحدث أن حظيت سفينة أثناء تعويمها باحتفالية أكثر فخامة وبريقًا منها، فقبل التعويم بشهر بدأت احتفالات من كل نوع يوميًا وصولاً إلى اليوم المحدد. وانتشر الجمهور في الترسانة. في مدرج زين على النمط الأوروبي تم استقبال كل النساء. وكان هناك أربعة آلاف رجل بأسلحتهم. كانت كل السفن الحربية المصرية والأوروبية مزينة بالأعلام. ووقف ما يقرب من ألفي عامل في مواقعهم المختلفة. فبدأتُ في تخليص السفينة من دعاماتها الأساسية. جاء علماء الدين يؤدون الصلاة المعهودة، وتمت التضحية بعدد من الجاموس وصل إلى عشر. وكانت علامات الاندهاش والترقب والصمت يخيم على الجميع. وفي تمام العاشرة قطعت آخر حبل تدعيم فانطلقت السفينة في المياه بسرعة وجلال يجاوز العقل. في ذات اللحظة انطلقت مدافع قلاع الأرض والبحر والفرقاطات والطرادات والقلعيات والصيادات. مائتا رجل مصطفون في هيئة فرق على الأرصفة أطلقوا النيران بشكل مهيب. عندئذ قفز كل أصدقائي ورؤساء الدول والأجانب من كافة الأنحاء يعانقونني ويقبلونني. أخيرًا يمكنني يا صديقي أن أقول إنه يوم جميل من أيام حياتي. أطلقتُ في هذا اليوم أكثر من ألف طلقة مدفع. ولدي علم أن الباشا أقام احتفالات مماثلة في القاهرة، وبعد عدة أيام من الحدث تلقيتُ من معاليه الأوسمة التي تمنح للبكاوات، وبذلك يا صديقي أصبحت جنرالاً وأميرًا مصريًا».

ترجمة مقال:
« La création de l'arsenal d'Alexandrie ».
ضمن كتاب:
Les campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, par le vice-amiral Durand-Viel, Paris, 1937.



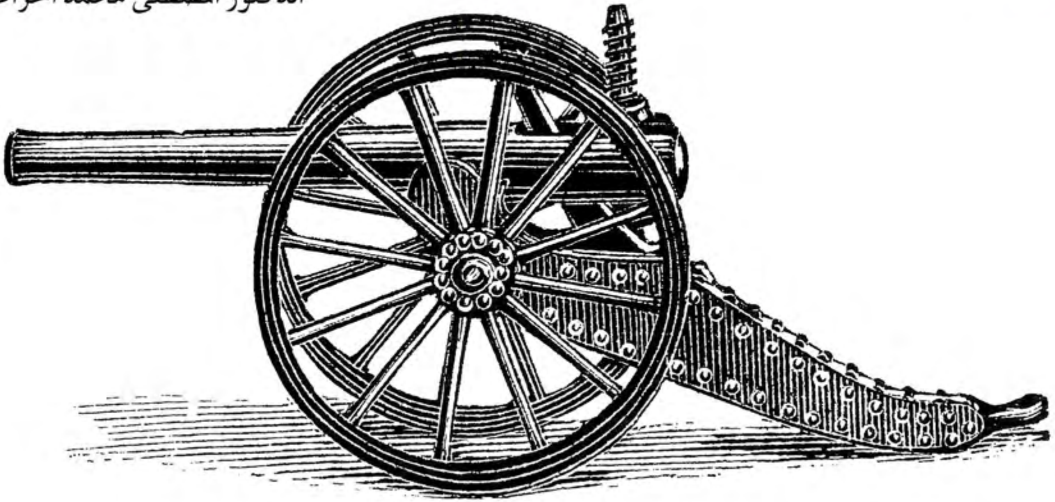




ترسانة الإسكندرية

المدفعية في عهد محمد علي

الدكتور المصطفى محمد الخراط



تنظيم القوى العسكرية في مصر في النصف الأول من القرن ١٣هـ/ ١٩م

رأى محمد علي باشا عند احتكاكه بالفرنسيين في المعارك الحربية التي دارت بينهما أوائل هذا القرن مدى تراجع النظم التكتيكية والسلاح في مصر بالقياس على ما وصل إليه الجيش الفرنسي من تقدم في هذه المجالات. وأدرك محمد علي باشا أنه لن يحقق تفوقًا حربيًا إلا بجيش قوي وسلاح حديث، فبدأ في عدة إجراءات من شأنها العمل على تكوين جيش قوي ونظامي مسلح بأحدث الأسلحة الحربية في ذلك الوقت، فكانت سياسة محمد علي باشا هي إنشاء قوة حربية ضاربة. ولتحقيق هذا الهدف اتبع محمد علي عدة سياسات من شأنها العمل على إنشاء جيش مسلح بأحدث الأسلحة الحربية في ذلك الوقت. وقد اعتمدت سياسة محمد علي باشا على عدة محاور رئيسية، هي:



المحور الأول: إنشاء جيش نظامي قوي مسلح بأحدث الأسلحة الحربية ومدرب تدريبًا علميًّا حربيًّا عاليًا.

المحور الثاني: الاستعانة بالمهندسين والخبراء الحربيين من الخارج، وذلك للعمل على تطوير الصناعات الحربية بمصر، وتدريب العمالة المصرية والتزود من خبراتهم.

المحور الثالث: إرسال البعثات المصرية إلى الخارج للتدريب العسكري والالتحاق بالمدارس الصناعية الحربية والعودة مزودين بالخبرات العسكرية والصناعية الحربية اللازمة.

المحور الرابع: إنشاء المدارس الهندسية الحربية اللازمة للعمل على الاكتفاء الذاتي من الأسلحة دون الاعتماد على استيرادها من الخارج.

المحور الخامس: تطوير الحصون والاستحكامات الحربية وتزويدها بالأسلحة اللازمة لها. وأدرك محمد علي جيدًا أنه لا تطوير للحصون والاستحكامات بطريقة علمية هندسية سليمة بدون دراسة العلوم المتعلقة بها دراسة أكاديمية سليمة، فعمل على إنشاء المدارس الهندسية الحربية المتخصصة في هذا المجال.

اهتمام محمد علي بتطوير المدفعية

لابد أن نعترف بمنتهى الوضوح أن المدفعية المصرية دخلت عصرًا جديدًا من التطور في عهد محمد علي باشا، وقد أولى محمد علي اهتمامًا خاصًّا بتطوير المدفعية. واتخذ لتحقيق ذلك عدة إجراءات من شأنها أن تحقق هذا الغرض. وكانت أولى هذه الخطوات هي محاولة تطوير المدافع وإدخال تحسينات فنية عليها؛ ففي عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م حاول أحد الضباط الفرنسيين ويدعى جوثار دي فينور Gothard de Veneur إصلاح المدفعية المصرية بابتكار نوع جديد من المدافع، ولكنه توفي قبل أن يضع ابتكاره موضع التجربة. وفي مارس ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م قام مهندس سويدي يدعى ويتر شيت Witter Schett بتجربة أخرى ولكنه لم يوفق. كما عرض الجنرال بوايبه على محمد علي في مشروعه الجديد ضرورة تنظيم المدفعية، كما طلب من وزير الحربية الفرنسي المركيز دي كليرمون تونير Clermont-Tonnerre الموافقة على إرسال بعض الضباط المتخصصين في المدفعية لتنظيم مصانع مدافع محمد علي وتنظيم فرق المدفعية وتعلمهم هذا الفن. وقد وافقت حكومة الملك شارل العاشر Charles X (١٢٤٠- ١٢٤٦ه/ ١٨٢٤- ١٨٣٠م) على هذا الطلب. وفي أغسطس ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م، وصل إلى الإسكندرية الضابط الفرنسي راي Rey الذي تمكن من إحداث طفرة كبيرة في صناعة المدافع بمصر، وهو ما جعل محمد علي ينشئ مدرسة متخصصة للمدفعية بطره تولى إدارتها ضابط إسباني يدعى أنطونيوا دي سيجويرا A. Seguera وهو الذي عرض على محمد علي إنشاءها لتخرج ضباط المدفعية. وافتتحت المدرسة رسميًّا في محرم ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م، وقد اختير لهذه المدرسة ٣٠٠ تلميذ من خريجي مدرسة القصر العيني التجهيزية، وكانوا يدرسون بها شتى أنواع الفنون الحربية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات والتدريب على الرمي بالمدافع وصيانتها. كما حرص محمد علي على ضرورة تدريب مَن تخرج في هذه المدرسة بصفة مستمرة وتقويم مستواه بناءً على ذلك.

كما اهتم محمد علي بصناعة المدافع فأسس ترسانة القلعة وتولى إدارتها أدهم بك قائد المدفعية، وكان يصنع كل شهر ثلاثة أو أربعة مدافع مختلفة الأعيرة بخلاف مدافع الهاون، وأطلق على هذا المكان (الطوبخانة). وقد قال المارشال مارمون عندما زار ترسانة القلعة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م أنه يضارع معامل الأسلحة في فرنسا؛ من حيث الإحكام والجودة والتدبير، وكان يُلحق بالعمل بترسانة القلعة العائدين من البعثات الخارجية الذين تخصصوا في مجال علم الصب؛ وهو أحد العلوم التخصصية المهمة الخاصة بكيفية صب المدافع بأسلوب علمي دقيق، ولم يتم الالتحاق بالعمل بمصانع صب المدافع بالقلعة إلا بعد اختبارهم للوقوف على مستواهم. وقد جاء ذلك بأمر صادر من محمد علي إلى ناظر الجهادية مؤرخ بـ ٢٠ رجب ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م نصه: «بما أنه مقتضى استخدام كلٍّ من أحمد أفندي وأمين أفندي الحاضرين من أوروبا بعد تحصيلهما علم الصب بالطوبخانة المصرية، فيلزم قيد أمين أفندي برتبة يوزباشي بماهية خمسمائة قرش، والثاني برتبة ملازم أول بماهية شهري مائة وثلاثين قرشًا، وإعطاؤهما مرتبات الرتب المذكورة، وامتحانهما في صب مدفعين من الطراز الجديد، وإخباره كسابقة التحرير».

كما اهتم محمد علي بصناعة سبك المعادن؛ لأهميتها في الصنائع الحربية المختلفة، وقد اهتم بالمهندسين والصناع العاملين بمصانع سبك المعادن وحرص على أن يتبعوا أحدث نظم الصناعة في ذلك الوقت، وهو ما جعل محمد علي في ٢١ من ذي القعدة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م يؤسس مدرسة متخصصة للمعادن أطلق عليها (مدرسة المعادن) يتعلم فيها الطلبة أنواع المعادن واستخراجها وطرق سبكها وكل ما يتعلق بها من صلة، وكلف سليمان باشا الفرنساوي بتأسيسها وإدارتها، وخصص لها مكانًا بالأزبكية، وقد اعتنى محمد علي بمن تخصصوا في هذا المجال وخاصة من عمل منهم في عمليات استكشاف واستخراج المعادن، وقد أطلق عليهم زمن محمد علي (الرجال الكيماوية) ووفر لهم سكنًا خاصًّا ومستشفيات بأماكن عملهم في الصحاري وأماكن استكشافاتهم. ولم تكن أماكن استكشاف واستخراج

هذه المعادن قاصرة على مصر، بل امتدت إلى أماكن أخرى خارج حدود القطر المصري. وكان محمد علي يرسل البعثات الاستكشافية إلى هذه الأماكن؛ لاستكشاف واستخراج هذه المعادن وجلبها إلى مصر، وقد وصلت مصر زمن محمد علي إلى درجة كبيرة من التقدم في هذا المجال.

كما أسس محمد علي معملاً لسبك الحديد على غرار مسابك الحديد بإنجلترا، وكان رئيس العمال فيه أحد البريطانيين، وقد استخدم هذا المسبك لصب الحديد المعد للسفن والمدافع وغيرها. ووفر محمد علي لمصانعه كل ما يلزم لها من معدات وآلات من أوروبا؛ وذلك حرصًا منه على إنتاج أسلحة بجودة عالية تضارع ما تنتجه المصانع الأوروبية. وكان حريصًا على متابعة كل من يعمل بهذه المصانع بصفة دورية للوقوف على مستواهم المهني، ومن يثبت عدم صلاحيته بعد اختباره يتم معاقبته دون هوادة، وكانت العقوبة تصل إلى حد الاستغناء عنه.

وقد شدد محمد علي على ضرورة توفير الحماية اللازمة لمهمات الجيش والمصانع الحربية وتعيين الحراسة اللازمة لمنع حدوث سرقات للأسلحة وخاصة مهمات الطوبجية. وكانت عقوبة سرقة الأسلحة ومهمات الجيش تصل في بعض الأحيان إلى السجن ويظل مكبلاً بالحديد مدى الحياة إن كان شابًّا، أو الإعدام إن تطلب الأمر ليكون عبرة لغيره.

أنواع المدافع في مصر زمن محمد علي باشا

استخدم محمد علي أنواع المدافع المتعارف عليها، وكان حريصًا أشد الحرص على استخدام أحدث المدافع الأوروبية الموجودة في ذلك الوقت، وقد أصدر محمد علي أوامره بضرورة جلب المدافع الأحدث من أوروبا، وجاء ذلك بأمر صادر من محمد علي باشا إلى محمود بك؛ ناظر المهمات في ٢١ ربيع آخر ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م، نصه: «بأنه سبق الاستفهام منه عن كيفية المدافع التي وردت من فرنسا هدية، وعلم من المضبطة الواردة بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٢٤٨هـ ورود ثلاثة مدافع، وآخر قلمبرينة، وأربع عربات جبه خانة برفقة قلونلي الطوبجي حال حضوره، وهي من المدافع اختراع ١٧٧٠ ميلادية، وجبة خانة تلك المدافع على ثلاثة أنواع: الأكبر وزن خمس أقق، والأوسط ثلاثة، والأصغر أوقة ونصف، وجبة خانة القلمبرنة الواحدة تسعة أوقات، فهو وإن كان صار استعمال ذلك لغاية سنة ١٨٢٨ ميلادية، لكن صار إيجاد واختراع أجناس أخرى خفيفة، وعليه يشير بمقارنة ثقل المدافع الجاري تشغيلها الآن بمصر على المدافع المذكورة لمعلومية ما إذا كانت مثلها في الثقل أو مثل الاختراع الجديد في الخفة». وعلى الرغم من اعتماد محمد علي على أنواع المدافع الواردة له من أوروبا، فإنه كان حريصًا على تجربتها قبل استخدامها في الجيش من باب الاطمئنان على جودتها، بالإضافة إلى رفض القديم منها ورجوعه إلى مصدره مرة أخرى، وكانت المدافع الواردة من أوروبا يتم تجربتها بجهة العجمي بالإسكندرية قبل اعتماد استخدامها في الجيش. وقد جاء ذلك بأمر صادر من محمد علي إلى مأمور ديوان الإسكندرية مؤرخ بـ ١٠ شعبان ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، نصه: «بأنه تبين من الشقة الواردة منه ورود مدفعين من مدافع البحرية من إنكلتره، وعليه يشير بتجربة ومقارنة المدفعين المذكورين على المدافع الموجودة، وإفادته عن المسافة التي ينتهي إليها مقذوفاتها عند التجربة بجهة العجمي، هذا إن كانت المدافع كبيرة، وإلا إن كانت صغيرة يصرف النظر عن تجربتها».

وقد انتشرت في عهد محمد علي أنواع من المدافع كانت مستخدمة لديه في الأغراض المختلفة؛ منها ما كان يسلح به الحصون والقلاع، ومنها ما كان يستخدمه في السفن الحربية، ومنها ما كان يستخدمه في الحروب وعمليات الحصار.

مدافع الحصون Fort Cannons

وهي على أنواع عدة؛ منها المدافع المعتادة مختلفة الأعيرة ومنها مدافع الهاوتزر والأبوس، نسبة لقذائف الأبوس التي كانت تستخدمها. وقد استخدم محمد علي ثلاثة أنواع من مدافع الأبوس، مدافع أبوس فرنساوي وهي التي جلبها محمد علي من فرنسا، وظهر منها ستة أنواع مختلفة الأعيرة، ومدافع أبوس إنجليزي جلبها محمد علي باشا من إنجلترا، ومدافع أبوس مصري وهي مدافع محلية الصنع صنعها محمد علي باشا بترسانة القلعة. وقد سبك محمد علي هذه المدافع من النحاس الأصفر، وجميع هذه المدافع مختلفة الأعيرة، وتتراوح أعيرتها ما بين ٧ بوصة (١٨ سم)، وأبوس ٦,٥ بوصة (١٧ سم)، و٦ بوصة (١٦ سم)، و٥,٤ بوصة (١٢ سم).

كما استخدم محمد علي باشا مدافع كاليفرن Culverin



مدافع الحصون

cannons؛ وهي مدافع القلبرينة، وأطلق عليها في عهد محمد علي مدافع القلمبرنة، وقد استخدمها محمد علي باشا في تسليح الحصون والقلاع، واستخدمها أيضًا في عمليات الحصار كمدافع ميدان، ويحتفظ المتحف الحربي بقلعة صلاح الدين بنماذج من مدافع القلمبرنة التي استخدمها محمد علي..

مدافع الهاون Mortar Cannons

انتشر استخدام مدافع الهاون في عصر محمد علي باشا، وكان معظمها محلية الصنع، وقد سبكت هذه المدافع إما من الحديد أو النحاس الأصفر، ومنها هاونات خفيفة وهاونات ثقيلة خصصت للحصون والقلاع، وأعيرتها مختلفة ما بين ١٠ بوصات (٢٥ سم)، و١٣ بوصة (٣٣ سم)، و٥،١٥ بوصة (٤٠ سم)، و٥،١٨ بوصة (٤٧ سم)، و٥،١٩ بوصة (٥٠ سم). وقد حرص محمد علي على تسليح الحصون والقلاع بهذه المدافع وزيادة سبكها، وقد جاء ذلك بأمر صادر من محمد علي إلى وكيل الجهادية مؤرخ بـ ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، نصه: «بأنه اطلع على رقمية في ٢٧ جمادى سنة تاريخه الوارد بالاستئذان عن سبك ثمانية مدافع هوان أربعة منها قطر عشرة أصابع وأربعة قطر اثنين وعشرين أصبعًا؛ لصرفها إلى بعض الجهات عند الاقتضاء؛ لخفتها في التعليمات وصعوبة نقل مدافع الهوان الثقيلة الموجودة بالطوابي والقلاع الآن. وبناءً عليه ولكون أن صب مدافع الهوان المذكورة احتياطي يشير بصب اثنين قطر ... إصبع واثنين من قطر ١٠ أصابع، الجملة أربعة». وعلى الرغم من حرص محمد علي على تسليح القلاع والحصون بهذه المدافع فإن عددها كان قليلاً بالنسبة لأعداد المدافع الأخرى، وأحيانًا كانت القلعة أو الحصن تخلو من مدافع الهاون، وتحتفظ متاحف قصر عابدين والمتحف الحربي بالقاهرة بنماذج من هذه المدافع.

مدافع الكارونيدز البحرية Carronade Cannons

استخدم محمد علي باشا مدافع الكارونيدز إنجليزية الصنع، وتحتفظ متاحف قصر عابين بنموذجين من هذه المدافع سُبِكا من الحديد، ودُوِّن عليهما تاريخ الصنع ١٨١٠م بالإضافة إلى رسم للتاج البريطاني، وقد استخدم محمد علي هذه المدافع كمدافع بحرية.



مدفع هاون مؤرخ بـ ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م يرجع لعصر محمد علي باشا ومحفوظ بالمتحف الحربي بالقاهرة



مدفع من نوع الكارونيدرز يرجع لعصر محمد علي باشا محفوظ بمتاحف قصر عابدين بالقاهرة

البارودخانة زمن محمد علي باشا

اهتم محمد علي باشا بصناعة البارود بمصر اهتمامًا كبيرًا، وذلك تماشيًا مع سياسة محمد علي الحربية، وقد حرص محمد علي على توفير كميات البارود اللازمة لتلبي احتياجات الجيش، وقد حرص محمد علي على النهوض بصناعة البارود بمصر؛ كون البارود المصري من أجود أنواع البارود. وقد خصص محمد علي مصلحة مستقلة للبارود أطلق عليها (مصلحة البارودخانة) تكون المسئولة عن صنع مسحوق البارود الجيد اللازم لمهمات الجيش وعليها أن تلبي احتياجاتها من كميات البارود اللازمة. وتماشيًا مع هذه السياسة أقام محمد علي عدة معامل للبارود كان أشهرها معمل بارود الروضة أو البارودخانة والتي أنشاها محمد علي ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م، أطلق عليها (جبخانة). وأول جبخانة أنشأها محمد علي كانت جبخانة القلعة، ولم يعرف لهذه الجبخانة تاريخ محدد لإنشائها غير أنها احترقت مرتين؛ الأولى ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م، والثانية ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م، ثم أنشأ بعدها جبخانة جبل الجيوشي شرق قلعة صلاح الدين، ثم جبخانة إسطبل عنتر التي أنشاها ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٩م.

وقد توسع محمد علي في إنشاء معامل البارود فأقام معملاً في البدرشين وصل إنتاجه في عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م إلى ١٦٨٩ قنطارًا، ومعمل الأشمونيين. وقد وصل إنتاجه في نفس العام إلى ١٥٣٣ قنطارًا، ومعمل الفيوم ١٢٧٩ قنطارًا، ومعمل أهناس ١٢٥٠ قنطارًا، ومعمل الطرانة ٤١٢ قنطارًا، وقد وصل إجمالي إنتاج معامل البارود التي أسسها محمد علي بالقاهرة والأقاليم إلى حوالي ٧٨٤,١٥ قنطارًا في عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م.

وقد اهتم محمد علي باشا بمشتقات البارود وخاصة ملح البارود، لاسيما وأن ملح البارود المصري -كما ذكرنا- يعد من أفضل الأنواع، وقد أطلق على ملح البارود في عصر محمد علي (الكهرجلة)، ونظرًا لاهتمام محمد علي الشديد بجودة صناعة البارود والاهتمام بمشتقاته، فقد أسس (مصلحة الكهرجلة)؛ لتكون متخصصة فقط في استخراج وتنقية ملح البارود، كونه من أهم مشتقات مسحوق البارود. وعلى درجة جودته ونقائه يتم تحديد ما إذا كان مسحوق البارود جيدًا أم لا، وقد توسع محمد علي في إنشاء معامل متخصصة للكهرجلات، وكان إما أن يلحقها بمعامل البارود، أو أن ينشئها مستقلة ببعض الأقاليم لتكون قريبة من مصدر ملح البارود كمعمل الكهرجلة الذي أنشأه ببنها والواسطي، وكان محمد علي يشدد على ضرورة عدم تأخير كميات ملح البارود أو الكهرجلة المطلوبة لعدم تأخير صناعة مسحوق البارود الضروري لمهمات الجيش، ومثلما كان ملح البارود المصري ذا مطل مُلحّ يحرص السلاطين العثمانيين على الاستفادة منه في العصر العثماني لجودته، استمر أيضًا هذا الوضع قائمًا في عصر محمد علي، فكان محمد علي يرسل إلى إسطنبول كميات من الكهرجلة المصرية لجودتها للاستفادة منها في صنع مسحوق بارود جيد للجيش العثماني.

وعلى كلٍ فإن محمد علي كان يراقب صناعة البارود مراقبة شديدة، بل وكان يحرص على تجربته ومقارنته بما جلبه من بعض المناطق الأوروبية، وكان يضع شروطًا لجودة البارود مع معاقبة من يخالف ذلك، وشدد محمد علي على ضرورة الوصول بمنتج البارود إلى درجة كبيرة من الجودة مع تجربته لمعرفة ذلك، في أمر صادر منه إلى وكيل الجهادية ١٩ محرم ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م نصه: «بأنه قد اطلع على ما ورد منه وعلم منه أنه لحصول تلف البارود الجاري أعماله بالبارودخانة لدى نقله من محل إلى آخر قد توجه للبارودخانة للنظر فيما يلزم لعمل بارود أجود من الجاري تشغيله، ولدى المذاكرة مع الأسطاوات، قد ادعوا أنه في إمكانهم عمل بارود أعلى؛ مثل بارود إنكلترا وطلبوا زيادة ماهياتهم مقابل هذه الخدمة، وحصل وعدهم بذلك، ويشير بأنه فيما سبق حصلت المكالمة مثل الآن، وبعد التشغيل وإرسال البارود إلى إسكندرية ومضي ستة شهور عليه تلف أيضًا، وأن ذلك مما صار تجربته مرارًا فيلزم الاشتراط عليهم بعمل البارود بالشروط الآتية؛ وهي عدم تلفه بعد مضي ستة شهور وبقائهم بالماهية الأصلية ومتى تبين عمله حسب المرغوب وقتها يمكن زيادة الماهية لأنه لا تأتي زيادة قبل رؤية ومعاينة البارود ومعرفة نفعه من عدمه، فعلى وجه ما توضح يجري مقاولة المذكورين وإدخال ذلك ضمن الشروط التي ستؤخذ عليهم مع ما يلزم ضمه كمطلوبه». وحقيقة الأمر أن هذا النص له أهمية كبيرة فهو يشير إلى أكثر من مدلول؛ الأول هو متابعة محمد علي لمنتج البارود وحرصه الشديد على تجربته للوقوف على جودته، كما شدد محمد علي على ضرورة صنع مسحوق بارود يضاهي مسحوق البارود الوارد من إنجلترا، ورفض مسحوق البارود التالف والأقل جودة منه كما رفض





محمد علي زيادة أجور عمال البارودخانة إلا بعد صنع مسحوق بارود بجودة عالية. وحدد محمد علي شروطًا صارمة لمعرفة جودة البارود؛ أهمها هي ضرورة تخزين البارود من خمسة إلى ستة أشهر للوقوف على مدى صلاحيته من عدمه، وبعدها تتم تجربته ومقارنته بالبارود الإنجليزي في قوته، وإن ثبت جودة البارود تتم زيادة أجور العمال وإن ثبت العكس يتم معاقبتهم، وهذا دليل على نهج محمد علي السليم في أسلوب الإدارة والنهوض بالصناعات المصرية لتصبح ذات جودة عالية.

ويبدو أن عمال البارودخانة استجابوا وبسرعة لأوامر محمد علي، ففي أقل من شهرين قاموا بصنع مسحوق بارود عالي الجودة بل أفضل من البارود الإنجليزي، وعندما قاموا على تجربته ثبت ذلك، غير أن محمد علي طالبهم بضرورة تخزينه الأول مدة خمسة أو ستة أشهر ثم تتم تجربته بعد ذلك، وبعدها يتم تحديد ما إذا كان هذا البارود جيد الصنع أم لا، وقد جاء ذلك بأمر صادر منه إلى وكيل الجهادية بتاريخ ١٨ ربيع أول ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م، نصه: «بأنه قد علم من الشقة الواردة من سعادتك إنهاء وإتمامماية قنطار بارود في قريب من الزمن واتضاح مشابهته للبارود الإنكليزي وزيادة قوته عنه لدى تجربته بمدفع الهوان وزاد عن مسافة البارود الذي كان جاريًا استعماله سبعة أمتار أو ثمانية، وبناءً عليه يشير بأنه لا يمكن معرفة كيفية البارود بمجرد التجربة في أول دفعة! بل اللازم هو تخزينه وتجربته بعد مضي خمسة أشهر أو ستة تتضح حالته وجودته ووقتها يستحق المدح والثناء».

وبعد تصنيع مسحوق البارود يتم توزع ما يلزم على التحصينات الحربية لتلبية حاجتها من كميات البارود اللازمة، وبعد توزيعه يتم تخزينه بأسلوب علمي سليم في مخازن أطلق عليها مخازن البارود Powder magazine وهي مخازن أنشئت في مكان أعد لها بالطابق الأرضي من التحصينات لحفظه مع الذخيرة من العوامل الجوية المختلفة، وخوفًا من أن تنال منها مقذوفات المهاجمين. ويلزم تكسية هذه المخازن بالأخشاب القوية؛ لأجل عزلها عن أضرار الرطوبة ولحفظها أطول فترة ممكنة. وقد كثرت مخازن البارود بتحصينات مصر الإسلامية، ويمكن ملاحظة ذلك بالعديد من تحصينات محمد علي باشا.

وهكذا رأينا جهود محمد علي باشا للنهوض بالصناعات الحربية وما بذله من جهد كبير في الوصول بمصر إلى أعلى مراتب التقدم والازدهار ليس فقط في المجال الحربي ولكن في كافة المجالات، ويستحق أن نصف هذا الرجل بالعبقري رغم أميته، فقد بذل جهودًا مضنية دون كلل أو ملل أو تعب. وقد ترك بلا شك بصمات واضحة في تاريخ مصر بعد أن جمع بين يديه السيف والآلة معًا، وأدرك أهمية التعليم فعمل على النهوض به. وأدرك أهمية الجيش فعمل على تكوينه والوصول به إلى أعلى مراتب التقدم الحربي. وكان هذا واضحًا في قدرته على الاستيلاء على بلاد اليونان؛ حيث عجز الجيش العثماني على قمع ثورات الخارجين على السلطان العثماني، بالإضافة إلى النهوض بالصناعات ومراقبتها للوصول إلى أعلى جودة ممكنة بل وتفوق مثيلتها الأوروبية. لقد كانت مصر بحق في فترة محمد علي باشا على أعتاب التقدم والرقي والازدهار، ولولا تكالب الأعداء عليها لأصبحت أرقى الأمم وأكثرها تقدمًا.



محمد علي وإسقاط المشروع التوسعي

تجربة الشام ١٨٣١ - ١٨٤١م

الدكتورة لطيفة محمد سالم

امتلك محمد علي إمكانات لاحدود لها، وبالطبع فإنه سخرها لتحقيق ما يصبو إليه، فمنذ أن وطأت قدماه أرض مصر، مضى يوظفها جيدًا، ولاسيما أن ظروفها ساعدته وأتاحت له أن يخطو الخطوة تلو الأخرى بتخطيط، جعله يحرز النقاط لصالحه أول بأول، وجاءت البداية موفقة؛ حيث أصبح واليًا على مصر المحروسة بطريقة هي الأولى من نوعها، وذلك عندما اختاره علماء مصر وهم المعبرون عن الإرادة الشعبية. ومنذ تلك اللحظة – وإن جاز القول – ربط مصيره بهذا البلد، وعد نفسه محظوظًا لتوليه زمام مصر الحاضر والمستقبل، ومضى في طريقه مع رؤيته الجديدة التي أرسى قواعد تأسيسها لتشمل تغييرات جوهرية، ووضع نصب عينيه تحديث مصر، فهو يعي تمامًا قيمتها استراتيجيًّا واقتصاديًّا وأيضًا مجتمعيًّا، وكيف أنها تكاد تكون الوحيدة التي تثمر أرضها وتطرح نجاحاته.

وعندما قرَّر محمد علي أن يعمل؛ رنا ببصره إلى الأوضاع الخارجية، وشغله سؤال تمثل في أنه إلى أي مدى سوف يتركه الآخرون الذين يسعون دأبًا لتكون مصر تحت هيمنتهم؟ إن الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر قد أصابها الضعف والوهن، وإن الأطماع الأجنبية على قدم وساق، وحملتا بونابرت وفريزر مازالتا ماثلتَين أمامه، وعليه أن يتصرف وفقًا للظروف الخارجية المتربصة بمصر. إذًا فهناك قيود تُدمي المعاصم، ولابد من التصرف إزاءها، وذلك في وقت تغلغل في نفسه مشروعه التوسعي، حقيقة إنه في باكورته لم تكن معالمه واضحة، لكن البذور قد وضعت في مصر، وأصبح عليها أن تنطلق وتمتد إلى الخارج.

لم يكن ممكنًا أن يخرج محمد علي من تحت مظلَّة الدولة العثمانية آنئذ، وإن كان قد أقدم على تدعيم شخصيته وجعل مصر ولاية ذات طابع خاص، وأن تكون هناك علاقة طيبة مع الباب العالي، الذي تقبل الوضع وأراد أن يستفيد منه. وقد وضح ذلك في الحرب الوهابية (١٨١١– ١٨١٨م) التي خاضها باشا مصر لصالحه، ومع هذا فقد أضافت المكانة والنفوذ لمحمد علي، وما تبعها من استيلائه على مناطق السودان وتوحيدها (١٨٢٠– ١٨٢٢م) ثم خوضه حرب المورة تلبية لرغبة السلطان للقضاء على الثورة اليونانية، ولو أن الهزيمة في نفارين (١٨٢٧م) قد جاءت بالخسارة عليه من جانب، ولكنها من جانب آخر قد أثبتت قوته أمام الدول الأوروبية.



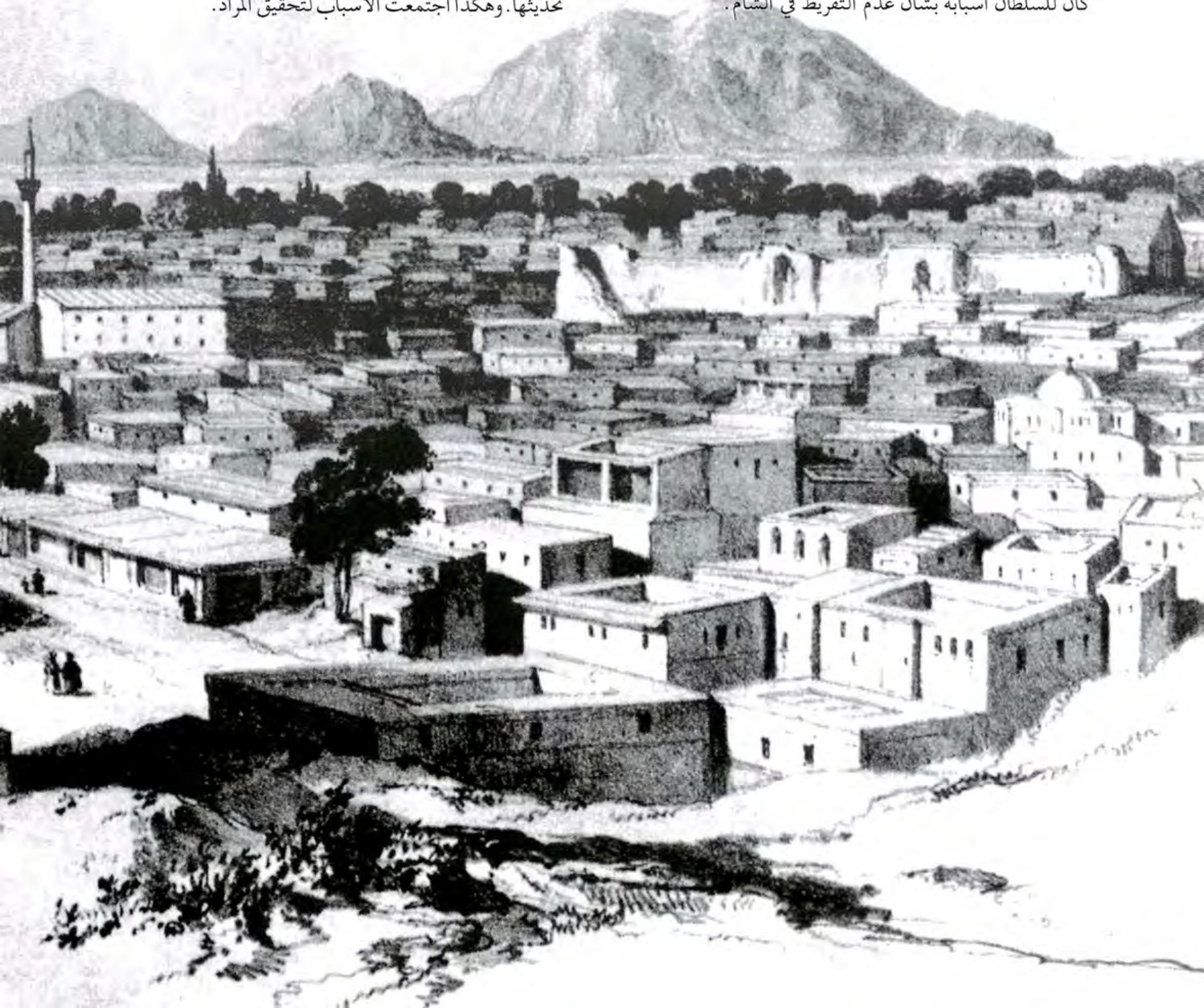
إبراهيم باشا ابن محمد علي؛ صاحب الدور الأكبر في مشروع محمد علي التوسعي في الشام

ودرس محمد علي الموقف جيدًا، ورأى أنه لن يستمر على هذا الوضع ويكون مُنفذًا لأوامر السلطان؛ إذ رفض تقديم المساعدة له في حربه مع روسيا (١٨٢٨م)، وأيقن أنه لابد من التحرر والخروج عن طاعته، ليس هذا فحسب، وإنما العمل ضده، وذلك بعد أن لمس جيدًا تصدع أركان الدولة العثمانية.

لماذا الشام؟

لم يغب الشام - هو المصطلح السائد وقتئذ، وعرف أيضًا باسم سورية، ويضم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن - عن خلد محمد علي، وكان ركيزة أساسية في مشروعه التوسعي، فقد شغل ذهنه منذ عام ١٨١٠م، وخلال حربه في شبه الجزيرة العربية أوضح للباب العالي أنه في حاجة إلى استراتيجيتها لتعينه على النصر. كما صرح للقنصل الفرنسي برغبته نظير جزية يدفعها للسلطان، ثم عاد ونوه بها له مع بداية حرب المورة، وكرر الطلب بعد نهايتها، فما كان من صاحب الأمر إلا أن أسند له حكم كريت، ورغم ذلك راح يعرض المزيد من الأموال، ولكن دون استجابة، وبالطبع كان للسلطان أسبابه بشأن عدم التفريط في الشام.

وقد عبَّر محمد علي عن استراتيجيته وأهمية ذلك لأمن مصر القومي بقوله لوكيله بإسطنبول: «إن الشام لازمة لمصر»، وأعلن أن حدود مصر الطبيعية جبال طوروس وليس برزخ السويس؛ بمعنى أنه عدَّها تأمينًا للحدود وحماية للممتلكات في المنطقة العربية. وكذلك فإنها لها أهميتها الاقتصادية، والحاجة للمواد الأولية للتصنيع وخصوصًا الأخشاب اللازمة للأسطول، ثم الحرير والزيتون والصابون والجلود والطباق والخيول، إضافة إلى منتجات آسيا الوسطى والشرق الأقصى. ومن جهة أخرى فإن مصر تصدر لها إنتاجها الزراعي والصناعي، وبالتالي يصبح هناك تكامل اقتصادي، كما أراد أن يستثمر الأموال وفقًا لسياسته الاحتكارية. ولمَّا لم يغب عن ذهنه مسألة المزيد من ضم البلاد، فإذًا هو في حاجة لرجال الشام الأشداء الأقوياء ليخوضوا حروبه، ومن المعروف أن الجيش كان العماد الرئيسي في مشروعه التوسعي، زد على ذلك فإن للشام مكانتها الدينية والثقافية، فهناك بيت المقدس، وبيت لحم، وبعض قبور الأنبياء والأولياء والمسجد الأموي والمدارس الفقهية. وهذا الأمر يعطيه القيادة الروحية، إضافة إلى مسئولية المحافظة عليها والإطاحة بأساليب النظم القديمة التي ران عليها الزمن عن طريق تحديثها. وهكذا اجتمعت الأسباب لتحقيق المراد.



التخطيط والتنفيذ والمواجهة

قبل أن يقرر محمد علي الزحف إلى الشام، مهَّد لعلاقة مبكرة مع بعض ولاتها، وأضحى مُلمًّا بكل صغيرة وكبيرة على أرضها، ومنحته الظروف الفرصة، تلك التي تمثَّلت في الأوضاع السيئة التي كان يعيش فيها؛ من حيث السكان ونوعياتهم وتقسيماتهم المذهبية والطائفية وشيوع التعصب والاضطهاد والصراع الإداري والقلاقل والفوضى ومساوئ النظام الإقطاعي والحروب الأهلية وغارات البدو. كل ذلك أفسح لمحمد علي المجال، وقدَّم إليه التسهيلات.

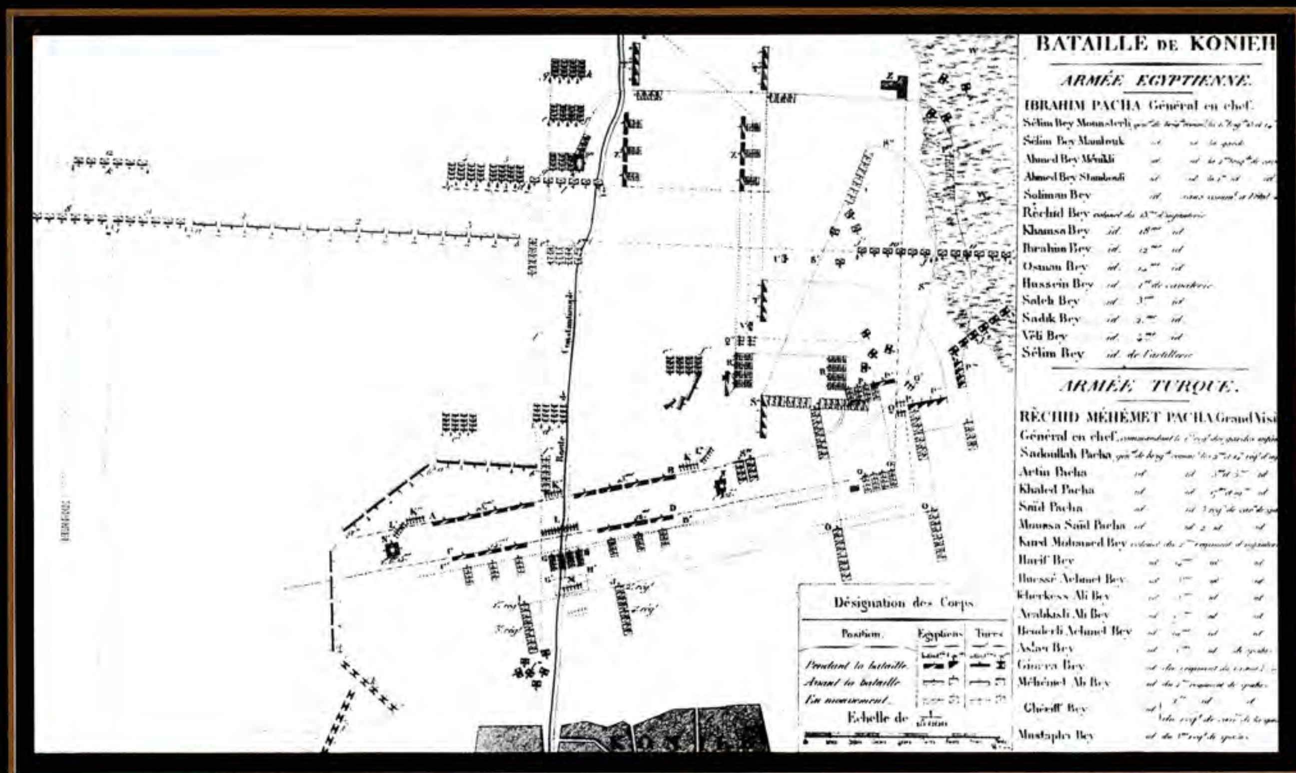
اتخذ محمد علي من عداوة عبد الله باشا والي صيدا تكئة لتجريد حملته على الشام، فأعدها في نوفمبر ١٨٣١م وفقًا لأحدث النظم الحربية، وصحبها الأسطول، وقادها ابنه إبراهيم ذو القدرة العسكرية الفائقة، ونجح في ضم الشام لمصر، ومُنيت القوات العثمانية بالهزائم، ورحب الشوام بالحكم المصري ليتخلصوا من المعاناة التي كانوا يرزحون تحتها إبان الحكم العثماني.

وتقدمت الحملة تجاه الأناضول، وبعد الاستيلاء على طوروس وأدنة، أمر محمد علي ابنه بالتريث لينال الاعتراف الدولي بهذا التقدم، ولم يكن إبراهيم يوافق على ذلك من منطلق رغبته في الزحف تجاه إسطنبول. وما لبث أن نشبت معركة قونية في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢م وانتصر فيها، وألحت عليه مسألة أن تقع عاصمة العثمانيين في قبضته، فأذن له محمد علي بالتقدم حتى وصل إلى كوتاهية، وعاد وأمره بالتوقف، في وقت كان المجلس الشرعي العثماني قد أصدر حكمه بتجريد محمد علي وإبراهيم من المناصب والرتب والألقاب، ورد عليه باشا مصر ببيان من الأزهر يتضمن تكفير السلطان وتوجيه نداءٍ للمسلمين لإنقاذ الإسلام منه.

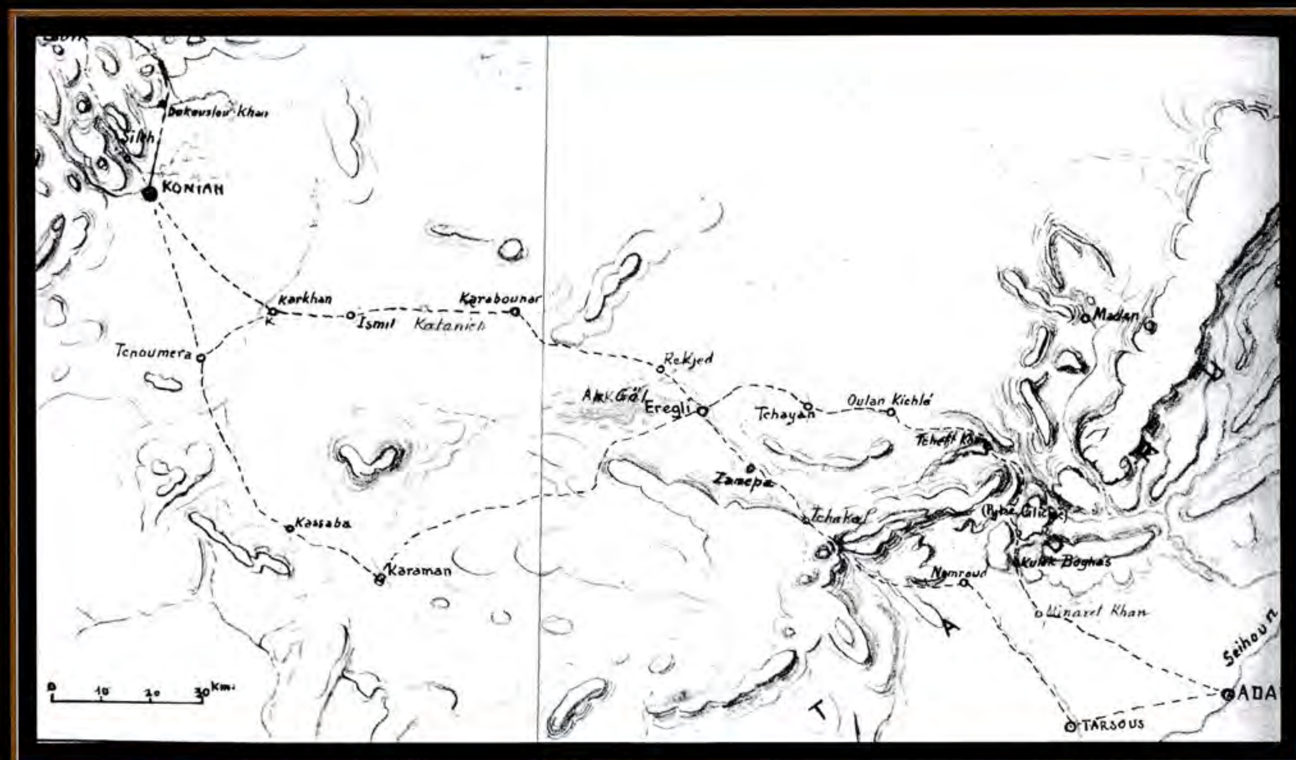
وعلى الفور تدخلت الدول الأوروبية، فلم يكن ما يحدث يتفق إطلاقًا مع مصالحها، ولاسيما مع تقدم إبراهيم والحصول على المزيد من الأراضي وأن الطريق قد أصبح مفتوحًا أمامه. وانتهت مساعيها بعقد صلح كوتاهية بين المتحاربين في ٨ إبريل ١٨٣٣م، والذي تضمن انسحاب القوات المصرية من الأناضول، وتثبيت باشا مصر على الحجاز وكريت، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها ٣٢ ألف كيس (=١٦ مليون قرش)، وأن يصبح إبراهيم واليًا على الشام، ثم صدر فرمان ٦ مايو من العام نفسه خوَّله إدارة إقليم أدنة. وبالتالي انتهت حرب الشام الأولى.



مدينة قونية



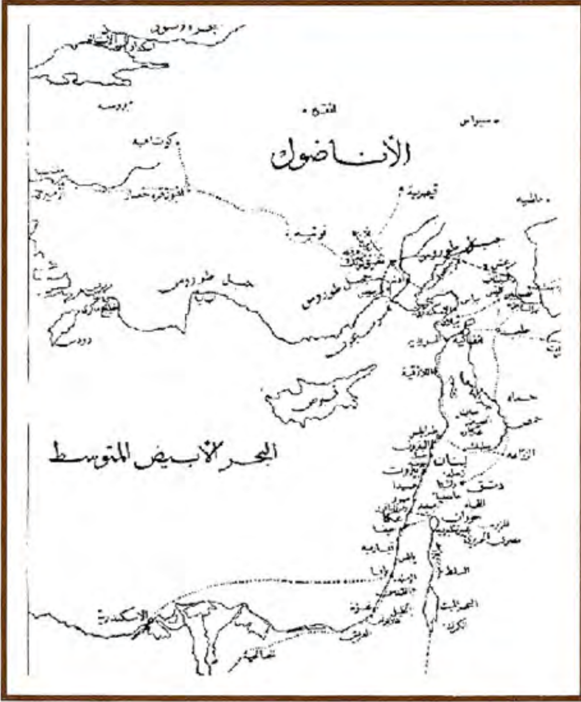
موقعة قونية



خط سير إبراهيم باشا في قونية ١٨٣٢م

عُدَّ صلح كوتاهية هدنة بين الطرفين، ورأى محمد علي أنه قد حان الوقت لتنفيذ رؤيته في الاستقلال؛ حيث صارح وكلاء الدول الأوروبية التي لم تكن ترضى بذلك لما يترتب عليه من آثار تتعلق بالتوازن الدولي والأمن الأوروبي. وتزعمت بريطانيا الرفض؛ إذ كيف يتحكم محمد علي في مفاتيح الطرق التجارية سواء في الفرات أو الخليج أو البحر الأحمر؟ ونتج عن ذلك أن عقدت معاهدة «بالطه ليمان» مع الدولة العثمانية التي قيَّدت الضرائب والرسوم الجمركية، وعليه صدر فرمان ديسمبر ١٨٣٥م لإسقاط احتكار محمد علي للحرير في الشام، ولم تكتفِ بذلك، وإنما عقدت معاهدة أغسطس ١٨٣٨م بإلغاء الاحتكار في كافة الولايات العثمانية، ومعنى هذا انهيار لسياسة محمد علي الاقتصادية التي تمثل ركيزة مهمة في استراتيجيته. ولم يمضِ إلا القليل حتى احتلت عدن في يناير ١٨٣٩م؛ للحد من نفوذ محمد علي في البحر الأحمر.

وأُعدت العدَّة لحرب الشام الثانية، وذلك بخرق الهدنة بعد أن ضمنت الدولة العثمانية المساعدة البريطانية من منطلق عودة الشام إليها. وتجمعت القوات التركية في نصيبين (نزيب) وعبرت التخوم التركية السورية، وهنا تقدم المحارب القوي إبراهيم باشا، فأخلى الأتراك مواقعهم وانسحبوا إلى نصيبين، فتقدم إليها بعد أن وضع الخطة المحكمة التي تقود للنصر، وحققه بفوز ساحق في ٢٤ يونية ١٨٣٩م، وكانت هزيمة الأتراك ساحقة، انسحبوا على إثرها، ومضى إبراهيم في تقدمه.



المواقع التي خاضها إبراهيم باشا أثناء حرب الشام


موقعة نزيب (نصيبين)- ضمن أحداث حرب الشام الثانية



موقعة نزيب – ضمن أحداث حرب الشام الثانية

وفي تلك الظروف الصعبة للعثمانيين، مات سلطانهم محمود الثاني، واعتلى العرش ابنه الصغير، ولجأ قائد الأسطول التركي إلى الإسكندرية، وسلّم الأسطول لمحمد علي، فأضاف له فرحة أخرى لنصر نصيبين، وباتت إمكانية سقوط إسطنبول وشيكة على يد القائد إبراهيم باشا الذي كان توّاقًا لدخولها. ومن ثم كان لابد من التدخل الأوروبي الذي حرص على وجود الدولة العثمانية التي غدا انهيارها متوقعًا، وأيضًا الخشية من تطبيق روسيا المعاهدة الدفاعية الهجومية (هنكار إسكله سي) التي عقدتها مع الدولة العثمانية في يوليو ١٨٣٣م.

ومرة أخرى، تقبض بريطانيا على زمام المبادرة في مواجهة محمد علي، وتطالبه بالتخلي عن الشام مقابل أن يكون له حكم مصر ولأسرته. وحينذاك شاب التردّد موقف فرنسا – نظرًا لظروفها الداخلية ولعلاقتها الحسنة مع محمد علي– بينما رأت النمسا أن حاكم مصر قد خرج عن الشرعية، أما روسيا فاقترحت الوصول إلى حل يرضي جميع الأطراف. ومن أجل التنسيق عُقد مؤتمر بالعاصمة النمساوية ڤيينا في يونية ١٨٣٩م؛ للحيلولة دون التقدم المصري تجاه إسطنبول، وقدمت الدول مذكرة للباب العالي في ٢٧ يوليو بأنه لا تسوية مع مصر إلا بعد مصادقة الدول عليها. وفي الوقت نفسه أرسلت بريطانيا قطعًا من أسطولها إلى ساحل بيروت تصاحبها بعض سفن لحلفائها.

وعقدت بريطانيا مؤتمر لندن، وتولت رئاسته، وحضرته النمسا وروسيا وبروسيا (ألمانيا)، ووقعت معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠م بإلزام باشا مصر بإعادة ما استولى عليه خارج ولاية مصر التي تصبح وراثية، والسماح له بولاية عكا مدى حياته، وَحُدِّدَت الفترة بعشرة أيام للموافقة من عدمه بالنسبة لكل ولاية.

ولم يكن من السهل على محمد علي الاستسلام؛ حيث حاول المقاومة. وقد وزع قواته على سواحل طرابلس وبيروت وصيدا، واستدعى قوات من الحجاز واليمن، ولكن دون فائدة، وسقطت عنه ولاية عكا، في وقت ضربت فيه قطع الأساطيل المتحالفة موانئ الشام واستولت عليها، وتخلّت فرنسا عن المساعدة التي كان يأملها محمد علي.

ولاشك أن الثورات التي اندلعت في الشام أسهمت في تصعيد الموقف، وأيضًا ما صنعته الأيدي الأجنبية؛ إذ تحوّلت القنصليات إلى بؤر مضادة للإدارة المصرية، وحيكت داخلها



موقعة نزيب – ضمن أحداث حرب الشام الثانية

المؤمرات التي استغلت نقاط الضعف ونَفَذَت منها، لتزيد الموقف اشتعالاً. ومن جانبها عملت الدولة العثمانية على استقطاب الزعامات الإقطاعية القديمة التي تعاونت معها لاسترجاع نفوذها وتحقيق مصالحها.

وصدر أمر محمد علي إلى القائد إبراهيم بالانسحاب من الشام، وجاء فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١م ليؤكد ما تضمنته معاهدة لندن، وليعطي لمصر وضعها الخاص الذي اختلف عن بقية الولايات العثمانية.

وبعد ستة أيام من صدوره، غادرت القوات المصرية آخر معاقلها في غزة، وكان طريق العودة مؤلمًا؛ حيث الجوع والعطش والإرهاق والمرض وهجمات البدو والموت. وعادت الشام إلى أوضاعها القديمة لتعيش من جديد الحياة الصعبة لما سبق الحكم المصري.

ما قدَّمه العهد المصري

عقد من الزمان (١٨٣١- ١٨٤١م) دخل فيه الشام تحت الحكم المصري، وكانت الإدارة هي البداية؛ إذ وُضعت لها الأسس، وقد رؤي تثبيت الإداريين المتعاونين مع الوافد الجديد لتأييد سياسته، ولمعرفتهم بمواقف أهاليهم، ولإمكانية التصرف، أي إبقاء ما يمكن الإفادة منه من ناحية، وإدخال نظم مستحدثة من ناحية أخرى. وتم تنصيب حاكم عام، أُعطيت له كافة السلطات، وأصبحت هناك تنظيمات هدفها إقامة حكومة مركزية. وكان لابد من القضاء على أمراض الإدارة المتجذرة، ومما يلاحظ أنه مع كثرتها في بداية العهد المصري، نجد أن مؤشرها اتجه للانخفاض؛ نظرًا للعقوبات التي اتُّخذت ونُفذت بشدة ودقة. وتأسست مجالس للشورى، اعتمدت على العنصر المحلي، وشاركت في التنظيم والإدارة، واعتمدت عليها الحكومة في تنفيذ سياستها. أما عن لبنان، فكان له طابعه الخاص، حيث سُلِّمت الإدارة المصرية للأمير بشير الشهابي حليف المصريين.

وخضع القضاء لإعادة التشكيل والتحديث، فتم الحد من المساوئ التي عاشت فيها المحاكم الشرعية، ووُضع القضاة تحت المراقبة، وأصبحوا تابعين للسلطة الإدارية، وأُعطيت لمجالس الشورى سلطة قضائية في القضايا المدنية والتجارية، ووجدت درجة للاستئناف، ولكن كان من سلطة الحاكم إصدار الحكم النهائي. ونُظمت العقوبات، ومورس القضاء الخاص في لبنان ولدى القنصليات، وفي الأحوال الشخصية لأهل الذمة.

أما بالنسبة للشئون المالية، فقد تخلّلت إداراتها الصعوبات؛ نظرًا للاحتياج المتواصل للأموال، لتغطية الطلبات الملحة، ولتنفيذ المنهج وفقًا للسياسة المرسومة. وتأسست إدارة مالية حازمة، قبض على أمرها حنا بحري، وهو شخصية مسيحية محلية صاحبة خبرة، ونفّذ ما وُكّل إليه من مهام.

وخُطط للميزانية للعمل على زيادة الدخل، ولكن كثرة النفقات نتج عنها الإصابة بالعجز، وصار على مصر الالتزام بتغطيته. واعتمدت الإيرادات على الضرائب التي تنوعت بين القديم والحديث، والأخيرة تمثلت في ضريبة الفردة (الرأس) وكانت من معوقات الإدارة المصرية؛ حيث لم يُحسن الجهاز التنفيذي التطبيق؛ إذ مارس الضغط، وإن وُجدت اللمسات الإيجابية بشأن التخفيف تبعًا للظروف القائمة.

وشملت الإيرادات الرسوم الجمركية، واقتصرت الداخلية منها على جمرك واحد، ومُنحت التسهيلات. أما الخارجية، فقد تمتع الأجانب بأوضاعهم الخاصة واستغلوها، وأسبغوا الحماية على من سعى إليها من الأهالي للتحايل، مما أدى إلى نقصان الدخل، وتمت المعالجة بشيء من التصرف في التنظيم والتحصيل. كما خضعت العملة للتغييرات وفقًا للسوق المالية، فأحيانًا تثبت أسعارها، وأحيانًا تُخفض؛ لأن العملة التركية لم تكن توازي قيمتها الحقيقية من الذهب.

أولت الإدارة المصرية الزراعة الاهتمام البالغ، فقد أُسقط النظام الإقطاعي، ووزعت الأراضي وفقًا لتقسيمات جديدة، وتوفرت عوامل الإنتاج، وأسهم الفلاحون في تقدمها مع تشجيع الإدارة وعطاءاتها لهم؛ لتحيي الأرض وتُعمِّر القرى بعد هجرة أصحابها منها، وأصبح يسمع لصوت الفلاحين وتُحقق في شكاواهم بعد إقصاء مستغليهم، وصُدَّت هجمات البدو عنهم. وازداد عدد القرى، وتنوع إنتاجها، فكان التوسع في زراعات التوت والزيتون والكروم والقطن والحبوب والقنب والطباق والفواكه، وأُدخلت زراعات جديدة، واهتُم بالبساتين، واعتُني بالأشجار، ووُفرت مياه الري. أيضًا نال الإنتاج الحيواني والداجني الرعاية.

وبالنسبة للصناعة، فقد جرت محاولات لتحسين الإنتاج الذي ارتكز على الغزل والنسيج، وأُخضع للطرق الحديثة، وشُجعت الصناعة المحلية، وقُلّل - إلى حدٍّ ما - من استيراد المصنوعات الأوروبية. وارتفعت أجور الصناع، واهتمت السياسة الصناعية بالمعادن كمواد خام، ومضى العمل في التنقيب.

ولما كان محمد علي قد حقق الهدف من سياسته الاحتكارية في مصر، أراد تطبيق الاتجاه نفسه على الشام، فبدأ بالحرير، وإن حُدِّدت الكمية المحتكرة، ونُظّمت المسألة بشكل لا يُغبن فيه سواء الفلاحون أو التجار. ودخل القطن والصوف تحت الاحتكار لبعض الوقت. وأمام الموقف الخارجي الرافض لهذه السياسة، ووفقًا لنظام الامتيازات الأجنبية، حملت بريطانيا لواء المعارضة، وانتهى الأمر بوقف الاحتكار وخصوصًا الحرير.

وعن التجارة، فكان للأجانب الدور الكبير فيها، وسيطروا على أغلبيتها، وعندما أرادت الإدارة المصرية تحجيم تسلطهم وعملت على تنشيط الحركة التجارية، أطاحت بريطانيا بقواعد التقييد، وحذت حذوها بقية الدول، وبالتالي وُضعت العراقيل أمام التحركات المصرية، ولكنها صمدت واشتدت المنافسة في الميدان التجاري الخارجي. وغطّت الشام احتياجات مصر، كما صدَّرت لأوروبا. وعبر الشام توفرت البضائع الآسيوية، وأُخضعت الموانئ لنظام جديد بشأن ترتيبات الشحن وغيره. وانعكست الحركة التجارية الخارجية على التجارة الداخلية، وقُبض على زمام الأسعار، وجرت مراقبة الأسواق، وأُنزلت العقوبات المشدَّدة بالمخالفين.

وقدَّمت الإدارة المصرية الخدمات، وكان للتعليم الحظ الأوفر، فأنشئت المدارس الحكومية النظامية في المدن الرئيسية، ووضعت لها البرامج لإعداد الشباب عسكريًّا، وجُلبت الكتب من مصر، تلك التي شملت مختلف فروع العلوم والآداب. كذلك فإنه مما ساعد على صحوة النشاط الثقافي ما أقدمت عليه المؤسسات الطائفية التي مارست عملها في مناخ بعيد عن التعصب.

وَوَجَّه أُولو الأمر العناية بالصحة، فأُنشئت المستشفيات، وتبعتها الصيدليات، ووضعت القواعد الصحية لمقاومة الأمراض، وتأسست المحاجر الصحية (الكارنتينات)، وطبقت القوانين الخاصة بالنظافة.

ونالت المرافق العناية، وبعضها اختص بالجانب العسكري، والآخر بالجانب المدني، وجرت إصلاحات الطرق والقنوات وتحسنت وسائل النقل ونُظِّم البريد.

وكان من الخطوات المهمة التي اجتازها الحكم المصري بنجاح احتواء البدو، ففي البداية تم صد هجماتهم، وتلاها الإغارة عليهم، وحرمانهم من المكاسب التي اعتادوا الحصول عليها بالسلب والنهب وفرض الإتاوات، ثم اتُّبع أسلوب التوطين للمساهمة في الزراعة؛ بهدف دفع شرورهم عن الطرق. كذلك اتُّخذت الوسائل لاستتباب الأمن، فازداد عدد رجاله، وتعدَّدت مراكز الشرطة، وتضاعفت أوقات الحراسة، وضُمِّنت المسئولية، وحوربت الجرائم، وصدرت التعليمات لرجال الجيش بالالتزام، ورُصدت تصرفاتهم، وأُمِّنت الممتلكات،

وفرضت العقوبات السريعة، وصدرت الأحكام الناجزة.

وحققت الإدارة المصرية المكاسب لأصحاب الديانات، وبدأت بالمسلمين في الُحجج والمساجد والأوقاف. وبشأن أهل الذمة، فقد تمتعوا في العهد المصري بامتيازات لم يعهدوها من قبله ولا من بعده؛ إذ رفعت عن المسيحيين من زائري القدس الأعباء المالية، وأعفت المؤسسات الدينية من المقررات التي كانت مفروضة عليهم، وحققت لكل طائفة مطالبها. ولم يقتصر الأمر على العبادات، بل امتدت سياسة التسامح إلى الناحية المدنية، فشغل المسيحيون المناصب التي كانت محرَّمة عليهم، ومُنحوا الرتب والألقاب، ومثلوا في مجالس الشورى، وعملوا بالتجارة والأموال، وفكّت القيود التي سبق أن فُرضت عليهم في الملابس وغيرها، وأصبح الجميع سواسية، وذلك وفقًا لما حدث في مصر؛ إذ أقصى محمد علي من أجندته العنصرية؛ من حيث الدين والعِرْق. كذلك تمتع اليهود بامتيازات الحكم المصري، وتحققت رغباتهم ولكن في إطار محدود، لقد تمتعوا بالحرية في حياتهم، وكفلت الحكومة لهم الحماية، ومع هذا فإنهم إذا حاولوا رفع سقف مطالبهم، لم تستجب لهم.

وكان للحكم المصري الموقف من القناصل واستغلالهم السلبي للامتيازات الأجنبية، فحاول الحد منها في وقت قدَّم لهم الاحترام الذي افتقدوه سابقًا، وسمح لهم بما كان محظورًا عليهم، وطبق ذلك على الأجانب المقيمين.

ولكن على جانب آخر، وأمام تلك الأوضاع التحديثية التي هيَّأها الحكم المصري للشوام مختلفي التوجهات، كانت هناك المضادات للسياسة المصرية، وذلك بعد فرض الالتزامات عليهم؛ منها: الإمدادات التي تُورد للجيش، والعمَّال الذين استخدموا في الخدمات العسكرية وغيرها، والتجنيد الإجباري، والتجريد من السلاح، وكان ذلك لايتفق مع ما اعتادت عليه طبيعة السكان، ثم الاحتكار الذي عانى منه البعض، والضرائب التي أُثقلوا بها. وبالتالي حدثت رودود أفعال، جاء في مقدمتها التسحب لخارج الحدود، والهروب بالحصول على الحماية الأجنبية، وتلا هذا - وهو الأكثر جرأة وتحدٍّ - قيام الثورات، وبدأت بالثورة الفلسطينية، وتبعتها الثورة الدرزية، ولحقت بها الثورة اللبنانية. تلك الثورات التي أججتها القوى الأجنبية عن طريق وكلائها وجواسيسها، ليس فقط بالعون والدعم، وإنما كذلك بالتخطيط مع الدولة العثمانية لإسقاط النظام المصري الذي حاول التصدي لذلك، فنجح حينًا، ولكنه لم يستطع مواصلة المقاومة في ظل هذا التكاتف المضاد، والذي ازداد عليه في الفترة الأخيرة؛ إذ تحوَّل المؤيدون وانكشف الخائنون وطغت ألاعيب المنتفعين.

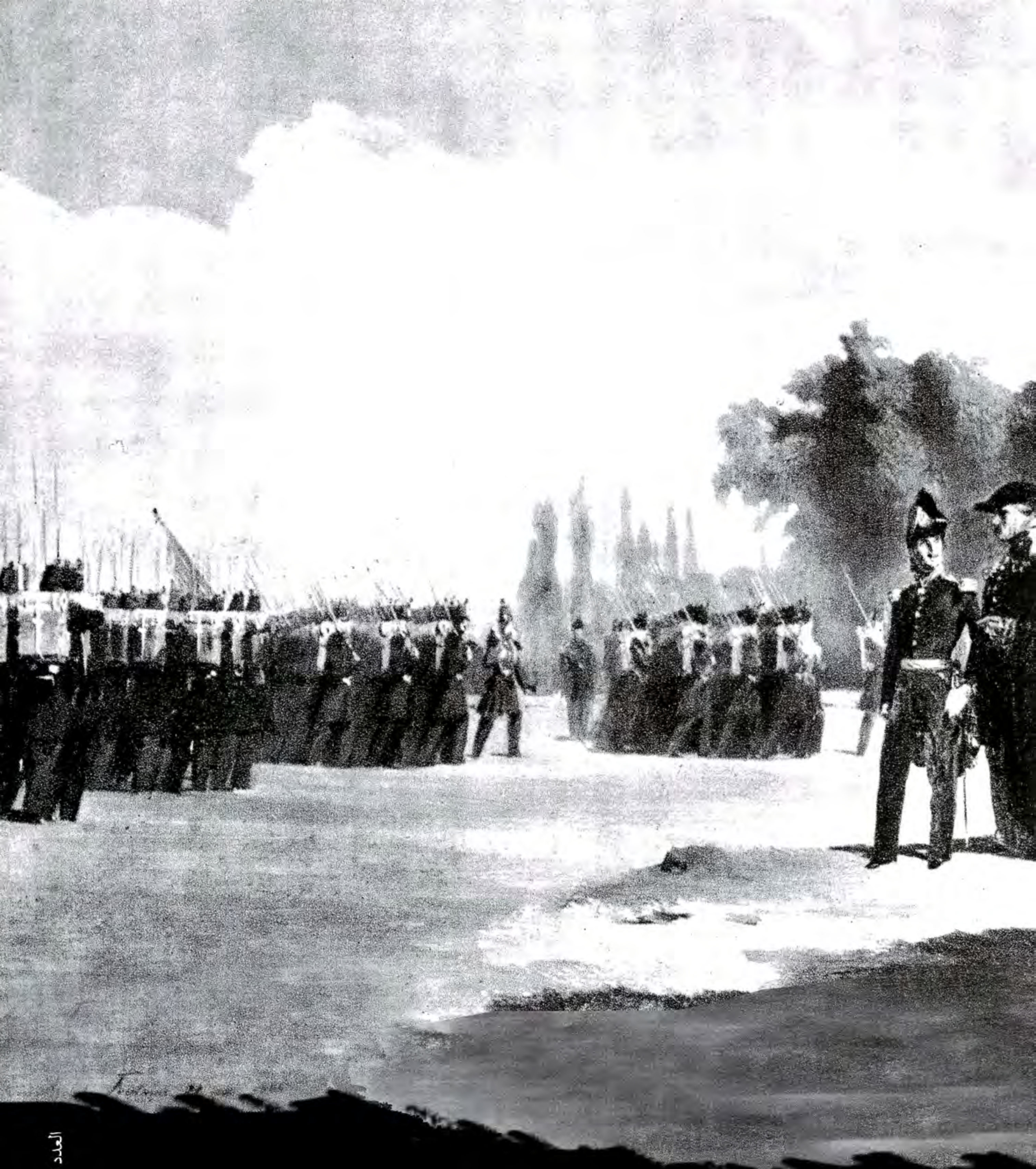
ونُفِّذت المؤامرة، وأُجهض الحكم المصري في الشام، والنتيجة إسقاط مشروع محمد على التوسعي؛ حيث لم تكن الإمبريالية تسمح بالاستمرار، لما يتعارض ذلك مع استراتيجيتها بشأن المسألة الشرقية التوأم لنظرية المحافظة على الوضع الراهن.

لقد تمكن محمد علي باقتدار ومعه القائد إبراهيم وشريف باشا الحاكم العام (حكمدار عربستان) من النهوض بالشام، وإذا تم قياس ما حدث على فترة ما قبل الحكم المصري وأعقابها، نلمس بصورة واضحة الفروق الجوهرية في مختلف مناحي الحياة. وكُتب التاريخ التي ألَّفها الشوام سجَّلت ما جرى أثناء العمر القصير لهذا الحكم بحيادية، معترفة بما قدَّمه في مختلف المجالات من أجل دولة حديثة تُلحق بمصر الأم، لها الثوابت يسودها الأمن والاطمئنان والعدل والرخاء، وإن كان قد تخلَّلها بعض السلبيات من أجل تحقيق الأهداف المرجوة، والتي لم يتحمَّلها الشوام الذين تعمقت داخلهم عاداتهم التي لم تكن تتواءم مع النظام الجديد.

تمثال إبراهيم باشا بميدان الأوبرا بالقاهرة







مراسلات محمد علي ودول التحالف الرباعي بشأن إعلان الاستقلال

قراءة في الوثائق البريطانية

الدكتورة صفاء خليفة

لا شك أن محمد علي كان يلمس ضعف الدولة العثمانية ويشعر بأنها مقبلة على نهايتها، وكان يعرف أن سوء نظامها واختلال أمورها قد هبطا إلى الدرك الذي لا نهوض لها بعده، وبعد أن استقرت له الأمور في مصر أحس بأنه لا يزال في خوف من رجالها؛ لهذا اتجهت آماله في السنوات الأولى - على الأقل - من حكمه إلى الرغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية، وإقامة دولة قوية في مصر له ولأبنائه من بعده.

جمع محمد علي رؤساء وقناصل الدول في مايو ١٨٣٨، وأبلغهم عزمه على إعلان استقلاله بحجة أن استقلال مصر هو خير ضمان لاستئناف السلام في المنطقة، وطلب إليهم استشارة حكوماتهم في هذا الشأن قائلاً: **«لا يمكنني أن أرضى بترك ما شيدته من المنافع والمرافق بمصر طول هذه السنين مما كلفني أموالاً طائلة في يد الباب العالي بعد موتي، وإن قلبي لينفطر كلما فكرت في أن ثمرة أتعابي ضائعة ومصيرها للفناء وأن أولادي وأسرتي ستصير بعد موتي تحت رحمة الباب العالي»**

وقد اعترض قناصل ووزراء خارجية الدول الأوروبية في مصر آنذاك على رغبة محمد علي بالاستقلال وحذروه من عواقب هذا العمل وبدأ تحيزهم لتركيا وأظهروا تحاملهم على مصر، وظهر ذلك من خلال مكاتبات بينهم وبين بعضهم البعض على النحو التالي:

في برقية رقم (١٨٢) يونية ١٨٣٨: أعلن محمد علي أن الحكومة المصرية قد قررت أنه قد حان الوقت لمثل هذا الإعلان، ولكن لا بد من التواصل مع القوى الدولية بقدر كاف، وأن التهديدات الفرنسية والبريطانية بغزو أراضيه أو محاصرة موانيه لن تردعه عن قرار الاستقلال، وأن لديه ما يقرب من ٢٠٠ ألف جندي للمقاومة إذا تطلب الأمر كذلك، فجاء رد الكونت موليه (وزير خارجية فرنسا)، واللورد جرانفيل (وزير خارجية إنجلترا)، أن فرنسا وبريطانيا تهدد محمد علي بالحصار حال تنفيذه لخطته في الاستقلال، كما أنه يجب مراعاة المصالح الروسية في الشرق.

وفي برقية أخرى رقم (١٩٠) ٤ يونية ١٨٣٨:

تزامنت اعتراضات كل من قناصل فرنسا وبريطانيا وروسيا في مصر مع اعتراض القنصل النمساوي (مستر لورين)، واتفقوا على أنه لا بد من أن يتوحدوا في مواجهة وردع محمد علي عن اقتراحه بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية. كما أكد الكونت ميدم Medem – وزير الخارجية الروسي- أن ليس لديه شك في ميل الحكومة الروسية أن تبذل أقصى جهدها لمنع محمد علي أن يعلن الاستقلال، ورد الكونت موليه (وزير خارجية فرنسا) أن رؤية فرنسا لذلك متوافقة مع روسيا، ولكن موليه أخبر اللورد جرانفيل (وزير خارجية إنجلترا)، أنه يشك في سياسة التمثيل المشترك للقوى الأربعة، خاصة إذا كان يصاحبها التهديد، فإذا كانت فرنسا وإنجلترا تهدد بالحصار فإن روسيا تهدد بالجيش، ولذلك ينصح بأن يتصرف كل قنصل على حدة.

وبعد انتصار الجيش المصري في معركة نصيبين وتسليم الأسطول التركي لمصر صارت مسألة التوازن الأوروبي في خطر وأصبح للدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعًا لاختلاف أطماعها ونزعاتها الاستعمارية على النحو التالي:

- **النمسا** كانت تميل إلى تعزيز مركز تركيا لغرضين، أولهما ألا يجعل لروسيا ذريعة للتدخل في شئون تركيا وبسط حمايتها عليها، فإن ذلك خطرٌ على النمسا، والثاني أن النمسا بإمبراطورها في ذلك الوقت تعارض مثل هذه الثورات التي يراد منها الخروج على سلطة الحكومات الرسمية، فكان ينظر إلى قيام محمد علي ضد تركيا كثورة على الحاكم الرسمي، وترى أن قيام محمد علي ضد تركيا هو ثورة على الحاكم الرسمي. ومبدأ مترنيخ مقاومة الثورات القومية.

- **أما بروسيا،** فلم يكن لها أطماع في هذه الأزمة، وكانت فقط ترمي إلى الحفاظ على السلم؛ تحسبًا لاندلاع أي حرب أوروبية، وكان ملك بروسيا يكره فرنسا من ناحية أخرى ويعمل على مناهضتها في المجال الدولي لأسباب قومية ويميل إلى السياسة المناهضة لسياسة فرنسا.

- **أما روسيا،** فكانت تسعى حثيثًا للاستفادة من أوضاع الدولة العثمانية للتدخل في شئونها بحجة الدفاع عنها، وتقوية نفوذها في مناطق البسفور والدردنيل وفي البلقان وغيرها من المناطق التي تخدم مصالح روسيا وتشبع أطماعها.

وفي برقية رقم (١٩٢) ٨ يونية ١٨٣٨:

أكد الكونت ميدم أن روسيا تحرص على الإبقاء على الأوضاع على ما هي عليه بين السلطان العثماني ومحمد علي، وحثت فرنسا على التحرك بخطوات في اتجاه منع محمد علي، ولكن فقط في حالة تهديد السلطان العثماني.

- **أما تركيا،** فبعد تولي السلطان عبد المجيد عرش السلطنة وهو لم يتجاوز عمره السابعة عشرة بعد وفاة السلطان محمود الثاني، فضلت السلم والمفاوضة مع محمد علي، ولكن الدول الكبرى بأطماعها، وخاصة إنجلترا عملت جاهدة على عدم إتمام هذا الصلح.

- **أما فرنسا،** فكانت - في الظاهر على الأقل - صديقة لمحمد علي، وتؤيد جهوده في الحصول على حكم مصر والشام وراثة في أسرته، على شرط أن يظل في نطاق الإمبراطورية العثمانية، حتى لا تؤدي محاولاته إلى إضعاف الدولة وإلقائها في أحضان روسيا - لكن اتصفت السياسة الفرنسية تجاه محمد علي بالتردد وعدم الحزم حتى إن البعض وصف حبها بالأفلاطوني أي اقتصر على التمنيات الطيبة، لكنهم في نفس الوقت خذلوه حين احتاج لمعاونتهم فاتفقت مع إنجلترا ضده، وحين حاول قنصل فرنسا أن يبرر موقف دولته إزاءه بقوله: «**إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوروبية أيضًا، إن فرنسا أيدتك، ولكنها لم تستطع أن تتحلل من روابط السياسة التي تربطها بأوروبا وإنجلترا خاصة»، فرد محمد علي: «لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن أحلافها لخاطري؛ وإنما وودت لو لم تقف مني موقف العداء».**

- **أما إنجلترا،** فقد كانت أشد أعداء محمد علي خطرًا عليه وأكثرهم إساءة إليه؛ حيث جاهرت بعدائها لمصر، وأعلنت وجهة نظرها في وجوب المحافظة على كيان الدولة العثمانية، وإن هذا الكيان لا يقوم إلا برد سوريا إلى تركيا خشية أن تصبح مصر دولة بحرية قوية، فمن مصلحتها قيام دولة ضعيفة على طول طريق تجارتها إلى الهند، وأعلن اللورد بالمرستون - وزير الخارجية - بصراحة أنه لابد من إخضاع محمد علي بالقوة، وأخذت تؤلب الدول الأخرى على مصر ليشتركن معها في إخضاعها، وكانت تتمسك أيضًا برد الأسطول التركي إلى الدولة العثمانية لأن اندماجه في الأسطول المصري يجعل لمصر قوة بحرية كبيرة.

وهذا ما أكدته برقية رقم (١٩٥) ١١ يونية ١٨٣٨:

حيث دار حوار بين كل من اللورد جرانفيل والكونت موليبيه أنه سمع من اللورد بالمرستون أن التساؤل بخصوص إعلان محمد علي للاستقلال تم رفعه إلى مجلس الوزراء البريطاني، ومفاده أن الحكومة البريطانية ترفض فصل مصر وسوريا عن الإمبراطورية العثمانية، كما أن الحكومة الفرنسية تدرس كيف يمكنها أن تبذل قصارى جهدها لمنع هذا الاستقلال وتتفق مع الحكومة البريطانية في ذلك، وهددت كل من فرنسا وبريطانيا بإرسال سرب فرنسي بالتعاون مع الأسطول البريطاني إلى الإسكندرية لمواجهة محمد علي في حالة إعلانه الاستقلال، كما فضّلا إصدار تصريحات منفصلة ضد محمد علي؛ وذلك حتى لا يستطيع السلطان العثماني الدخول في معاهدات منفصلة مع روسيا بدون الرجوع لإنجلترا وفرنسا، ووجهة النظر الفرنسية والبريطانية هي منع تحالف الأسطولين المصري والعثماني في مواجهتهما.

وفي برقية أخرى رقم (٢٠٧) ١٨ يونية ١٨٣٨:

وبعد أيام قليلة من تواصل الكونت موليبيه مع اللورد جرانفيل بشأن ضرورة تحذير محمد علي من إعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية، وأن فرنسا وإنجلترا مازالتا تنسقان عن طريق الوساطة مع السلطان العثماني بخصوص مسألة إعلان الاستقلال، وكانت فرنسا ترى أن الفرصة الوحيدة للسلام في الشرق تكون بتوحد المواقف الفرنسية والإنجليزية، وبالنسبة لفرنسا فكانت قلقة بشأن التفاهم بين الأستانة ومحمد علي، ووجهة نظر كل من إنجلترا وفرنسا هي منع تحالف الأسطولين المصري والعثماني في مواجهتهما.

إذن لم تتهيأ حكومات أوروبا بعد لقبول انفصال مصر عن تركيا، وتعاملت دول التحالف الرباعي مع الطموحات الاستقلالية لمحمد علي في الأزمة المصرية العثمانية ١٨٣٩-١٨٤٠، على أنها خروج عن الشرعية، على اعتبار محمد علي ثائرًا ضد السلطان العثماني صاحب الحق الشرعي في السيادة على مصر.



وفي ٢٧ يوليو عام ١٨٣٩، قامت الدول الكبرى الخمس (النمسا وروسيا وإنجلترا وفرنسا وبروسيا) بالتدخل لدى الباب العالي عندما شعروا بقرب اتفاقه مع محمد علي؛ حيث أرادوا قطع خط الرجعة على احتمال نجاح مفاوضات الباب العالي مع محمد علي بهدف زيادة الخلاف بين مصر وتركيا، فقدم سفراؤهم في الأستانة مذكرة إلى الباب العالي يطلبون فيها باسم الدول الخمس ألا يبرم أمرٌ في شأن المسألة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم، وكانت المذكرة انتصارًا لوجهة نظر إنجلترا، أما تركيا فقد وضعتها المذكرة تحت وصاية الدول الأوروبية، ففقدت بذلك استقلالها الفعلي.

وقد انقضت أشهر في تبادل الآراء بين الدول الأوروبية بهدف التوفيق بين وجهات النظر، وفي ضوء هذه الاعتبارات وضعت الدول التسويات التي رأتها للمسألة المصرية متمثلة في معاهدة لندن ١٥ يوليو ١٨٤٠، والتي أبرمتها الدول الأربع الكبرى؛ إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا مع تركيا، ولم تشترك فيها فرنسا، لتنظيم المسألة المصرية، تحت ستار تقديم المعونة إلى السلطان والحرص على سلامة أراضي الدولة العثمانية. وللمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التي تعهد السلطان العثماني بتخويلها لمحمد علي، ويعتبر هذا الملحق جزءًا من المعاهدة.

ولمعاهدة لندن أهميتها بالنسبة إلى التاريخ المصري الحديث؛ فهي بمثابة الوثيقة الأساسية لمركز مصر الدولي من عام ١٨٤٠ حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، فهي التي حددت هذا المركز وجعلت لمصر شخصية دولية مستقلة، فهي تجعل الحكم وراثيًّا في محمد علي وأسرته. إذن، فقد أكسبت مصر وضعًا يتسم بسمات الاستقلال، ورفعت مركزها من ولاية كغيرها لا تختلف عن سائر ولايات السلطنة العثمانية، ولكن هذا الاستقلال كان يخضع لقيود؛ هي الاعتراف بالسيادة العثمانية، وسريان المعاهدات والقوانين العثمانية على مصر.

THE first account which was received in England of the intention of Mehemet Ali to declare himself independent, is contained in a report from the French Consul-General in Egypt, M. Cochelet, dated the 3rd of May, which Count Molé read to Lord Granville on the 1st of June. It appeared from that despatch that the Egyptian Government had decided that the time was come for such a declaration, but that it was expedient before making it, to have some communication with Foreign Powers. Mehemet Ali himself told M. Cochelet, that having expended large sums in the improvement and civilization of his territories, and being unwilling that the inheritance should not pass to his children, he had resolved at all risks to declare himself independent; and to M. Laurin, the Austrian Consul-General, he said that neither the blockade of his ports by the squadrons of France and England, nor the invasion of his territory by the Russians should deter him, and that he had 200,000 men to resist the latter.

Lord Granville, No. 182, June 1, 1838.

On this intelligence Count Molé said, that it was important that France and England should act in concert, that the first question was whether the Consuls of the Two Powers should threaten Mehemet Ali with a blockade, in case he should carry his plan into execution; and the next, whether eventual instructions to that effect should be given to the French and English Admirals. Count Molé however said that he must take the opinion of the Council, before he could speak officially on the matter; but he was persuaded that the conduct of the Porte would be in accordance with the views of Russia in the East, and would be regulated by the advice of that Power.

برقية رقم ١٨٢

by the advice of that Power.

The reports of the Russian Consul-General in Egypt coincided with those of M. Cochelet, and he added that France, England, Austria, and Russia must unite in making the strongest representations to Mehemet Ali, in order to deter him from his proposed course. Count Medem, the Russian Chargé d'Affaires, told Count Molé that he did not doubt the inclination of the Russian Government to exert itself to prevent Mehemet Ali from acting as he intended; and Count Molé replied, that the views of France on that point were in accordance with those of Russia. Count Molé, however, told Lord Granville that he doubted the policy of a joint representation of the Four Powers, particularly if it was to be coupled with a menace; for if France and England were to menace with blockade, Russia would threaten with an army, and upon the whole it appeared advisable that the Consul of each Government should act separately.

Count Molé wrote to M. Cochelet on the 4th of June, that pending

Lord Granville, No. 190, June 4, 1838.

برقية رقم ١٩٠

Lord Granville, No. 192, June 8, 1838.

برقية رقم ١٩٢

Count Medem told Lord Granville what he had said to Count Molé; and added that he was so fully convinced of the wish of the Emperor of Russia to maintain things in their present state between the Sultan and Mehemet Ali, that he had urged the French Government to lose no time in taking steps to prevent the execution of Mehemet Ali's intentions; but that if the Sultan's rights were attacked, the Emperor would march an army to his assistance.

Lord Granville, No. 195, June 11, 1838.

برقية رقم ١٩٥

Lord Granville told Count Molé, in reply to an inquiry made by that Minister, that he had heard privately from Lord Palmerston that the question respecting Mehemet Ali had been submitted to Cabinet, and that he expected soon to be instructed to state that the British Government would resist the separation of Egypt and Syria from the Turkish Empire, and send a fleet to the vicinity of Alexandria, with which it would be proposed that a French squadron should co-operate. Count Molé agreed in the policy of this course, and said that he would submit it to the Council, in order that preparations might be made; but that the naval means of the French Government were at present for various reasons somewhat straitened. Count Molé considered it most expedient that separate declarations should be made to Mehemet Ali by each of the Powers; for that Russia would never be a party to an agreement by which her freedom of action would be contracted; and the Sultan would never enter into any Convention with France and England which should interfere with his Treaty with Russia. Lord Granville is satisfied with the professions of the King and Count Molé, and he does not perceive in them any disposition to step forward as Mediators between the Sultan and Mehemet Ali, on the basis of the acknowledgment of the latter's independence, as M. Cochelet seemed, by his despatches, to wish should be the case.

F.O. 407 No.

PRIVATE AND CONFIDENTIAL.

ABSTRACT OF CORRESPONDENCE

RESPECTING

MEHEMET ALI'S

INTENDED

DECLARATION OF INDEPENDENCE.

PART I.

Foreign Office, May 30, 1839.

LONDON:
PRINTED BY J. HARRISON & SON.

1

Lord Granville, No. 207, June 18, 1838.

A few days after this conversation Count Molé communicated to Lord Granville further despatches from M. Cochelet, of the 23rd and 26th of May, reporting that Mehemet Ali had acquainted him with his determination to declare his independence, and had only, in answer to his remonstrances, agreed to wait a sufficient time to ascertain the disposition of the French and English Governments to settle amicably, by mediation with the Sultan, the question of his independence. M. Cochelet intimates a suspicion that England is not indisposed to favour the views of Mehemet Ali, grounding the suspicion on the advantages afforded by the Pasha to the communication with India, and upon the language of Dr. Bowring to the Pasha. M. Cochelet also again intimates a wish that France should assume the office of Mediator; but these insinuations of M. Cochelet have not made any impression on the French Government, who appear satisfied that the only chance of peace in the East is in the intimate union between France and England. Count Molé was anxious to know what instructions would be given to Colonel Campbell and the British Admiral, and seemed prepared to threaten the Pasha on the part of France with a blockade of all his ports, and if necessary to carry that threat into execution.

برقية رقم ٢٠٧



PRIVATE AND CONFIDENTIAL.





ABSTRACT OF CORRESPONDENCE

RESPECTING

MEHEMET ALI'S

INTENDED

DECLARATION OF INDEPENDENCE.

PART I.

Foreign Office, May 30, 1839.

LONDON:
PRINTED BY J. HARRISON & SON.



ABSTRACT OF CORRESPONDENCE

RESPECTING

MEHEMET ALI'S INTENDED DECLARATION OF INDEPENDENCE.

THE first account which was received in England of the intention of Mehemet Ali to declare himself independent, is contained in a report from the French Consul-General in Egypt, M. Cochelet, dated the 3rd of May, which Count Molé read to Lord Granville on the 1st of June. It appeared from that despatch that the Egyptian Government had decided that the time was come for such a declaration, but that it was expedient before making it, to have some communication with Foreign Powers. Mehemet Ali himself told M. Cochelet, that having expended large sums in the improvement and civilization of his territories, and being unwilling that the inheritance should not pass to his children, he had resolved at all risks to declare himself independent; and to M. Laurin, the Austrian Consul-General, he said that neither the blockade of his ports by the squadrons of France and England, nor the invasion of his territory by the Russians should deter him, and that he had 200,000 men to resist the latter.

Lord Granville, No. 182, June 1, 1838.

On this intelligence Count Molé said, that it was important that France and England should act in concert, that the first question was whether the Consuls of the Two Powers should threaten Mehemet Ali with a blockade, in case he should carry his plan into execution; and the next, whether eventual instructions to that effect should be given to the French and English Admirals. Count Molé however said that he must take the opinion of the Council, before he could speak officially on the matter; but he was persuaded that the conduct of the Porte would be in accordance with the views of Russia in the East, and would be regulated by the advice of that Power.

The reports of the Russian Consul-General in Egypt coincided with those of M. Cochelet, and he added that France, England, Austria, and Russia must unite in making the strongest representations to Mehemet Ali, in order to deter him from his proposed course. Count Medem, the Russian Chargé d'Affaires, told Count Molé that he did not doubt the inclination of the Russian Government to exert itself to prevent Mehemet Ali from acting as he intended; and Count Molé replied, that the views of France on that point were in accordance with those of Russia. Count Molé, however, told Lord Granville that he doubted the policy of a joint representation of the Four Powers, particularly if it was to be coupled with a menace; for if France and England were to menace with blockade, Russia would threaten with an army, and upon the whole it appeared advisable that the Consul of each Government should act separately.

Lord Granville, No. 190, June 4, 1838.

Count Molé wrote to M. Cochelet on the 4th of June, that pending the deliberation of the French Cabinet on the course to be adopted, he was to use his utmost exertions to deter the Pasha from carrying into immediate effect his declared intention; and Lord Granville, in obedience to his instructions, stated that the British Government would give early attention to this matter.

Lord Granville, No. 192, June 8, 1838.

To Lord Granville, No. 251, June 5, 1838.

B

Lord Granville, No. 192, June 8, 1838.

Count Medem told Lord Granville what he had said to Count Molé; and added that he was so fully convinced of the wish of the Emperor of Russia to maintain things in their present state between the Sultan and Mehemet Ali, that he had urged the French Government to lose no time in taking steps to prevent the execution of Mehemet Ali's intentions; but that if the Sultan's rights were attacked, the Emperor would march an army to his assistance.

Lord Granville, No. 195, June 11, 1838.

Lord Granville told Count Molé, in reply to an inquiry made by that Minister, that he had heard privately from Lord Palmerston that the question respecting Mehemet Ali had been submitted to Cabinet, and that he expected soon to be instructed to state that the British Government would resist the separation of Egypt and Syria from the Turkish Empire, and send a fleet to the vicinity of Alexandria, with which it would be proposed that a French squadron should co-operate. Count Molé agreed in the policy of this course, and said that he would submit it to the Council, in order that preparations might be made; but that the naval means of the French Government were at present for various reasons somewhat straitened. Count Molé considered it most expedient that separate declarations should be made to Mehemet Ali by each of the Powers; for that Russia would never be a party to an agreement by which her freedom of action would be contracted; and the Sultan would never enter into any Convention with France and England which should interfere with his Treaty with Russia. Lord Granville is satisfied with the professions of the King and Count Molé, and he does not perceive in them any disposition to step forward as Mediators between the Sultan and Mehemet Ali, on the basis of the acknowledgment of the latter's independence, as M. Cochelet seemed, by his despatches, to wish should be the case.

Lord Granville, No. 203, June 15, 1838.

With reference to a report made by Count Sebastiani of a conversation with Lord Palmerston, Count Molé told Lord Granville that the King of the French approved of a French squadron being sent to Alexandria to co-operate with the English fleet; and that it was desirable that the two squadrons should make their appearance off that port at the same time. Baron Roussin was also instructed to urge the Porte, in the event of Mehemet Ali declaring his independence, not to adopt any immediate measures against him, but to trust to the Allies of the Sultan for the assertion of his rights.

Lord Granville, No. 207, June 18, 1838.

A few days after this conversation Count Molé communicated to Lord Granville further despatches from M. Cochelet, of the 23rd and 26th of May, reporting that Mehemet Ali had acquainted him with his determination to declare his independence, and had only, in answer to his remonstrances, agreed to wait a sufficient time to ascertain the disposition of the French and English Governments to settle amicably, by mediation with the Sultan, the question of his independence. M. Cochelet intimates a suspicion that England is not indisposed to favour the views of Mehemet Ali, grounding the suspicion on the advantages afforded by the Pasha to the communication with India, and upon the language of Dr. Bowring to the Pasha. M. Cochelet also again intimates a wish that France should assume the office of Mediator; but these insinuations of M. Cochelet have not made any impression on the French Government, who appear satisfied that the only chance of peace in the East is in the intimate union between France and England. Count Molé was anxious to know what instructions would be given to Colonel Campbell and the British Admiral, and seemed prepared to threaten the Pasha on the part of France with a blockade of all his ports, and if necessary to carry that threat into execution.

Lord Granville, No. 215, June 22, 1838.
Lord Ponsonby, No. 134, May 27, 1838.

Lord Granville having mentioned to Count Molé the language held by Baron Roussin to Lord Ponsonby, on the necessity of not allowing the Ottoman fleet to go to sea, (before any notion of Mehemet Ali's intention had been obtained at Constantinople), was led to believe that the language of Baron Roussin was unauthorized by any instructions from his Government; but Count Molé suggested whether it might not be expedient to invite the co-operation of the Russian Minister at Constantinople

with Baron Roussin and Lord Ponsonby, with a view to prevent collision between the Turkish and Egyptian fleets.

Dr. Bowring, Nov. 28, Dec. 8. 1837. March 27, April 7, 1838.

With reference to what is said by M. Cochelet respecting Dr. Bowring, it may be stated, that it appears from Dr. Bowring's letters that he was in the habit of talking on political matters with the Pasha and Boghos Bey, and that the language held to him by them satisfied him that the Pasha would declare his independence if any occasion were given to him to do so.

Colonel Campbell, Separate, April 16, 1838. To Col. Campbell, No. 16, May 22, 1838.

Mr. Waghorn too appears to have been encouraging the Pasha in his ambitious schemes; and it was with reference to Mr. Waghorn's language that Colonel Campbell was instructed to say that Mr. Waghorn was not in the confidence of the Government; and that the Pasha would act unwisely if he were to rely on his asserted influence either in England or in India.

To. Col. Campbell, No 19, June 9, 1838.

On the 9th of June, a few days after the first intelligence reached England of Mehemet Ali's intention, but before any communication on the subject had been received direct from Colonel Campbell, Colonel Campbell was told, with reference to that intelligence, that it was to be feared that the Pasha might have been influenced by the unguarded conversation of some irresponsible British subjects, or by the designing language of others, to suppose that England would either sanction or acquiesce in his renunciation of his allegiance to the Sultan; and Colonel Campbell was instructed to lose no time in dispelling any error under which the Pasha might labour, as to the course which England would take in any contest which might arise between him and the Sultan on such a ground.

Col. Campbell, No. 30, May 14, 1838.

The first communications from Colonel Campbell were received in London on the 18th of June. It appears that even so early as the latter end of March, Mehemet Ali's language led M. Laurin, the Austrian Consul-General, to anticipate a declaration of independence from him; but M. Laurin inferred that it was not his intention to attack the Sultan, but to do everything to provoke an attack. The Pasha justified his armaments by the allegation of other armaments being made on the side of the Porte; and Colonel Campbell, referring to M. Laurin's opinion on the subject, says that every expression of the Pasha shows that he is resolved to assert and declare his independence. The amount of Egyptian forces in Syria is 75,000 regulars of all arms, and 30,000 irregulars; in Egypt, Candia and Arabia, 38,000.

Col. Campbell, No. 33, May 19, 1838.

Mehemet Ali, about this time, (the middle of May) assured Colonel Campbell that it was not his intention to pass the frontiers of Syria, or to commit any aggression on the Porte; and that his armaments were entirely defensive; that he should be happy if he could, with safety to his family, reduce his forces; and if his position was changed to what it ought to be, it would be seen how anxious he was for peace.

Col. Campbell, No. 34, May 20, 1838.

The Pasha appears to have held similar language to Count Medem, the Russian Consul-General in Egypt, on receiving from him a communication of an instruction from Count Nesselrode, dated the 14th of March, 1838, in which the motives of his armaments in Syria were demanded, and a warning given that the Emperor was bound to assist the Sultan if attacked. The Pasha asked Count Medem if the Great Powers would object to his making an arrangement with the Porte for his independence; to which the Count replied, that he did not suppose they would to any amicable arrangement. Count Medem's conviction was, that the Pasha would seize the first favourable moment for throwing off his allegiance; and in this view Colonel Campbell concurred; referring, as the ground of his opinion, to the course pursued by France in 1836, as encouraging the Pasha to entertain the notion of independence; to the sanction given to that notion by the Sultan in the negotiation carried on by Sarim Effendi, as Turkish Plenipotentiary, in 1837; and to the language held on the matter in private conversation, both by the Pasha and his minister, showing that neither of them expected that the maritime Powers would allow Russia to march troops into Asia Minor, or themselves incur any expence to support the Sultan; and that Mehemet Ali would be joined by the whole Mussulman popula-

Col. Campbell's, Nos. 41, 45, and 54, of 1836.

Col. Campbell's, No. 16, 18, and 39, of 1837.

tion of Turkey against the Russians. To this was to be added the professed reluctance of the Pasha to leave his family to the mercy of the Porte, and to make over to the Porte the inheritance of all that he had created in Egypt.

Lord Granville, No. 212, June 22, 1838.

With reference to a statement in Colonel Campbell's despatch, No. 28, that M. Cochelet would not co-operate with him respecting Mehemet Ali's armaments, Count Molé told Lord Granville that the instructions which M. Cochelet would subsequently receive, would enable him cordially to co-operate with Colonel Campbell in expressing the dissatisfaction of the two Governments with Mehemet Ali's intention to declare himself independent.

Lord Granville, No. 221, June 25, 1838.

With reference to what is stated in Colonel Campbell's No. 34, Lord Granville was assured by M. Désages, in the absence of Count Molé, that Baron Roussin had never attempted to bring about the independence of Mehemet Ali, but that on his own responsibility he had sought to persuade the Pasha to receive as a boon from the Sultan the investiture of the Pashalics of Syria, and to purchase by the abandonment of the other places now occupied by him, the reversion of a part of his Syrian possessions in favour of his son. Also with respect to Sarim Effendi's negotiation, M. Désages said, that the basis of that negotiation, was the reversion to the sons of the Pasha of his actual tributary position of vassal to the Porte; and that the acknowledgment of his independence was not at that time mooted.*

Colonel Campbell, No. 36, May 25/26, 1838.

It was not, however, until the 25th of May, that Mehemet Ali declared to Colonel Campbell that he was fully resolved to declare himself independent; the interests of his family required that he should take that step, but before doing so, he would wait awhile, in the hope that the British Government would take such measures as might preserve peace, at the same time that his independence was established. Colonel Campbell replied, that it was a serious matter, and he hoped that he would suspend any active measure until accounts could be received from England, and in the meantime pay his tribute to the Porte. To this Mehemet Ali assented.

Colonel Campbell is persuaded that the Pasha will persevere in his resolution. The Pasha calculates upon the opposition of France and England, to the advance of a Russian army into Asia Minor, or failing that opposition, to his being able to rouse the Mussulman population against the Russians, which Colonel Campbell considers it probable that he might do. The Pasha further calculates upon the reluctance of England and France to incur the expence of armaments against him; and upon the resources of Egypt and Syria, as rendering nugatory any blockade of those coasts; he is ready to make every reasonable pecuniary sacrifice to purchase the acknowledgment of his independence by the Sultan; and he asserts that such a course would be advantageous to the Porte, which can never resume its rule over Syria; he cannot consent that the fruit of all his toils should revert to the Sultan to the ruin of his own children. The Pasha, Colonel Campbell states, made, about the same time, similar communications to the Austrian, French, and Russian Consuls-General.

Lord Ponsonby, No. 139, June 6, 1838.

Dr. Bowring, on arriving at Constantinople, on the 4th of June, apprized Lord Ponsonby of the step which Mehemet Ali had announced his intention to take; which Lord Ponsonby and Baron Roussin thereupon made known to the Porte. The Reis Effendi replied, that nothing would ever induce the Sultan to submit to the dismemberment of his empire, and that the Porte relied on the good faith of England.

Sir F. Lamb, No. 55, June 19, 1838.

Prince Metternich, on communicating to Sir F. Lamb, the reports

---

* Dr. Bowring's letters of 22nd May, contain accounts of what the Pasha meditated doing, and of the language held by the Pasha and by Boghos Bay to him and Colonel Campbell, at interviews previous to that day. The formal communication was however only made to Colonel Campbell on the 25th of May.

which he had received from Constantinople on this subject, authorized Sir Frederick Lamb to propose that Austria, England, France, and Russia should come to an understanding in London, as to the measures best calculated to prevent Mehemet Ali from declaring his independence, and as to those to be employed in case he should make the declaration. Prince Metternich did not seem to anticipate any objections to this course from other quarters, if approved by Her Majesty's Government.

To Lord Granville, No. 297, July 3, 1838.

Some time before any of the foregoing accounts were received in London, but when the reports from Egypt showed that nothing but independent sovereignty could satisfy Mehemet Ali's ambition, and that all his armaments were being made with that object, Lord Palmerston conversed with the Austrian, French, and Russian Ambassadors on that subject, and received from each of them the assurance that his Government was resolved to discountenance any such attempt on the part of the Pasha, and was anxious that the Consuls of the Four Powers at Alexandria should be instructed simultaneously to deter him from such an attempt, and Count Pozzo di Borgo proposed that the British fleet should be sent to the coasts of Egypt and Syria, to give weight to Colonel Campbell's remonstrances.

On the 24th of June, after Mehemet Ali's intentions became known, Lord Palmerston, in conversation with Prince Esterhazy, referred to what had been already agreed upon by the Four Great Powers as to the warning to be given by their respective Consuls to Mehemet Ali; but added that it was fitting that the Powers should be prepared to carry, if necessary, into execution any threats they might make; supposing always that the Sultan should resent the conduct of Mehemet Ali, and solicit aid from his Allies. In such a case, England and France could immediately afford naval assistance; but that would not suffice at the beginning of the campaign. The Russians then would probably send an army to the assistance of the Sultan, and occupy the Bosphorus and Dardanelles; and, however, injuriously such a proceeding would affect the interests of France, Austria, and England, those Powers could hardly, under the circumstances, effectually interfere to prevent it. It was expedient, therefore, to devise by previous concert of the Four Powers, some means of affording military assistance to the Sultan. England might, indeed, send an army from Bombay, but that would occasion jealousy in other Powers, and would only accelerate the march of the Russians; and a French military expedition would have the same effect. Austria, however, might do so without creating any such jealousy on the part of Russia, and if Austria were inclined to do so, means of transport could be found in the Mediterranean. Prince Esterhazy, said, that he thought Russia would be willing to enter into arrangements on these matters with other Powers. Lord Palmerston added, that he wished Prince Esterhazy to explain to his Government, that the British Government had only thrown out this as a general notion, and not as making a proposition; but from a desire to know Prince Metternich's own opinions.

On the 25th of June, Lord Palmerston, in communicating to Count Pozzo di Borgo the substance of the accounts from Egypt, and the intention of the British Government to return to Mehemet Ali the answer which the Four Powers had agreed upon, observed that the Pasha might have been influenced in his decision by some irresponsible British subjects in Egypt, and by his correspondents in England, who had misled him as to the views of the British Government, and also by his speculation on the jealousy with which France and England would view the advance of a Russian army into Turkey, and the disunion which might consequently arise between the Great Powers; to prevent this, it appeared expedient to establish a previous concert between the Powers. Count Pozzo di Borgo appeared to acquiesce in this, and did not imply that Russia would be adverse to such previous concert.

On the 26th of June, Lord Palmerston told Count Sébastiani what had passed between himself and Prince Esterhazy and Count Pozzo di Borgo, and asked his opinion upon the communication Lord Palmerston had made to Prince Esterhazy. Count Sébastiani concurred in the views of Lord Palmerston, and said that it was absolutely necessary to prevent

C

the dismemberment of the Turkish Empire; that a naval operation would be insufficient; that the isolated action of Russia would be a great evil, and could only be prevented by previous concert, and that Prussia should be invited to be a party; that military assistance should be afforded by one Power alone; that Lord Palmerston should propose to the several Ambassadors and Ministers in London, that the Five Powers should offer to the Sultan naval and military assistance; that England, France, and Russia should afford naval, and Austria military aid; and Prussia, if required, send more officers to organize the Sultan's army. Count Sébastiani added that these, however, were only his own personal sentiments.

Lord Palmerston concludes his despatch by stating that Her Majesty's Government are of opinion that such a concert of the Five Powers would afford the best chance of preventing Mehemet Ali from declaring his independence, or of preserving the peace of Europe if he did so; and Lord Granville was instructed to communicate with Count Molé on this point.

d Granville, 230, July 2, 18.

With reference to Count Sébastiani's report of the above conversation with Lord Palmerston, Count Molé told Lord Granville that he was of opinion that it would be inexpedient to suggest the employment of Austrian troops; that the Court of Vienna would never consent to it; and that the mere proposition would give umbrage to Russia. Count Molé was not, however, prepared to propose another course, but was inclined to think that the Consuls of Austria, England, France, and Russia, should separately, rather than jointly, warn Mehemet Ali of the determination of their Courts to support the rights of the Sultan; though it was a point to be considered whether some expectation should not be held out to the Pasha, that the Four Powers would employ their good offices to obtain for his children the reversion of his present tenure of the territories now governed by him, as the overthrow of the Power of Mehemet Ali was not to be desired, on account of the barrier it offered to the ambition of Russia.

Count Molé at the same time communicated to Lord Granville, despatches from M. Cochelet of the 31st of May, and 5th of June, in which it appeared that, although M. Cochelet had endeavoured to dissuade Mehemet Ali from an early execution of his intention, he had not sought to crush any hopes which the Pasha might have formed of eventually obtaining the good offices of France in favour of his views; and Count Molé expressed strongly his disapprobation of M. Cochelet having allowed any doubt to exist on that point. In his despatch of the 5th of June, M. Cochelet said that the Pasha meant to delay his declaration until he returned to Alexandria in October from a visit to the gold mines.

The French Chargé d'Affaires at Vienna reports that Prince Metternich seems to be of opinion that Mehemet Ali will not carry his threat into execution, and that he only uttered it, in order to see how far the Great Powers of Europe were disposed to interfere in support of the Sultan.

To Col. Campbell, No. 21, July 7, 1838.

Colonel Campbell was instructed by the Mail of the 7th of July, to state to the Pasha that Her Majesty's Government regretted to receive his communication, but hoped that he would still on consideration abandon his intention, the attempted execution of which would be destructive to his own fame, and fatal to the interests of his family. Success was impossible, for all the Powers of Europe would side with the Sultan. The British Government for itself declared that, in such a case, Great Britain would support the Sultan in his attempt to obtain redress, and in order to prevent the dismemberment of the Turkish Empire, and the Pasha must not expect that any jealousies among the Powers of Europe would prevent them from affording every necessary assistance to the Sultan for upholding, enforcing, and vindicating his just and legitimate rights.

Lord Granville, No. 236, July 6, 1838.

Lord Granville read to Count Molé Lord Palmerston's despatch

No. 297, who said that he must have some time to reflect upon it, before he could discuss its contents.

Afterwards Count Molé told Lord Granville that on reflection he saw nothing in Lord Palmerston's No. 297, to induce him to alter his instructions to Count Sébastiani. Count Molé disapproved of the plan of applying to Austria to send an army into Asia Minor, to which he conceived Prince Metternich would not consent, and which Count Molé evidently disliked as tending to the occupation by an Austrian army, for an uncertain period of time, of a portion of the Turkish territory. Count Molé was ready to concert measures for preventing Mehemet Ali from taking the step he meditated, and to concur in a simultaneous, or even a joint declaration on the part of the Powers that they would resist the assertion of his independence; and in reply to an observation made by Lord Granville, that the mere threat of opposition might not deter the Pasha, counting as he did upon disunion being occasioned among the Powers by the advance of a Russian army into Turkey; whereas the knowledge of an arrangement being entered into for the eventual employment of an Austrian army might have that effect; Count Molé said that he relied on the effect of the appearance of the British and French fleets, and was even not adverse to proposing that those fleets should be joined by a Russian squadron.

Lord Granville, No. 247, July 9, 1838.

Upon being informed by Lord Granville of Prince Metternich's opinion as to the expediency of the Great Powers concerting not only the measures to be adopted to deter Mehemet Ali, but also those to be employed in case he should persevere; and that this concert should be come to in London; Count Molé remarked, that the Conference, if established, had better be held at Paris, as neutral ground between Russia and England, the two Powers most jealous of each other. Lord Granville supposes that jealousy of Count Sébastiani was at the bottom of this suggestion.

Lord Granville having shown Count Molé the despatch to Colonel Campbell, No. 21, the Count in return read his instructions to M. Cochelet, by which that Agent was directed to remind Mehemet Ali of the interest which France had shown in his welfare and in that of his family, and to express regret at the step which he was about to take, and which would end in his ruin: that France, in common with all the Great Powers, would oppose his attempt to dismember the Turkish Empire. Count Molé then said to Lord Granville, that he thought the identity of the language held by the Great Powers, must make an impression on Mehemet Ali, especially if backed by the appearance of a British and French fleet off Alexandria; and he therefore objected now to enter into arrangements for affording military aid to the Porte.

Lord Granville, No. 249, July 13, 1838.

The King of the French, on informing Lord Granville that Count Sebastiani had reported that Lord Palmerston was satisfied with the course which the French Government intended to pursue, added that the instructions which it was proposed to give to M. Cochelet* would be communicated to the British Government, but not despatched, until it was known that they were in accordance with its sentiments. The King also was sanguine as to the effect on Mehemet Ali of the declared opposition of the Great Powers; but His Majesty thought Mehemet Ali would be more readily induced to abandon his project, if a hope had been held out to him, that the good offices of France and England would be employed at Constantinople to aid him in obtaining the reversion of his power for his son.

Lord Granville, No. 254, July 16, 1838.

In reply to this despatch, Mr. Aston was told that Count Sebastiani agreed with Lord Palmerston in opinion, that it would be inexpedient for England and France to endeavour to renew the negotiation which was carried on some time ago between the Porte and Mehemet Ali, for securing to Ibrahim Pasha the reversion of the Pashalics of Egypt and of Acre; such an arrangement being a purely domestic matter between

To Mr. Aston, No. 1, July 20, 1838.

---

* It is presumed that the papers communicated by Count Sebastiani on the 19th of July, are the papers referred to. M. Cochelet was to be instructed to present a strong note to Mehemet Ali, threatening him with the presence of a French squadron off Alexandria.

the Sultan and Mehemet Ali, in which Foreign Powers are not entitled to interfere uninvited.

Prince Metternich to Prince Esterhazy, June 26, 1838.

Prince Metternich in a despatch to Prince Esterhazy, of the 26th June, says that there can exist no doubt as to the wishes of Mehemet Ali on the subject of his independence, and that it is possible that he may attempt to give effect to those wishes, although it does not therefore follow that he will succeed. The Pasha is doubtless in possession of more material power than the Sultan; but that power depends on himself alone. The idea of establishing a dynasty in his family, is repugnant to the spirit of Mahomedanism: the only dynasty which that recognizes is in the person of the Caliph, as devolving in regular family succession: and all notions of family which are cherished by the Arabs, have relation to their tribes: and Mehemet Ali is not an Arab. Mehemet Ali could only establish an Empire for his own life; neither could Ibrahim Pasha do more. Prince Metternich looks upon Mehemet Ali as playing a part; but he considers that he will not persevere if he sees the Powers opposed to his plans. Consequently, in the opinion of the Prince, it rests with the Powers to decide the course of events.

The Prince considers the language of Mehemet Ali to be characterized by irresolution. Having first broached the subject of his independence with the Austrian Consul-General, and subsequently with the Consuls-General of the other Powers, and received no encouragement, he shortly afterwards resumed the subject with the Austrian Consul-General, in the shape of inviting the opinion of Prince Metternich on the subject of his independence.

The conclusion which Prince Metternich draws from the accounts from Alexandria is, that Mehemet Ali is seeking, in a greater or less degree, to deceive the Maritime Powers and Russia. All the Powers, however, have concurred in one view of the matter; and it is only important that uniformity of opinion, should lead to uniformity in the course to be pursued.

Prince Metternich conceives that the Powers should declare at Cairo and at Constantinople, that they will not recognise the independence of Mehemet Ali, though they will insist upon the execution of the Treaty of Kutaya: and the Prince considers that by adopting this course, the danger of Mehemet Ali's declaring his independence will be in a great degree obviated, if not entirely removed.

Sir F. Lamb, No. 57, June 27, 1838.

In a conversation with Sir Frederick Lamb about the same time, Prince Metternich expressed his concurrence in the propriety of a British squadron being sent to the Levant, to keep Mehemet Ali in check; and on a subsequent occasion, he requested Sir Frederick Lamb to convey to Her Majesty's Government his deliberate opinion, that although Mehemet Ali would not give way to mere reasoning, he would not proceed, if satisfied that by doing so, he would hasten his own destruction. The opposition, therefore, of the Four Powers, would induce Mehemet Ali to pause; but though approving of the employment of a joint British and French squadron, Prince Metternich conceived that the efficacy of such a demonstration would depend upon its being made with the approbation, and therefore, upon its being considered as speaking the sense of the Four Powers.

Sir F. Lamb, No. 63, July 3, 1838.

Prince Metternich further approved of the Sultan being advised to abstain from attacking Mehemet Ali, considering the Four Powers to be capable of checking, and, if necessary, of punishing Mehemet Ali.

The Austrian and Russian Consuls-General at Alexandria, concur in attributing Mehemet Ali's declaration to the encouragement which he received from Dr. Bowring.

Prince Metternich to Prince Esterhazy, July 27, 1838.

The subsequent accounts received from Alexandria up to the 2nd of July, appear to have confirmed Prince Metternich in his opinion, that the sole object of Mehemet Ali's language up to that time, was to acquire a knowledge of the attitude which would be assumed by Austria and Russia, as well as by England and France. The wishes of the Pasha, to which he will doubtless take the first favourable opportunity for giving effect, are clearly to be the founder of a Great Empire, and to transmit it to his posterity. Prince Metternich repeats his conviction, that this

idea, being at variance with the principles of Mahomedanism, rests on no solid foundation. The only way indeed, in which an Egyptian Empire could be maintained, would be by destroying the Ottoman Empire: Mehemet Ali never could be a faithful and useful Ally of the Porte; and he only now puts forward that notion in the hope of profiting by the rivalry of the Great Powers. His present language is held rather for the purpose of feeling his way, than with any serious intention of acting up to it. But supposing that he should resolve to run all risks, in that case, the safety of the Porte will consist in the attitude which Austria and Russia are determined for themselves to assume, and which will doubtless be assumed by the Maritime Powers. The Austrian Consul-General at Alexandria, and the Internuncio at Constantinople, will hold the same language with their colleagues; and the Emperor of Russia agrees with the Austrian Government, that the language of menace to the Pasha, and of support to the Sultan, to be effectual, must be simultaneously used. The Prussian Government will join in the declarations made by the other Powers, and thus prove equally to Mehemet Ali and to the Sultan, that the views of the Christian Powers in favour of the maintenance of tranquillity in the East are identical.

It has been stated above, that on learning the intention of Mehemet Ali to declare his independence, Lord Ponsonby and Baron Roussin made known the intelligence to the Porte. They both at the same time recommended the Porte to avoid any act of aggression, but still to prepare to resist any attack. The ground taken by Baron Roussin, was the certainty of Mehemet Ali being victorious in any contest, on account of his superiority of force: but Lord Ponsonby, who does not admit that superiority, rested his argument in favour of a pacific policy on the ground of prudence, and of deference to the views of France and England, and on the expediency of leaving the odium of being the aggressor on Mehemet Ali. Lord Ponsonby too, at the instigation of Baron Roussin, urged the Porte not to send the Turkish fleet to sea, being moved to this step by the apprehension that a collision might in such case ensue between the Egyptian and Turkish fleets; and further by a desire that the Porte should not give umbrage to France, which Power, from considerations respecting Tunis, was specially anxious to prevent the sailing of the fleet.

Lord Ponsonby, No. 143, June 11, 1838.

Lord Ponsonby, No. 144, June 14, 1838.

Lord Ponsonby, No. 157, June 25, 1838.

Speaking of the course which he had pursued in this matter, Lord Ponsonby says that his first object was to induce the Porte to abstain from hostilities, in which he hoped he had been successful; and the next to strengthen the military power of the Turkish Government, for which purpose he had urged the Porte to give the virtual command of the army to General Chrzanowsky, which the Porte appeared to be inclined to do.

Lord Ponsonby, No. 156, June 24, 1838.

The Russian mission, it appears, assured the Turkish Government that they need not be uneasy as to the projects of Mehemet Ali, as the Russian fleet and army were ready to succour the Sultan if attacked by the Pasha.

Lord Ponsonby, No. 160, June 25, 1838.

Lord Ponsonby states a rumour that Mehemet Ali was coining money in his own name; and His Excellency further remarks upon the consequence to the Sultan, in his sovereign capacity, of Mehemet Ali becoming the independent sovereign of the Holy Cities, the possession of which is considered in some degree to confer a right to the Caliphate.

Colonel Campbell having obtained from the French Consul-General a copy of the circular of the Porte of the 24th of June, by which it appeared that the Turkish Government were about to send a frigate with some troops to Cyprus, took occasion to express to Mehemet Ali, his hope that the Egyptian vessels which might fall in with any vessels of the Sultan, might be instructed to avoid any collision or even communication with them. This the Pasha promised, disclaiming at the same time all intention to commit hostilities.

Colonel Campbell, No. 46, July 8, 1838.

But, on a subsequent occasion, the Pasha declared to Colonel Campbell that, if the Turkish squadron should approach Alexandria, he would attack it; and he denied that he could be considered the aggressor in such a contingency.

Colonel Campbell, No. 49, July 12, 1838.

The Pasha went on to say, that it was probable that France and England would use very strong language towards him; to which he



would reply; but that England did not appear to understand his position, and how impossible it was for him to leave his family unprovided for: and in reply to some observations of Colonel Campbell, he said that the uncertainty of his position had compelled him to keep up large establishments, and exact heavy imposts; for this the Powers, who kept him in that position, were in some way to blame; and the only remedy was, that he should declare his independence.

Colonel Campbell, No. 47, July 9, 1838.

On receiving the despatch No. 19, Colonel Campbell waited on the Pasha to communicate it: and in reply to his inquiry as to the meaning of one passage, Colonel Campbell said, that he conceived Great Britain would regard as an act of hostility on his part, any attempt to throw off his allegiance, and would not acquiesce in it. The Pasha said, that this despatch was no reply to his communication of the 25th of May: till such reply was received he would commit no act of aggression. He went on to say, that he had reason to believe the Sultan would listen to his proposals for independence, and he wished to know, whether England and France would oppose such an arrangement. Colonel Campbell said, he thought not, if the act of the Sultan was voluntary; but he thought that England would not recommend it. The general opinion of all the Consuls at Alexandria, except the French, is, that Mehemet Ali will not forego his views of independence. The late Russian Consul thought otherwise, but Count Medem considers that the Pasha will sooner or later risk everything to obtain it.

Mr. Aston, No 10, July 27, 1838.

The French Consul-General appears to have expressed the contrary opinion to his Government, as the result of a conversation which he had with Mehemet Ali, before he received any instructions from his Government corresponding with those contained in No. 19, to Colonel Campbell.

Colonel Campbell, No. 50, July 17, 1838.

Those instructions indeed did not reach M. Cochelet till the 15th of July, being dated the 23rd of June. He was desired in them to tell Mehemet Ali, that any attempt to throw off his allegiance would be a direct collision with all Europe, and that France and England specifically were resolved to use coercion to keep him within his allegiance. M. Cochelet told Colonel Campbell that he inferred from Mehemet Ali's language, on receiving this communication, that the Pasha would not commit any unprovoked aggression on the Sultan; that he would not declare his independence, relying upon the good will of France and England; and that his fleet, after a short cruise on the Syrian and Egyptian coasts, would return into port.

The version, however, of this conversation with M. Cochelet, which the Pasha gave to Colonel Campbell and Count Medem, was far different. It appears that Mehemet Ali, having entered at length into the motives of his conduct, went on to say to M. Cochelet, that he would wait for the answers of the other Great Powers, and would, in the interval, engage in no unprovoked hostility with the Sultan: that even, if the answers were negative, he would make a further appeal to the Powers, but if he found he had nothing to hope from them, he would declare himself independent.

The Pasha then said to Colonel Campbell and Count Medem, that, if he chose, he could raise up all Turkey in his favour; but, that he had reason to hope, that the Capitan Pasha, who he understood was coming from Constantinople, would be the bearer of propositions from the Porte, which would arrange all difficulties.

To Lord Ponsonby, No. 146, July 25, 1838.

The Turkish Government having alleged that one of the objects of sending their fleet to sea, was to exercise the crews, Lord Ponsonby was instructed to offer, that a division of the Turkish fleet might cruise with the British squadron: and in the instructions on this point given to the Admiralty, it is said that the Admiral of the British squadron must bear in mind that the Turkish squadron, while in company with him, is not to commit hostilities with any other vessels; must use his influence, but not force, to prevent such hostilities; and, failing to do so, must separate and take no part in them. Moreover, he must not proceed with the Turkish ships to the coasts of Egypt or of Syria.

To Admiralty, August 3 and 17, 1838.

Lord Ponsonby, No. 192, August 21, 1838.

The Turkish Government having accepted this proposal, Sir Robert Stopford was directed to make arrangements for acting upon it.

his authority and his rights of sovereignty over Egypt, even though M
hemet Ali should attempt to disturb them; that the Sultan shoul
return be exhorted to take no precipitate step; not to give the signal
hostilities, but to leave to the allies of the Porte the task of bring
Mehemet Ali back to his allegiance: and the Russian Governm
suggested the expediency of instructions to the above effect being sent
Lord Ponsonby.

Pozzo di
tember

In reply to this communication, Lord Palmerston expressed to Co
Pozzo di Borgo the thanks of the British Government for this proo
confidence; and said that they considered Mehemet Ali's proje
called for serious attention, and that the concurrence of all the Pow
in their views respecting them was very satisfactory. The British (
vernment is resolved to discourage the projects of Mehemet Ali;
convinced of the danger which would arise to the peace of Europe fr
a rupture between Mehemet Ali and the Sultan; and is at the sa
time aware that the Pasha calculates upon the disunion of the Powers
Europe; on which point the British Government agrees with Russia
to the necessity of undeceiving him. The British Government, howev
conceives it to be necessary that the Powers should be prepared for
contingency of Mehemet Ali persevering in his plans; and, therefo
Lord Palmerston repeated in writing the proposition already made by h
verbally to Count Pozzo di Borgo, and the representatives of Austı
France, and Prussia, that a concert should be established at Lond
between the Five Powers as to the measures which it would become ex
dient for them to adopt, in the event of Mehemet Ali casting off
allegiance to the Porte.

F. Lamb,
', Sept. 10,
G. Hamil-
. 39, Sept. 4,

In transmitting to Sir Frederick Lamb and to Sir George Hamilt
a copy of the above letter, Lord Palmerston instructed them to apply
the Austrian and Prussian Governments respectively to instruct their
presentatives at London to enter upon this matter.

l Campbell,
;, August 11,

Colonel Campbell received the instruction No. 21, of the 7th
July, on the 2nd of August; and forthwith made its contents known
Mehemet Ali. The Pasha replied, he would commit no aggressi
on the Porte, would keep within his own frontiers, but would not
nounce his intention to declare his independence. He hoped, he adde
to be able to arrange matters amicably with the Capitan Pasha whom he e
pected at Alexandria, in which case he would be satisfied with the succe
sion in his family. He should be absent some months on a visit to the go
mines of Sennaar, during which affairs might assume a more favoural
aspect. He would pay his tribute to the Porte. He accused the Porte of i
triguing against him in Syria and in the Nedjeb. Colonel Campbell ad
that, in his opinion, a blockade of the coasts of Egypt and of Syria wou
not prevent Mehemet Ali from supplying his army in Syria, as he cou
easily obtain sufficient camels for the transport of his supplies; whi
at the same time it might be apprehended that the fact of a blockad
would probably call forth an immediate declaration of independence
the part of the Pasha.

onel Campbell,
. 55, August 16,
18.

On the 15th of August, M. Cochelet, in pursuance of instructio
from Paris dated the 24th of July, addressed a note to the Egyptian G
vernment, in which it was said that the French Government had lear
with as much surprize as regret the determination of Mehemet A
to renounce his allegiance; and was firmly resolved not only not to a
knowledge him in the new position he proposed to assume, but to decla
that they would regard his step "*comme non avenue;*" would oppo
every obstacle to it; and would begin by sending a squadron before Ale
andria and to the coast of Syria. To this note the French Governme
demanded a categorical reply. On the following day M. Cochelet saw t
Pasha, in company with Colonel Campbell, when a conversation ensue
of which Colonel Campbell afterwards showed a minute to the Pash
who corrected it, and of which the following is the substance:

Colonel Campbell,

Mehemet Ali said, that he would not give a written answer to th



posed that he would commit hostilities; that he relied upon the good disposition of France and England, whom he regretted to see opposed to him at present, but who, he predicted, would shortly change their opinion; that if, as he hoped, the question respecting the inheritance of his authority should be satisfactorily settled, he would be content with that; but if forced to have recourse to arms, he would declare his absolute independence; that he would not suffer his hands to be tied by the Powers, in order to sacrifice him to the Porte; and that he would rather perish than leave his family and his people in a state of uncertainty as to their future fate; that he sought nothing contrary to the interests or policy of the Powers of Europe, who on their part, ought to have some regard for his position and treat him as a man; that if the Powers did not acquiesce in his views, and guarantee the stability of the existing order of things, and if he was thus left to his own resources, he would take the steps which he considered most expedient, and would sacrifice himself to escape from his present position; that certainly, if he should be unanimously opposed by the Four great Powers, he must perish; but they would derive no renown from overpowering him; the chances he knew were against him; but the issues of war were uncertain, and if by any luck they should prove favourable to him, he left it to the Powers to judge what consequences would ensue.

Earl Granville, No. 257, Sept. 17, 1838.

In reply to this report of Mehemet Ali's language, the French Consul-General was directed to express the dissatisfaction of his Government at the evasive answer of the Pasha, and to declare that the French Government would in consequence continue to watch his movements.

Mr. Aston, No. 72, September 10, 1838.

In a conversation which Mehemet Ali had with the Austrian Gonsul-General a few days afterwards, the Pasha said that he calculated that France and England might, in the event of their opposing his declaration of independence, bring against him a force of 40,000 men. These, the Pasha said, he could resist by the forces of Egypt, and detachments from Arabia; while his forces in Syria would march against those of the Sultan. The Pasha moreover calculates upon his influence in Roumelia and in Albania; and further upon his means of working upon the fanaticism of the Mussulman population to aid him against his Christian adversaries.

Colonel Campbell, No. 57, August 24, 1838.

When the intelligence of the conclusion of the Commercial Treaty between England and Turkey reached Paris, Count Molé expressed to Mr. Aston his apprehension lest the knowledge of the Article which it contained respecting the abolition of monopolies, might not induce the Pasha at once to declare his independence of the Porte: and Count Sébastiani was instructed to make a communication to the same effect to Lord Palmerston.

Mr. Aston, No. 72, Sept. 10, 1838

Count Molé to Count Sebastiani, Sept. 10,1838

In reply it was stated that the British Government certainly did not intend to allow any objection on the part of Mehemet Ali, to interfere with the full and complete execution of that stipulation in every part of the Turkish dominions.

To Mr. Aston, No. 77, Sept. 15, 1838.
To Count Sebastiani, Sept. 20, 1838.

Lord Granville having communicated this answer to Count Molé, the Count said that he admitted the general advantage to all nations of the monopoly Article, but he apprehended the result of the determination to enforce it against Mehemet Ali, must be war. Still Lord Granville was of opinion that Admiral Roussin will be directed to sign a similar Treaty between France and the Porte; but Count Molé told him on a subsequent day, that he should suspend his instructions on that point.

Earl Granville, No. 262, Sept. 21, 1838.

Baron Roussin says that M. de Bouteneff, on his arrival at Constantinople, expressed his surprise and dissatisfaction at the Treaty; and M. Cochelet writes on the 6th September, that Mehemet Ali had declared to him that he would not submit to the monopoly Article. Count Molé said that this account confirmed his apprehensions as to the effect of the Article. Count Molé also regretted that the communication on the subject had been made in writing to Count Sebastiani; Count Molé doubts the prudence of attempting to compel Mehemet Ali to fulfil the stipulation.

Earl Granville, No. 268, Sept. 28, 1838.

Sir George Hamilton having urged Baron Werther to send instructions to Baron Bülow respecting Mehemet Ali, the Prussian Minister said

Sir George Hamilton, No. 43, Sept. 12, 1838.

that he entirely concurred in the view taken by the British Cabinet of the state of affairs in the East, and felt disposed to adopt the measures recommended in the note to Count Pozzo di Borgo of September 3; but he doubted whether Russia would consent to a Conference on the question. In fact, Count Nesselrode, before communicating with the Emperor, expressed to Sir George Hamilton his doubts as to the necessity of a Conference in London on Eastern affairs; the Powers being all agreed on that subject; and he said that Russia would gladly leave Mehemet Ali to be dealt with by the English and French fleets.

Sir C. Hamilton, No. 51, Sept. 26, 1839.

Count Nesselrode to Count Pozzo di Borgo, September 21, 1838.

The formal answer of the Russian Cabinet was in conformity with Count Nesselrode's language to Sir George Hamilton. That Cabinet did not consider it necessary to authorize Count Pozzo di Borgo to enter into the concert proposed by Lord Palmerston with the Ministers of the other Powers respecting Mehemet Ali, because the Powers having, without previous concert, arrived at the same conclusion, there was no reason why they should not do so in future; and because it was probable that the language held by the representatives of the Powers at Alexandria would effectually check the Pasha, and render unnecessary any further measures; and consequently no good could result from discussing what should be done in a hypothetical case, while such discussion would be more likely to produce difference than unanimity.

To Lord Clanricarde, No. 6, Oct. 10, 1838.

On receiving this communication, Lord Palmerston observed to Count Pozzo di Borgo that his proposition had a twofold object;—First, that the Five Powers should agree to act by mutual concert in the affairs of the Levant; and, secondly, that such concert should immediately be established, as it was probable that immediate action might be required. Count Nesselrode, however, without adverting to the first point, confined himself to denying the urgency of immediate concert. Lord Palmerston was glad that His Excellency had offered no objection to the principle of the first proposition, which his Lordship considered was one of great importance to all Europe. Although Mehemet Ali might for the present be deterred from taking his meditated step, there was no answering for the future; and circumstances might arise to render necessary the interference of the allies of the Sultan. If such a case were to arise, it was evident that Europe never would allow the matter to be settled by any one Power alone; consequently, that the only way in which Turkey could be assisted without risking a disturbance of the peace of Europe, would be by establishing that concert between the Five Powers which Her Majesty's Government have proposed.

Sir F. Lamb, No. 72, Sept. 8, 1838.

In the course of a conversation which Sir F. Lamb had with Prince Metternich, at Venice, on the 3rd of September, in which the former repeated what had just passed between him and Count Nesselrode, respecting the relations between England and Russia, and also respecting the affairs of the East, Prince Metternich rejected the idea of an exclusive Austrian expedition to Syria, as exceeding the means of Austria; but was silent as to a combined operation.

Sir F. Lamb, No. 84, October 25, 1838.

Sir F. Lamb, having subsequently taken occasion to communicate to Prince Metternich Lord Palmerston's note to Count Pozzo di Borgo of September 3, the Prince expressed his full concurrence in the views expressed therein, and his intention to give the required instructions to M. Hummelauer. He said that it would be necessary to show to Mehemet Ali, that behind the unity of language held by the Five Powers, were the allied armies, which he would have to encounter if he undertook operations against the Porte. Subsequently Prince Metternich said he could not draw up his instructions to M. Hummelauer till his return to Vienna, engaging that he would then do so. Prince Metternich admitted that the proposition contained in Lord Palmerston's note, was the same which Sir F. Lamb had at his desire transmitted to England in June.

Sir George Hamilton, No 62, Oct. 24, 1838.

Baron Werther, having been informed by Sir George Hamilton of the nature of the answer given by Mehemet Ali, in September, to the Russian demands, expressed his doubts whether it might not be expedient to make an arrangement between the Sultan and Mehemet Ali, securing

to the latter the hereditary succession, on his giving up a part of Syria. This was, however, only an idea which had crossed his mind.*

An account is given in the 12th and subsequent pages of this memorandum, of what passed between the British and French Consuls-General, and Mehemet Ali on the 2nd and 16th of August, upon their communicating to him the sentiments of their respective Governments contained in despatches of the 7th and 24th of July, on his proposed declaration of independence.

Col. Campbell, No. 61, of Sept. 5, 1838.
Col. Campbell, No. 62, of Sept. 6, 1838.

On the 28th of August, the Consuls-General of Austria and Russia, and the Consul of Prussia received the instructions of their respective Governments, dated at Tœplitz; those of Austria, on the 5th of August; those of Russia on the 2nd of August; and those of Prussia on the 24th of July.

Col. Campbell, No. 63, of Sept. 7, 1838.

The purport of the Austrian instructions was, to declare to Mehemet Ali, that if he proclaimed his independence, it would not be recognized by Austria, which Power would still consider Egypt as an integral part of the dominions of the Ottoman Empire, and the relations of Mehemet Ali towards the Sultan those of a vassal to his Suzérain. Moreover, that this declaration was the result of the union which subsisted between the European cabinets on the subject of Egypt.

M. Laurin made a written communication to Mehemet Ali to the above effect on the 29th of August, and had an interview with him the next day, when Mehemet Ali said, that he could give no other answer than that which he had already given to the Consuls-General of England and of France; that he was aware that he could not resist the Powers; that he would endeavour to make the Powers understand, that what he demanded was just and beneficial to the question of the East; that he demanded his independence in order to preserve his family from destruction, but that he would be satisfied if the Porte would grant the hereditary succession. Mehemet Ali enlarged upon these topics, and in reply to an intimation from M. Laurin, that the Powers would probably force him to disarm, he said that such a demand would be equivalent to his destruction, and that he would never consent to it; but the hereditary succession once settled, he would reduce his forces to the amount requisite for the maintenance of internal tranquillity, and for restraining the ambitious designs of his neighbours, and would devote himself to the improvement and civilization of Egypt.

The purport of the Russian instructions was, that the Great Powers were satisfied of the necessity of maintaining Egypt in its present position, and consequently declared through their representatives, that they would not recognize the independence of Egypt, if proclaimed by Mehemet Ali; but they would continue to consider it as an integral portion of the Ottoman Empire, and the relations of Mehemet Ali towards the Porte, as those of a vassal towards his Suzerain. Moreover, Russia had stated to England that she would see without jealousy a British naval force employed on the coasts of Egypt, to keep the Pasha within the bounds of his allegiance; would approve the measures which Great Britain might take for that purpose, and the rather because the success of those measures would relieve Russia from the imperious necessity of herself interfering in the affairs of Egypt, which she will defer doing as long as possible, but which, at the demand of the Sultan, she will not hesitate to do, if Mehemet Ali commits an unjust aggression. It is desirable that the communication to the above effect should be simultaneously made by the agents of all the Powers, and the Consul of Prussia will be directed to act with the others, and thereby disavow the encouragement which Prussian travellers may have given the Pasha.

Mehemet Ali's answer to this communication, when verbally made to

---

* Susequently on learning from Lord W. Russell the answer of Prince Metternich, reported in Sir F. Lamb's, No. 84, Baron Werther said, that the proposals made by Great Britain to Russia were approved by Prussia, whose opinions on this matter coincided with those of Austria; but that the question was now set at rest by the union of the Powers.—Lord W. Russell, No. 65, Nov. 21, 1838.

him by Count Medem, was the same as that which he gave to the French Consul-General on the 16th of August, but he went on to remark, on no mention being made of the French squadron, and on the Prussian Consul being called upon to interfere in the matter.

The instructions given to the Prussian Consul enjoined him to make to Mehemet Ali a declaration similar to that made by the Consuls-General of the other Powers, which he executed by sending to Boghos Bey a copy.

In reply to this communication, Mehemet Ali sent a memorandum to the Prussian Consul, saying that he had represented to the Four Great Powers his position and desires, which latter not being directed to a disturbance of the tranquillity in the east, were not opposed to the interests of Europe; that he had no intention to commit hostilities, but would be satisfied if he could obtain the hereditary succession, which was all he desired; and that he hoped the Great Powers would change their opinion with respect to him.

In a memorandum which Mehemet Ali transmitted on the 4th of September, to the Austrian and Russian Consuls-General, he says that he considers he has already sufficiently explained to the Great Powers his position and desires; that he hopes the Emperor will in time change his opinion, and cease to oppose his desires, which were not opposed to the interests of Europe or to the tranquillity of the east; that from regard for his family, he sought the hereditary succession, which would satisfy him, and which he would be glad to obtain by negotiation. Meanwhile, he had no intention to commit hostilities, and was going to Sennaar. But he would not allow his hands to be tied so as to be a victim to the Porte, and would prefer to perish rather than leave the fate of his family and people undecided. If he failed to compass his desire by the assistance of the Powers, he would adopt the measures which he should deem expedient to relieve him from his present position; and if forced to have recourse to arms, he would proclaim his independence; that the Powers might destroy him, but would not increase their fame in doing so, whereas if he chanced to succeed, all the glory would be on his side.

Colonel Campbell, in commenting upon the foregoing events, suggests whether Mehemet Ali may not look to inducing the Powers to propose some arrangement for him, and thereby relieve themselves from the embarrassment attendant on the existing state of affairs. But certainly, Mehemet Ali will not be satisfied without some stipulations being made regarding his family.

Colonel Campbell, No. 69, October 1, 1838.

In a subsequent despatch, Colonel Campbell says, with reference to what is stated in Lord Ponsonby's despatch, No. 160, that as far as he can ascertain, the coinage of the Pasha bears the Sultan's "toura," and on the reverse, the words "coined at Cairo." In other respects, Colonel Campbell agrees with Lord Ponsonby, as to the impossibility of any sincere reconciliation being effected between the Sultan and Mehemet Ali. The latter, certainly, derives great moral weight from the possession of the Holy Cities, but Colonel Campbell is not aware that he ever aspired to the Caliphate; notwithstanding that it appears that he might have been led to entertain that idea, by the communications made to him in 1833, by M. Prokesch, as agent of the Court of Vienna. The notion suggested by M. Prokesch, in a note dated May 17, 1833, was, that Egypt, Nubia, Sennaar, Darfour, Cordofan, the whole of Arabia as far as the Persian Gulf, the right bank of the Euphrates, and the whole of Syria, should be erected into an Arab Empire, and that Mehemet Ali should declare himself the avenger of the Caliphs.

Colonel Campbell adds, that he believes the late French Consul-General, M. Mimaut, to have held out very flattering hopes to Mehemet Ali; but that Dr. Bowring had constantly in his communications with Mehemet Ali, impressed upon the Pasha, that what he said must only be regarded as the expression of his own private opinion, for that he was not authorized by his Government to make any proposition on political, or even on commercial matters to the Pasha.

Subsequent reflection seems to have induced Mehemet Ali to



recede from the determination which he had in the first instance announced to the French Consul-General, not to submit to the Commercial Convention concluded between Great Britain and the Porte. On the 15th of September, at the moment of his embarkation for Cairo, he announced to the French, English, and Austrian Consuls-General, that he would execute the Treaty; that upon reflection he found that its terms were advantageous to him; and that he could contrive to keep up prices at rates which would not be burthensome to the proprietors of produce, or to himself, as a great proprietor of a portion of Egypt. The French Consul-General concludes his report by saying, that the tribute to the Porte will be paid, and the Treaty executed by the Pasha: that the question of his independence is waived; and that the fleet will re-enter the port, and the army in Syria abstain from hostilities. It is to be hoped, therefore, that during the absence of Mehemet Ali, the Powers will settle in his favour the question of hereditary succession; and not leave it to be discussed with Reshid Pasha, who is stated to be instructed to demand the delivery of the Egyptian fleet to the Porte, the reduction of the army, and the surrender of Syria; to which conditions Mehemet Ali will certainly not agree.

Lord Granville, No. 278, Oct. 5, 1838.
Lord Granville, No. 283, Oct. 6, 1838.

Colonel Campbell gives the same report as M. Cochelet, with respect to the intention of the Pasha to execute the Treaty. The Pasha said that his monopolies only produced 50,000 purses, or 1,250,000 dollars, a year, whereas the additional duties on imports and exports fixed by the Treaty, would yield him a larger sum. The greater part of the cotton, Colonel Campbell says, is the produce of the Pasha's own lands. The system of monopolies, too, in Egypt differs from that of Turkey. In the latter it consists in exclusive privileges conferred on certain people; whereas in Egypt it is the Pasha who is the sole merchant, from whom or from whose agents alone produce is to be purchased. The produce is raised on the Pasha's own land, which he either cultivates himself, or lets to others on condition that the specified produce should be sold to himself at a fixed price: and the merchandize is obtained from his own manufactures, and must stand competition with the foreign merchandize. The abolition of monopolies in Egypt will apply only to wines, indigo, wool, rice, sugar, &c., and the produce of Soudan and Arabia, which can now only be sold by the Pasha. But these monopolies are rather occasioned by the Pasha from his wealth being enabled to purchase the commodities, and also by the fact of all the most fertile lands of Egypt being in the hands of the Pasha and his family. If the Pasha were to change his system, and allow the cotton and other produce of his lands to be sold by the renters or growers, the immense capitals, now locked up in the coffers of many of his principal officers, would soon be applied to the cultivation of cotton, and the produce would be greatly increased. The commerce of Soudan and Arabia is not only a monopoly, but an usurpation on the part of the Pasha; who imposed such restrictions and prohibitions on it, as enabled his delegates to get the whole produce into their hands at a low price. The caravans have in consequence gradually diminished; but if, as a consequence of the Treaty, the commerce should hereafter be open, merchants will be able to send their agents into the countries... But if the Pasha chooses to withdraw his troops from the countries, European merchants will be afraid to trade in Soudan.

Col. Campbell, No. 67, Sept. 23, 1838.

With reference to the foregoing despatch, Lord Ponsonby denies that the Pasha is the sole proprietor of the lands in Egypt, and maintains that he only holds the lands by permission of the Sultan, who can take away at his pleasure the administration of the lands, and make any other arrangement. If, therefore, the Pasha attempts to evade the Convention, the Sultan may be advised to exert his authority in that respect, and it would be a most fortunate thing for Egypt if the Sultan should be supported in such a course by Her Majesty's Government, because the Sultan might then be induced to let the lands to tenants on advantageous terms, and allow strangers the right of possessing property. The Sultan would thus not only deprive the Pasha of power, but acquire great increase of revenue. Such a plan would enlist in its favour, as

Lord Ponsonby, No. 220, Oct. 16, 1838.

against the Pasha, all those who might hope to reap benefit from it. Lord Ponsonby concludes by saying, that he believes it to be impossible to maintain the *status quo;* that the British Government will soon have to decide between Mehemet Ali and the Sultan, and cannot decide against the latter without a breach of faith, and insuring the triumph of Russia.

Lord Clanricarde, No. 9, Nov. 20, 1838.

Lord Clanricarde communicated to Count Nesselrode on the 7th of November, Lord Palmerston's despatch No. 6. With reference to the allusions contained in it to the Treaty of Unkiar Skelessi, and to the acquisition by Russia of the mouths of the Danube by the Treaty of Adrianople, Count Nesselrode said, on the first point, that Russia regarded the Treaty of Unkiar Skelessi as a burthen, from which it could derive benefit only in case of war; and, on the second point, he spoke of the acquisition of the mouths of the Danube as trifling. He denied that he had ever intimated that a Russian army might occupy Syria; but he made no remark on Lord Palmerston's proposal of a joint representation from the Five Powers to Mehemet Ali. On a previous occasion, the Count had said that Russia desired the same end as England, but to arrive at it in a different manner.

Earl Granville, No. 59, Feb. 15, 1839.

Nothing further passed on this subject, and the question was dropped from that time until the month of February, when Count Molé in a conversation with Earl Granville, alluding to the approach of the period at which Mehemet Ali would return from Sennaar, expressed his wish that the French and English Governments should be prepared to act in concert, when the Pasha should renew the subject of his independence. Count Molé said, that without such previous concert a divergence might appear in the language and proceedings of the two Governments, which could not fail to be prejudicial to the object which both had in view. Lord Granville said that he had no doubt the British Government would give the most favourable attention to any proposal having for its object to secure unity in the language and proceedings of the two Governments, and he recapitulated what had taken place last year, and the success which had attended the menaces of the Four Powers. Count Molé said that he could not rely upon the effect of those menaces, if no hope was held out to Mehemet Ali of an arrangement with the Sultan in favour of his descendants. Nothing, in his opinion, would tend more to stave off a crisis in the East, than leading Mehemet Ali to expect that the good offices of England and France would be employed at Constantinople to secure to his son the succession to the Government of Egypt.

No answer was returned to this proposition.

M. Hummelauer, April 8, 1839.
Mr. Milbanke, No. 33, March 28, 1839.

On the 8th of April, the Austrian Chargé d'Affaires communicated to Lord Palmerston a despatch from Prince Metternich of the 28th of March, directing him to call the attention of the British Government to the evident intention of the Porte to attack Mehemet Ali. Prince Metternich inclosed a copy of a despatch from M. Bouteneff to the Russian Ambassador at Vienna, dated the 13th of March, and saying that notwithstanding the formal assurances given to him by the Porte a month before, the question of an immediate conflict between the Turkish and Egyptian troops in Syria was now in agitation; that the Turkish Ministers had desired the Russian dragoman to inform M. Bouteneff, that Hafiz Pasha had reported that from the movements of the Egyptian troops, he was led to apprehend an immediate attack, and had requested permission to advance towards the Syrian frontier, in order to be in readiness to repel any such attack. The Porte, it was added, was inclined to approve the plan, but before doing so, wished to ascertain what would be the opinion of Europe, and of Russia, and specifically whether if a collision should ensue, the Sultan would be held responsible for that event. M. Bouteneff replied, as appears also from his instruction to his dragoman, of which the Internuncio gave Lord Ponsonby a copy, that being without instructions he could only offer his own opinion on the matter; that without adverting to military considerations, he con-

Lord Ponsonby, No. 76, March 23, 1839.

sidered it incredible that Mehemet Ali, during his absence in Upper Egypt, should attempt an attack on the Sultan's forces; that it was equally incredible that Mehemet Ali, who had recently yielded to the declarations of opposition on the part of the Powers, should now commence hostilities with the certainty of encountering the same opposition; that the approach of the Turkish troops to the Syrian frontier might lead to a collision, the immediate effect of which would be a declaration of independence on the part of Mehemet Ali; that it would depend upon the Porte as to which party would be responsible; that as long as the Porte continued in its present peaceful policy, it might reckon upon the support and goodwill of the Powers; but that the matter would be viewed differently, if the Porte had recourse to measures which should appear to provoke hostilities; that as to the sacrifices which the existing state of things imposed upon the Porte, great as they were, they were trifling in comparison to the chances of a war, which might become general; that Russia had nothing to do with the establishment of the existing state of things, but had done everything to prevent it; but, once established, the Powers, who saw in it the only guarantee of peace in the East, were resolved to maintain it; that, lastly, it would be advisable for the Porte to communicate frankly on the matter with other Governments. M. Bouteneff closes his despatch by saying that he was far from feeling sure that his advice would be followed; and that the accounts from Hafiz Pasha's camp served to show that the crisis was at hand.

Prince Metternich's despatch goes on to say, that it was his intention immediately to instruct the Internuncio to hold the same language with M. Bouteneff, and to add that the Sultan must be assured that Austria, in common with her allies, would retain Mehemet Ali within the bounds of allegiance, and if he attempted to transgress them, all Europe would be leagued against him; that, on the other hand, if the Sultan should be the aggressor, Austria would consider herself released from all obligations with respect to the Sultan. Prince Metternich added that it was desirable that Lord Ponsonby should have corresponding instructions, and be directed to co-operate with his colleagues.

To M. Hummelauer, April 10, 1839.

In reply to this communication, M. Hummelauer was informed that Lord Ponsonby had already and frequently been instructed to endeavour to dissuade the Sultan from hostilities against Mehemet Ali; that he had acted upon those instructions; and would be again instructed in the same sense.

The first instructions to Lord Ponsonby on this subject, in the year 1839, were dated on the 15th of March. In the early part of the year Lord Ponsonby reported that the Sultan had been advised to propose that the Great Powers should hold a Conference on the eastern question; but that the Russian Minister had represented that such a measure would be productive of danger to the Porte, as England and France might take advantage of it to suggest a course prejudicial to the rights of the Porte. On the 22nd of January, a grand Council was held to discuss the question of peace or war with Mehemet Ali, and the Russians were supposed to be exciting the Sultan to the latter course. Rumours of war continud to prevail; and Lord Ponsonby considered that the mission of the Russian dragoman Franchini to Persia was connected with a scheme for drawing the Sultan into hostilities with Mehemet Ali. Lord Ponsonby says that he has been doing his best to induce the Sultan not to deviate from his intention of waiting to see the result of Reshid Pasha's embassy.

Lord Ponsonby, No. 18, Jan. 27, 1839.

Lord Ponsonby, No. 20, Feb. 6, 1839.

On the 4th of February another grand Council was held for the discussion of the question of peace or war, at which a proposition was said to have been made for raising Rayah regiments.

Lord Ponsonby, No. 24, Feb. 8, 1839.

Subsequently Lord Ponsonby was induced to believe that the Sultan would not immediately commence hostilities, His Highness having caused him to be assured that he would do nothing precipitately. The Turkish Minister also stated to the Russian Minister, who had said that the Emperor would learn with great dissatisfaction that the Sultan had done anything to disturb peace, that the Porte had no intention whatever of making war.

A few days afterwards, however, Lord Ponsonby received information that war was in fact determined upon: that the Sultan placed little

Lord Ponsonby, No. 28, Feb. 12, 1839.

reliance upon France and England; but confiding in the support of Russia, was resolved to triumph or perish; and that the Ministers of the Porte were not fully aware of the real state of things.

Earl Granville, No. 107, March 11. 1839.

This account tallied with that received by the French Government, who were moreover informed that Ibrahim Pasha, although he would be cautious not to be the aggressor, was resolved in the event of being attacked, and of succeeding in repelling the attack, to march immediately upon Constantinople.

To Lord Ponsonby, No. 38, March 15, 1839.

Lord Ponsonby was informed that his continued attempts to keep the Sultan quiet were approved, and he was instructed to press strongly on the Sultan that while, on the one hand, Great Britain would undoubtedly assist him to repel any attack on the part of Mehemet Ali, the question would, on the other hand, be different if war was begun by the Sultan.

To Lord Ponsonby, No. 43, April 12, 1839.

Lord Ponsonby was further instructed in the following month, with reference to M. Hummelauer's communication, to continue to co-operate actively with his colleagues, in endeavouring by all means in his power to prevail upon the Sultan to abstain from any hostile proceedings against Mehemet Ali.

Lord Ponsonby, No. 59, March 7, 1839.

Lord Ponsonby learnt on the 20th February, that the Sultan had sent a Hatti-Sherif to the Great Council, saying that Hafiz Pasha had reported that he could defeat the Egyptian army, and the Capitan Pasha that he could destroy the Egyptian fleet; and the Sultan called upon the Council to be courageous and do its duty. The Council replied that it would do all in its power to conform to the pleasure of the Sultan.

Lord Ponsonby, No. 253, Dec. 6, 1838.

Lord Ponsonby, reasoning upon the probability of Russia, having contributed to inflame the warlike propensities of the Sultan, reverts to what he had written at the close of 1838, of an arrangement having been proposed to the Porte by M. Bouteneff, for the restoration of a good understanding between the Sultan and Mehemet Ali, on the basis of the surrender of Syria to the Sultan, and of the recognition of the hereditary right of the family of Mehemet Ali to the Government of Egypt. Nothing, however, had been done in the matter in December, 1838, though Lord Ponsonby understood that the Sultan was likely to consent to such an arrangement; which, in Lord Ponsonby's opinion, was impracticable.

At the present time, Lord Ponsonby conceives that there may be many reasons for Russia being inclined to abandon the policy of allowing things to remain as they are.

On the 2nd of March, Lord Ponsonby received a message from Nourri Effendi saying, that the Porte had some slight hope of a favourable result from Reshid Pasha's mission, but adding that the burthen and expense to the Porte of the present state of things was intolerable.

Lord Ponsonby concludes by saying, that he has done all in his power to persuade the Sultan of the advantage of delaying all hostile movements, and that he hopes that the Sultan will not act at present against Mehemet Ali.

Lord Ponsonby, No. 67, March 18, 1839.

On the 18th of March, Lord Ponsonby received a message from the Porte stating, that Hafiz Pasha had reported from Malatia towards the end of February, that a large body of Egyptian troops had arrived at Adana, under Kourschid Pasha, and that the troops at Aleppo were being reinforced; and that he had been advised by the Prussian Officers in his Camp, to move nearer to Adana, from which he was now 60 leagues distant. The Porte wished Lord Ponsonby to advise what answer should be given to Hafiz Pasha. Lord Ponsonby replied that he was not competent to give an opinion on a military matter, but that he begged the Porte to act with prudence and caution, as a false step might occasion irremediable mischief.

Lord Ponsonby, No. 71, March 19, 1839.

It appeared, indeed, from information received by Lord Ponsonby that Hafiz Pasha and the Prussian Officers were urging the Porte to attack Mehemet Ali, alleging that there would never again be so favourable an opportunity for driving him out of Syria; and the information which the Internuncio received, led him to anticipate the speedy advance of Hafiz Pasha, in which case hostilities appeared inevitable.

Lord Ponsonby, No. 72, March 20, 1839.

Lord Ponsonby, No. 76, March 23, 1839.

The Internuncio sebsequently communicated to Lord Ponsonby, M.



de Bouteneff's instruction to his dragoman which is in the same sense as that Minister's despatch to M. de Tatistcheff referred to in page 18 of this Abstract, but in transmitting it home Lord Ponsonby says that there can be no doubt that the Russian agents have been exciting the Porte to war. His Excellency adds that he had received a message on the 21st of March from the Turkish Minister, indicating that his advice would be followed: and he thought that nothing would be done at present to disturb the peace. In a subsequent despatch Lord Ponsonby says that he is inclined to discredit the report of the Prussian officers with Hafiz Pasha being instruments of Russia.

Lord Ponsonby, No. 79, March 26, 1839.

On the 4th of April Lord Ponsonby conveyed to the Porte the substance of a communication which he had received from Lord Palmerston, stating that he had agreed with Reshid Pasha on the principle of the proposed Treaty, and was employed in preparing the details; and Lord Ponsonby added the best reasoning he could use to induce the Porte to abandon warlike policy for the present; and he urged delay. Nourri Effendi replied that the Sublime Porte could not be satisfied with the Treaty, which was not what Reshid Pasha wished to make it; that the Porte wished to destroy the *status quo*, and the proposed Treaty not only maintained it, but bound the Porte not to take advantage of any future favourable opportunity; that the Treaty merely provided that England should unite with the Porte in case Mehemet Ali, or a successor of his family, should declare his independence or commit any aggression. Tahar Pasha, Chief of the Staff under the Seraskier, was sent to the head quarters of Hafiz Pasha, after the Treaty had been under the consideration of the Turkish Ministers. Lord Ponsonby fears his instructions are not of a satisfactory nature.

Lord Ponsonby, No. 88, April 6, 1839.

Lord Ponsonby adds that he believes M. Bouténeff has been seriously endeavouring to prevent war; and that the Internuncio and the French Ambassador have done the same. Lord Ponsonby's advice was that at all events the Porte should delay, if it would not altogether asbtain from everything that might commit the Sultan in a perilous enterprize.

On the 18th of April Lord Ponsonby got from Nourri Effendi a copy of the draft of Treaty which Reshid Pasha had sent to his Government. It consisted of a Preamble and 2 Articles, and professed to provide for the case of a renunciation on the part of Mehemet Ali of his obedience as a subject, and likewise for the case of similar disobedience being manifested by any member of his family; in which cases the Sultan grants permission to the British fleet to detain ships of war and merchantmen belonging to Mehemet Ali, while the Turkish fleet will visit, and, if necessary, detain neutral vessels employed by the Pasha for the conveyance of provisions and military stores;—the two fleets shall act in concert on the coasts of Egypt and Syria.

Lord Ponsonby, No. 99, April 22, 1839.

Lord Ponsonby, in the absence of any information from home as to the terms of the Treaty, still thought it right to endeavour to counteract the persons who advised the Porte to reject it, and accordingly entered into a discussion with Nourri Effendi on the matter. The Turkish Minister said he was convinced that no Treaty would benefit the Porte which had not for its object the destruction of Mehemet Ali, and consequently that the Porte ought not to make any Treaty.

The Porte not having given Lord Ponsonby any answer on the 22nd, he determined to wait no longer, but to send off his Messenger with a report that the information which he had received from other quarters, authorized him to believe that no hostile movement would at present be made by the Porte; although he could not speak positively on that point.

On the 23rd of April, the Internuncio told Lord Ponsonby that he had stated to the Porte, that an attack upon Mehemet Ali might be considered by the Great Powers as a justification of their taking the part of the Pasha. The Turkish Ministers urged the misery and ruin produced by the *status quo;* but the impression on the Internuncio's mind was, that the Porte would not at present begin hostilities, though they might arise from accident; and, at all events, the state of affairs in the Country could not be preserved as it was.

Lord Ponsonby, No. 103, April 23, 1839.

Lord Ponsonby, No. 108, May 1,

The answer of the Porte to Lord Ponsonby's representations respecting Mehemet Ali, was given on the 28th of April. It began by referring to a communication from the Internuncio, having for its object to induce the Sultan to abandon his warlike preparations against Mehemet Ali, and to adopt some middle course to put an end to the question respecting him. The Sultan's reply was, that Mehemet Ali had been long making preparations, that he oppressed the people and country under his rule, raised fortifications and levied troops. The Porte, on the other hand, had only very lately raised fortifications, but as the conduct of Mehemet Ali was such as to leave no security to the Porte, the latter had been obliged to send troops and military stores to Sivas and Conia. It would be inconsistent with the relations between the Porte and the Great Powers that the latter should not raise their voice against the rebellion of Mehemet Ali, at the same time that they prevented the Porte from acting; and it was clear that if Mehemet Ali should commit an aggression, the Porte could not remain inactive; and it was equally clear that if Mehemet Ali remained within the limits of his allegiance, the Porte would not have recourse to war. What, however, was to be done to secure the Porte against the projects of Mehemet Ali? As long as the present state of things existed, there was no security or tranquillity, and the Porte was obliged to maintain an army at a great expence. With regard to the middle course proposed by the Internuncio, that referred to the return of Mehemet Ali to his position as a subject; but that could only be by his delivering up Adana, Damascus, Aleppo, Seyda, Jerusalem, and Naplous, and by his reducing his forces within the limits compatible with his position as a subject. If the Great Powers would endeavour to create such a state of things, the Sultan would acquiesce in it. With regard to the special communication of Lord Ponsonby, if the British Government was disposed to do an act of friendship and kindness in adhering to a Treaty of Alliance drawn up in the sense just stated, the Porte would accept it with pleasure.

The foregoing answer was contained in a letter from Savd Bey, the Sultan's private secretary, to Nourri Effendi.

On the 24th of May, intelligence was received in London by telegraph from Marseilles, that Mehemet Ali on the 7th of May, stated to the Consuls of the European Powers in Egypt, that hostilities had commenced in Syria.

Col, Campbell, No. 26, May 4, 1839.
Col. Campbell. No. 27, May 5, 1839.

Two days afterwards despatches were received from Colonel Campbell, by which it appeared that intelligence up to the 27th of April, had reached Alexandria from Damascus, stating that the forces of the Sultan had crossed the Euphrates at Bir, and having thrown up some fortifications there, had continued their advance. The Egyptian forces in Syria, under the command of Ibrahim Pasha, were being concentrated at Aleppo, sixty miles distant from Bir, but Mehemet Ali had sent orders to Ibrahim Pasha not to make any movement, unless he should receive certain intelligence of the advance of the Sultan's forces, in which case he was to take his measures accordingly.

Foreign Office, May 30, 1839.



عمائر محمد علي بمدينة قولة باليونان

أوقاف مصرية على أراضٍ أوروبية

الدكتور أحمد أمين

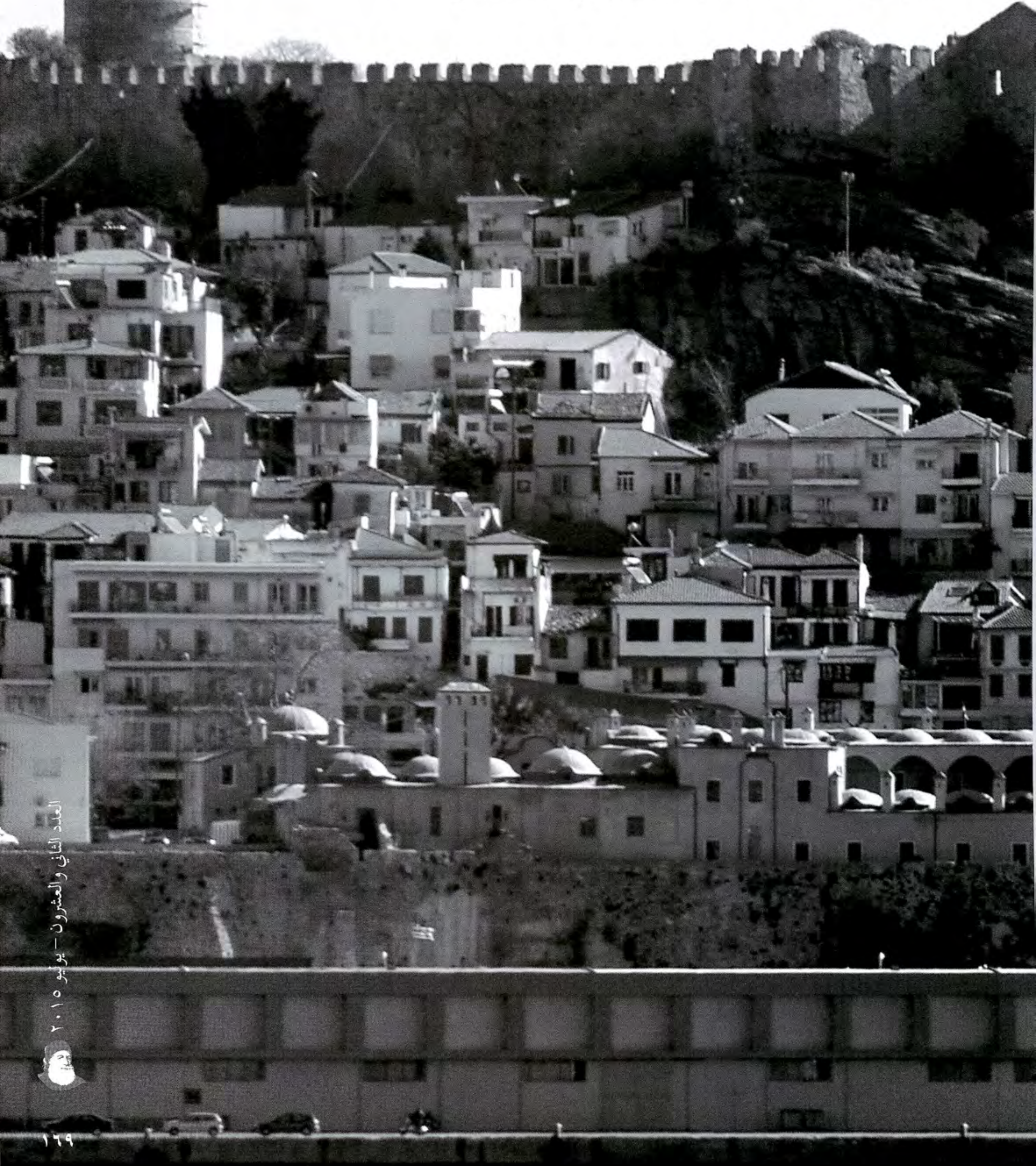
ذاكرة مصر



١٦٨

محمد علي باشا ومدينة (قولة)

مدينة **كاڤالا** باليونانية Καβάλα، وبالإنجليزية Kavala، وبالتركية العثمانية **قولة**، وتكتب بالمراجع المصرية قوله أو قولة. وهي مدينة يونانية تقع في شمال البلاد ضمن منطقة مقدونيا الشرقية وتراقيا الإدارية، وهي مركز مقاطعة تحمل الاسم نفسه ضمن هذه المنطقة الإدارية. وفتح العثمانيون هذه المدينة ضمن الفتوحات العثمانية المبكرة في أوروبا سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧١م، وازدهرت المدينة في عصر الدولة العثمانية على امتداد نحو ستة قرون كميناء، وكسوق زراعي، ومركز لتجارة التبغ.



النص التأسيسي الخاص بالمدرسة مؤرخ بـ ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م

محمد علي باشا المعروف بـ محمد علي الكبير، والي مصر (ولد في ٤ مارس ١٧٦٩م، ووافته المنية في ٢ أغسطس ١٨٤٩م)، ومؤسس الأسرة العلوية التي حكمت مصر و السودان حوالي ١٥٠ سنة (١٨٠٥- ١٩٥٣م). ولد محمد علي باشا بمدينة كاڤالا سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م، وكان والده تاجر تبغ ألبانيًا استقر ودفن كذلك بمدينة كاڤالا، وظل ضريح والد محمد علي باشا قائمًا بكاڤالا حتى وقت متأخر من القرن العشرين.

عاش محمد علي بمدينة كاڤالا حتى الثلاثين من عمره تقريبًا، ويبدأ أول ذكر حقيقي عن محمد علي عن طريق أمه زينب وهي الابنة الكبرى لحسين أغا من أصل أسرة ألبانية، وتزوج حسين أغا زينب سلطان ابنة السلطان أحمد الثالث (١١١٥- ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م). كان حسين أغا جورباجي الإنكشارية، وصار واليًا لمدينة قولة (كاڤالا). وأول رتبة عسكرية نالها محمد علي كانت من قبل حسين أغا في قولة وهي (بلوكباشي)، وهو المنوط به جمع الضرائب في قولة، والرتبة الثانية منحها إياه محمد خليل أغا ابن حسين أغا (أي خال محمد علي) لقيادة وحدة من المتطوعين، وهي التي ذهبت لإعادة مصر للدولة العثمانية بعد انسحاب نابليون.

عمائر محمد علي باشا بمدينة كاڤالا «قولة»



في سنة ١٨١٣م وبعد أن استقر الحكم لمحمد علي بمصر، وبدأ يقوم بحملاته للقضاء على الوهابيين بأمر من السلطان العثماني؛ طلب محمد علي من السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) إنشاء وقف له في مدينة كاڤالا «قولة»؛ موطن ميلاده فوافق السلطان العثماني.

وتعد منشآت محمد علي باشا في قولة؛ هي الأوقاف المصرية الوحيدة المتبقية خارج مصر؛ وتتمثل في مجمع معماري ضخم يعرف باسم الإيمارت (١٨١٧-١٨١٨/ ١٨٢٠-١٨٢١م)، ومنزل بحديقة (مؤرخ بأواخر القرن الثامن عشر الميلادي).

وتقع هذه العمائر بحي الباناغيا بمدينة كاڤالا (المدينة القديمة)، ويمتد المجمع المعماري الإيمارت على محور عرضي؛ بحيث يشرف بالكامل على بحر إيجه. أما المنزل فيقع على بعد أمتار قريبة من المجمع، ويُشرف على ميدان يتوسطه تمثال ضخم لمحمد علي باشا تبرعت به الجالية اليونانية بمصر. ويُعرف الشارع المؤدي للمنزل حتى الآن بشارع محمد علي، ويعلو علم مصر كلا المبنيين إشارة للملكية المصرية.

الإيمارت: مجموعة معمارية دينية/ تعليمية/ خيرية/ اجتماعية

يمثل المجمع المعماري Külliye مجمعًا ضخمًا يشرف على بحر إيجة، ويتميز بموقع فريد يشرف على الميناء وفي قلب المدينة القديمة. ويشتهر المجمع باسم **الإيمارت** Imaret، والإيمارت هو دار إطعام الفقراء مجانًا، وهو أحد مباني المجمع المعماري لكن غلب

اسمه على المجمع ككل لدوره الخدمي والاجتماعي البارز، وهو يقابل بصورة كبيرة التكية في مصر العثمانية، وعُرِف كذلك - أي الإيمارت - باسم **تنبل خانة** Tembel Hane بمعنى مكان الكسول، دلالة على من يُطعمون دون عمل، فضلاً عن أن أعضاء المدرسة الملحقة كذلك بالمجمع كانوا معفيين من الخدمة العسكرية.

والمجمع هو منشأة خيرية اجتماعية تعليمية تشتمل على مسجدين، ومدرستين، وكتّاب، ودار المرق (أي الإيمارت أو دار لإطعام الفقراء)، ومكاتب إدارة الوقف. والمجمع بناء فخم عظيم المساحة (٤١٦٠م٢) يتكون من أربع مجموعات من الأبنية تمتد من الشمال إلى الجنوب في محور طولي يطل على بحر إيجة بواجهته الغربية الطولية. كل مجموعة مصممة؛ بحيث تفتح حجراتها وفراغاتها على فناء داخلي مكشوف، وتقع الأبنية في طابقين. وجدير بالذكر أن هذا المجمع الضخم مستخدم الآن كفندق فخم؛ حيث استؤجر المبنى من وزارة الأوقاف المصرية.

وتتمثل الأربع مجموعات المعمارية المكونة للمجمع من الشمال إلى الجنوب كما يلي: المجموعة الأولى تشمل الإيمارت (دار إطعام الفقراء) ومدرسة بالركن الجنوبي الشرقي. يلي ذلك جنوبًا المجموعة الثانية وتشمل المدرسة والجامع الرئيسي بالمجمع بالركن الجنوبي الشرقي. ثم المجموعة الثالثة وتتضمن المدرسة الأقدم في الإنشاء والمسجد الصغير بالركن الشمالي الشرقي، والغرف تشغل الضلع الجنوبي لهذه المجموعة. والمجموعة الأخيرة تمثل مكاتب إدارة الوقف.

وبينما تشرف مباني المجمع المعماري بامتداد الواجهة الغربية الطولية على بحر إيجة، فتشرف الواجهة الطولية الأخرى وهي الشرقية على شارع Poulidou؛ حيث توجد مداخل المجموعات المعمارية الأربعة للمجمع. وأعلى كل مدخل يوجد نص تأسيسي باللغة العثمانية، ولحسن الحظ لا تزال النصوص التأسيسية محفوظة حتى الآن.

أقدم النقوش التأسيسية هو الخاص بالمدرسة الأقدم والأكبر بالمجموعة، وهو نقش شديد الأهمية مؤرخ بسنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧-١٨١٨م، ويتكون من أربعة أعمدة كل منها يشمل ثمانية صفوف بمجموع اثنين وثلاثين بحرًا كتابيًّا؛ اثنان منهما خاليان وهما الطرفيان في الصف السفلي، وينتهي بتاريخ المدرسة سابق الذكر. وهذا النص يحتاج لدراسة مفردة لما يحويه من أهمية بالغة ومعلومات عظيمة القيمة تتعلق بدور محمد علي في حملاته بالحجاز وأهمية وعظم هذا الدور لدى السلطان العثماني، فضلاً عن العديد من الألقاب والوظائف ودلالالتها. ويذكر النص عن المدرسة بأن القلم يعجز عن وصفها، وأنها تحتوي مكتبة وقاعات درس وحجرات إقامة في غاية الحسن.





والنقش الثاني يخص المدرسة الثانية، وهي الأحدث، وهو مؤرخ بسنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠-١٨٢١م. والنقش الثالث أعلى مدخل الإيمارت (دار إطعام الفقراء بالمجان أو سرايا الضيافة كما ذُكر بالنص التأسيسي)، وهو نقش شديد الأهمية كذلك، ومؤرخ بتاريخ المدرسة الثانية نفسه أي سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠-١٨٢١م. وتضمن النقش الأخير اسم الخطاط الذي نقش هذه النصوص، وهو الخطاط العثماني الشهير مصطفى عزت. والنقش الرابع والأخير هو الخاص بالكتاب (مكتب تعليم الأطفال) وهو مؤرخ أيضًا بسنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠-١٨٢١م.

وهندسة المجمع المعمارية وزخارفه تمثل نموذجًا للعمارة والفن العثماني في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وهي من النماذج المعمارية القليلة الكاملة في هذا الصدد. وظل المجمع يقوم بدوره التعليمي والاجتماعي حتى بدايات القرن العشرين سنة ١٩٠٢م، وظل يقوم بإطعام الفقراء مجانًا حتى سنة ١٩٢٣م.

المنزل





يمثل منزل محمد علي باشا نموذجًا للمنازل التركية من طابقين وحديقة كبيرة، والبيت يشغل مساحة ٣٣٠م٢، أساساته من الحجر الطبيعي، والأرضيات والأسقف من الخشب، والسطح العلوي مائل ومغطى بالقرميد الفخاري. تمت إصلاحات وأعمال كبيرة في المنزل فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

يتكون المنزل - شأن العمائر السكنية عامة والعثمانية منها على وجه الخصوص - من ثلاثة أقسام: قسم الحريم والمعيشة، وقسم الرجال واستقبال الضيوف، وقسم التخديم. فراغات التخديم وتشمل المطبخ وبيت الخلاء وأماكن التخزين تتركز في الطابق الأرضي، بينما تتركز أماكن قسم الحريم والمعيشة في الطابق العلوي، وتتوزع أماكن قسم الرجال واستقبال الضيوف بين الطابقين الأرضي والأول. وكافة غرف المنزل مجهزة بمدفأة وهي واحدة من السمات الخاصة بهذا المنزل، وعلى عكس المألوف في المنازل العثمانية؛ حيث تجهز غرف محدودة بعنصر المدفأة.

تم تأهيل المنزل وكذلك المنطقة المحيطة به ليصبح مزارًا مفتوحًا للعامة، ويستخدم كمتحف مفتوح، كما يتم عمل معارض فنية فيه من وقت لآخر.



ومبنى الإيمارت والمنزل تم ترميمهما إثر مناقصة عامة عالمية من وزارة الأوقاف المصرية عام ١٩٩٨م؛ حيث تم ذلك في سياق تأجيرهما، بعقد لمدة ٥٠ عامًا، لإعادة توظيفهما كفندق عالمي ومزار سياحي. وهما الآن في حالة ممتازة من الحفظ والصيانة ويستخدم الإيمارت كفندق ٥ نجوم، بينما يمثل المنزل متحفًا مفتوحًا، ويعلو كليهما العلم المصري.





تمثال محمد علي بمدينة قولة



